

الفهرست

نُبذة نازِش خيبر العرب في أوروبا

| | | | |
|------|------------------|----|------------------|
| (١٥) | (خطبة طارق) | ٢ | عبدالرحمن الأموي |
| ١٨ | العرب في الاندلس | ١٢ | الاندلس |
| | | ١٣ | فتح الاندلس |

عبدالرحمن الداخل

| | | | |
|----|---|----|-------------------------|
| ٣٦ | انصافه | ٢٤ | فراره من بلاده |
| ٣٧ | ميله الى الجند | ٢٥ | حكايته عن نفسه |
| ٣٨ | فضله | ٢٧ | ذهابه الى افريقية |
| ٣٩ | أوصافه | ٢٨ | مهمة بدر |
| ٤٠ | أدبه | ٣٠ | ذهاب الداخل الى الاندلس |
| ٤٠ | أمثلة من شعره | ٣١ | فتح قرطبة |
| ٥٢ | أمثلة من نثره (محادثته . خطابته . كتابته) | ٣٣ | أخلاق الداخل |
| | | ٣٣ | صرامته |
| ٦٣ | أثره في الحضارة الاندلسية | ٣٥ | ديمقراطيته |

هشام بن الدأخل

| | | | |
|----|------------------|----|-----------------|
| ٦٧ | فضله على العربية | ٦٦ | موجز تاريخه |
| ٦٨ | مثال من أدبه | ٦٦ | مثال من عدله |
| | | ٦٧ | أثره في الأندلس |

الحكم الأول

| | | | |
|----|-----------------|----|----------------|
| ٧٤ | مثال من إقدامه | ٧٠ | رباطة جأشه |
| ٧٤ | مثال من شعره | ٧٢ | صفاته وأخلاقه |
| ٧٥ | أثره في الأندلس | ٧٢ | ميله إلى اللهو |
| | | ٧٢ | مثال من شهامته |

الدين في إسبانيا

| | | | |
|-----|---------------------|----|---------------------|
| ٩٣ | أثر العقيدة الدينية | ٧٦ | الاسلام في اسبانيا |
| ١٠٠ | المسيحية في اسبانيا | ٧٧ | محيى بن يحيى |
| | | ٧٩ | شيوخ المذهب المالكي |

عبد الرحمن الثاني

| | | | |
|-----|-----------------|-----|---------------------------|
| ١٠٨ | أوصافه | ١٠٦ | أثره في الحضارة الأندلسية |
| ١٠٨ | أمثلة من شعره | ١٠٧ | أثره في الحركة الفكرية |
| ١١٠ | فضله على الغناء | ١٠٧ | وإليه بالنساء |

زُرَّابِ الْمَوْسِيقَى

| | | | |
|-----|----------------------|-----|------------------------------|
| ١١٦ | (فضله على الموسيقى) | ١١٣ | (غيرة اسحق الموصلي منه) |
| ١١٦ | (سعة حفظه) | ١١٤ | (رحلته الى الاندلس) |
| ١٢١ | أثر الشرق في الاندلس | ١١٥ | (احتفاء عبدالرحمن الثاني به) |

ابن جَبَانِيٍّ وَلَمْتَنِبِيٍّ

| | | | |
|-------|-----------------|-------|---------------------|
| (١٤٤) | (ترجمته) | ١٢٧ | تمهيد |
| ١٥٦ | المقارنة بينهما | ١٢٩ | مختار شعر ابن هانيء |
| (١٦٤) | (أساليب الشهرة) | (١٢٩) | (ترجمته) |
| | | ١٤٤ | مختار شعر المتنبي |

مجلد بن عبد الرحمن

| | | | |
|-----|---------------------------|-----|-------------|
| ١٨٠ | المذهب الحنبلي في امباليا | ١٢٨ | موجز تاريخه |
| | | ١٢٩ | صفاته |

المنذر بن محمد ١٨١

عبد الله بن محمد

| | | | |
|-----|---------------|-----|--------------|
| ١٨٥ | أمثلة من شعره | ١٨٣ | موجز تاريخه |
| ١٨٢ | مشال من شعره | ١٨٤ | أوصافه |
| | | ١٨٤ | حزنه على أمه |

عبد الرحمن الباق

| | | | |
|-------|--------------------------|-----|---------------------------|
| ٢٠٦ | (احتفاء الاندلسيين به) | ١٨٩ | نبذة من تاريخه |
| ٢٠٦ | (نفور الألبيري منه) | ١٩٤ | (التاريخ والبلاغة) |
| ٢٠٩ | خطبة البلوطي | ١٩٩ | أثر المصطفى الاندلس |
| (٢٠٩) | (ترجمته) | ١٩٩ | سبب تعلقه بالخلافة |
| ٢١٤ | طرف من أخبار الناصر | ٢٠٠ | منشور الخلافة |
| | مع بن شهيد | ٢٠١ | أثره في الحضارة الاندلسية |
| ٢١٧ | خطوة لدين في زمنه | ٢٠١ | تشديد مدينة الزهراء |
| ٢٢١ | حنانيته بتربية الحكم | ٢٠٤ | المصر لدهبي |
| ٢٢١ | مؤامرة عبد الله | ٢٠٤ | هدية قسطنطين |
| ٢٢٣ | فصل في مؤامرة | ٢٠٥ | ارتباك أبي على الثاني |
| ٢٢٠ | مثالان من شعر الناصر | ٢٠٥ | (ترجمة الثاني) |

الحكم الثاني

| | | | |
|-----|-----------------------|-----|----------------|
| ٢٣١ | تشديد في محاربة الخمر | ٢٢٥ | نبذة من تاريخه |
| ٢٣١ | مثالان من شعره | ٢٣٠ | حروبه |

الموشحات

| | | | |
|-----|------------------|-----|-----|
| ٢٣٤ | نمذج من الموشحات | ٢٣٣ | شبه |
|-----|------------------|-----|-----|

| | | | |
|-------|-------------------------------|-------|----------------------------|
| ٢٧٢ | موشحة ابن المعتز | ٢٤٤ | أثر مجالس الأدب والغناء |
| (٢٧٢) | (ترجمته) | | في الشعر |
| ٢٧٣ | اختراع الموشحات | ٢٤٨ | تعنت المقاد |
| ٢٧٦ | موشحة ابن بقي | ٢٥٤ | ابن رشيق والتجديد |
| ٢٧٧ | أثر الغناء في اختراع الموشحات | (٢٥٤) | (ترجمته) |
| | | (٢٥٧) | (شكوي ابن قتيبة) |
| ٢٨١ | كانت الموشحات مما يغنى به | ٢٥٨ | سلطان الغناء |
| ٢٨٣ | الغناء | ٢٦٢ | أثر الغناء في الشعر العربي |
| | | ٢٦٦ | الشكوي من القافية |

الأزجال ٢٨٨ نماذج مختارة من الزجل ٢٨٩

هشام الثاني وحاجبه المنصور

| | | | |
|-----|---------------------|-----|---------------------------|
| ٣٠١ | مثال من صرامته | ٢٩٢ | ولاية هشام |
| ٣٠٢ | مثال من فطنته | ٢٩٥ | كيف وصل المنصور الى الملك |
| ٣٠٣ | نفاذ بصيرته | ٢٩٥ | وفوده الى قرطبة |
| ٣٠٤ | شعوره بحجده | ٢٩٥ | تعلقه بالسيدة صبح |
| ٣٠٧ | مثال من تأملاته | ٢٩٦ | تدرجه في المناصب |
| ٣٠٩ | اثر البلاغة في نفسه | ٢٩٦ | طموحه الى الملك |
| ٣١١ | مثال من أثره | ٢٩٧ | استبداده بالسلطان |
| ٣١٦ | مثالان من شعره | ٢٩٨ | أثره في الاندلس |
| ٣١٨ | مجالس الادب واللهو | ٢٩٨ | محق العصبية |
| | في زمنه | ٢٩٩ | تشديد الزاهرة |
| | | ٣٠٠ | ولعه بالغزو |

| | | | |
|-------------------|---------|-----------------------|---------|
| كيف امتحنوا صاعدا | ٣٢٠ | (أمثلة من أ كاذبيه) | (٣٢٥) |
| بداهة صاعد | ٣٢٢ | مناقضته مع ابن العريف | ٣٣١ |
| (ترجمته) | (٣٢٢) | مجلس انس ورقص | ٣٣٣ |

خط التتبع في اللغة الأندلسية

| | | | |
|-------------------------|-----|---------------------------|-----|
| ملوك الطوائف | ٣٢٦ | (حفظ أبي ضمضم) | ٣٤٧ |
| أثر التهذيب العربي في | ٣٢٧ | (حفظ الخوارزمي) | ٣٤٨ |
| لاسيانيين | | (عناية العرب بالحفظ) | ٣٤٨ |
| شكوى الثارو | ٣٣٨ | (حفظ الحميري) | ٣٥٠ |
| شعر العرب الأندلسيين | ٣٤٠ | ابن عبدون والاصمي | ٣٥١ |
| الافاني لدارجة | ٣٤٢ | أثر الحفظ في الشعر العربي | ٣٥٣ |
| عناية الأندلسيين بالحفظ | ٣٤٣ | | |

نظرات

فتاوى الشيخ الاسلام بن القيم

مجموعة مختصرة

ألفها في الجامعة المصرية

وصار ما كان من ملك ومن ملك
كما حكى عن خيال الطيف وسنار



مفوفة الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى

١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بصر
لصاحبها مصطفى محمد

الأهداء

نشأت ميالا الى الأدب ، وما زال ينمو
هذا الليل حتى أصبح كلفا بدراسته
وقد وقفت المدارس المصرية حائلا دون
اشباع هذه النهضة ، ووجدت في الجامعة المصرية
الجو الطاق الذي تأنس اليه نفسى ويلتئم مع
مزاج تفكيرى
وهذه محاضرات كانت الجامعة المصرية
من اكبر المشجعين على اظهارها

فالى كل من وضع حجرا فى بناء هذا
المعهد انعمى المصرى اخرا أو فكريا فى إنشائه ،
والى أساتذته وطلابه ومشجعيه ، أهدي هذا
الكتاب ...
حامد كبروني

مقدمة

(١)

طلب الى حضرة الدكتور احمد ضيف، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب « تاريخ آداب العرب للأستاذ نيكلسون » لألقيه في الجامعة المصرية ، وهو الفصل الذي أفردته من كتابه الممتع ، للكلام على تاريخ الادب العربي في اسبانيا

(٢)

لم أكد أقرأ هذا الفصل حتى بدا لي خطره ونفاسته ، وعرضت لي عدة ملاحظات على بعض ما جاء فيه ، ولم أكد أشرع في مناقشة أهم نقطة الرئيسية ، حتى اتسع أمامي مجال البحث ، وشجبتني على مواصلة ما رأيته من النقص الشديد الذي يكاد يمس كل مطالع على الكتب العربية التي تناولت الكلام في هذا الموضوع ، وما عنته من الحاجة الماسة الى كتاب يوفر على طلبة الادب الاندلسي وغيرهم من المشغولين به ، قبلا مما يتكبدونه من عناء البحث في الاسفار العربية الضخمة المهوشة ، ويحفظ وقتهم لثمين من الضياع !

وذكرت أن جلال نهضتنا القومية لا يتناسب مع جهلنا عظماء لغتنا الذين تركوا أوضح الاثر في بلاغة نستمد منها الحياة والقوة ، فلتن كان من الحق ألا يجهل الانسان عظماء الامم ذوي الاثر الكبير في الحضارة العالمية ، فهو أجدر ألا يجهل عظماءه قبل كل شيء !

دفعتنى هذه الاعتبارات الى عدم الاقتصار على ترجمة هذا الفصل الممتع، وثم، اتخذته مرجعاً من المراجع الكثيرة التى رجعت اليها، بدلاً من اتخاذه موضوع المحاضرة

(٣)

اقتصرت فى هذا الكتاب على ترجمة النصف الاول من هذا الفصل، وقد أقيت القسم الاكبر من هذه المحاضرات منذ أكثر من عامين فى الجامعة المصرية، ثم نشرت بعضها فى احدى الصحف الادبية، فلقيت من الاستحسان ولضى ما شجعنى على طبعها

(٤)

ولم يفتنى أن أورد فى حوشى الكتاب كثير من التعليقات الضرورية التى اضطررتى ضيق الزمن الشديد، الى الاكتفاء بالإشارة اليها دون ذكرها، وقت اللقاء المحاضرات

وقد تعمدت ذكر امثلة وعناذج شغلت مكاناً من الكتاب ما كانت لتشغله، لو أن كتاباً حديثاً سبقتنى الى الاستشهاد بها، أو لو أنى وثقت أن جمهور الأدباء عندنا يرفقونها !

(٥)

(وبعد) فهذه نظرات سريعة أقيت بها الى تاريخ الأدب الاندلسى، وسأتبعها بعد قليل بالقسم الثانى منها، فليقرأها القارئ على أنها مقدمة لدراسة الأدب فى ذلك العصر، ولتخذها نواة لكتاب واف يتناول فيه ذلك بتاريخ بشىء من التوسع والاسهاب اذا أمكننا الفرص وكان فى الاجل بقية ...

كامل كيلانى

القاهرة ٢٠ يناير سنة ١٩٢٤

- ل -

أهم المصادر العربية التي رجعت إليها

| | |
|-----------------------------------|-----------------|
| نفع الطيب | لمقرى |
| المعجب في تلخيص أخبار المغرب | للمراكشي |
| الاحاطة في أخبار غرناطة | لابن الخطيب |
| المقدمة | |
| تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر | لابن خلدون |
| قلائد المقيان | للفتاح بن خالان |
| الذخيرة | لابن إسماعيل |
| وفيات الأعيان | لابن خلدون |
| فوات الوفيات | لابن شاكر |
| العرب في إسبانيا | لمحمد دياب |
| مقدمة الألبانة | لابستاني |
| العمدة | لابن رشيق |
| الشعر والشعراء | لابن قتيبة |

أهم المصادر الأجنبية

Nicholson : a Literary History of the Arabs.

Dozy : l'histoire des musulmans de l'Espagne
jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les chrétiens
(711—1110 .)

Dozy : Recherches sur l'histoire et littérature de
l'Espagne pendant le moyen âge.

Encyclopédie Islamique

Pizzi : Letteratura Araba

نُبذة نَارِ الشَّخِيزَةِ العرب في أوزونيا (١)

وَمَا يَسْتَرْعَى النَّظَرَ، أَنَّهُ قَبْلَ نَهَايَةِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمِجْرِي،
أَثْنَاءَ حَكْمِ الْمَلِكِ الْأَمَوِيِّ، الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ (٧٠٥ - ٧١٥ م)
اجْتَاَزَ الْمُسْلِمُونَ، تَحْتَ قِيَادَةِ طَارِقٍ وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ، الْبَحْرَ
الْأَبْيَضَ الْمَتَوَسِّطَ

وَبَعْدَ أَنْ هَزَمُوا رُودْرِيكَ الْقَوِطِيَّ فِي مَوْقِعَةٍ كَبِيرَةٍ
قَرِيبَةٍ مِنْ قَادِسٍ، أَخْضَعُوا بِسُرْعَةٍ جَمِيعَ مَا تَبَقِيَ مِنْ أَسْبَايَا. وَاقْتَدَ
طَالَ أَمَدَ الشَّكِّ فِي مَصِيرِ هَذَا الْأَنْلِيمِ الْجَدِيدِ، فَانْثَوْرَةَ الْبَرْبَرِ
الَّتِي قَامُوا بِهَا فِي أَفْرِيقِيَا (٧٣٤ - ٧٤٢ م) امْتَدَّتْ إِلَى أَسْبَانِيَا
وَكَادَتْ تَهْدِدُ الْعَرَبَ بِزَوَالِ مَسْتَعْمَرَاتِهِمُ الَّتِي امْتَاكُوهَا
وَلَمْ يَكُنْ يَزُولُ هَذَا الْخَطَرُ حَتَّى عَادَ الْتَمَصْرُونَ، فَضَرَمُوا
مِنْ جَدِيدٍ نَارَ الْحَزَازَاتِ وَالسَّخَائِمِ، آتَى وَرَثَتُهَا عَنْ أَسْلَافِهِمْ

(١) مَعْرُوبَةٌ عَنْ كِتَابِ الْأَسْتَاذِ نِيكَاسَرْدِ الْمُسَمَّى تَارِيخَ آدَابِ الْعَرَبِ
A Literary History of the Arabs

من قيس و كلب ، ثم بدأت الاحزاب السياسية وبدأ
المتبارون من السوريين واليمنيين يلجئون الى سيوفهم مرة
اخرى ، ففرقت البلاد في بحر من الفوضى

عبدالرحمن الأموي

وفي هذه الاثناء حدث أن عبدالرحمن بن معاوية ، حفيد
الخليفة الاموي هشام ، فر من المذبحة العامة التي ختم بها
العبيسون 'تتصارم على الأسرة الأموية'
وبعد أن قاسى الشدائد سائحاً مدة خمس سنوات ،
لا يرفته في سياحته الا بسر ، رفيقه الامين ، وصل الى مدينة
سبته . حيث جأئى ركن مزعزع بين قبائل البربر
وسكن الفتوة والضموح والثقة التامة بالنفس في
تحقيق ما يصبو اليه ، جعلت عبدالرحمن يفكر في مشروع
العودة بخيرة

دعى بنفسه في اسبانيا مؤملاً أن يكسب الملك
بمساعدة العرب الذين عرف حق المعرفة أن فيهم الكثيرين
من بنو امية لا سرته

وعلى ذلك فقد أرسل بدرا في سنة ٧٥٥ م برسالة سرية
عبر بها البحر، فاتم له ذلك السفير اكثر مما كان يتوقع منه
وقد كان الحصول على مؤازرة العملاء لعبد الرحمن
سهلا . لانه كان رئيسهم لطبيعة الحال ، ولانهم بلا شك
سيتمسكون به لمامدة اذا نجح ، ولكن عددهم كان على كل حال
قليل بالتمسك الى سواهم

ولا أمل للداعي في انجاز ما يدعوا اليه ، الا اذا ساعده
احد الحزبين العظيمين ، حزب السوريين او حزب اليمنيين ،
وكان يقود الحزب الذي حينئذ الحاكم الضعيف يوسف
ابن عبد الرحمن الفهري ، وصاحب الصميل بن حاتم الذي كان
— رغم كفاءته — قاسي القلب ، وقد كانا لمسيطرين وصاحبي الكلمة
النافذة ، وكانا يسومان خصومهما سوء المذاب بالارحمة

فكان ذلك باعثا على مسارعة اليمنيين الى جانب عبد الرحمن ،
لا حبا فنيا يدعوا اليه ، بل مدفوعين الى ذلك بسامل الاخذ
بالشار والانتقام من أعدائهم ، حتا أن هؤلاء الغنسين
المسلمين هم من ذلك الجنس البدوي :

هذه نمسا من هذه النسية لا ولد الحية لا حية :

ثم احتل اشبيليا بعد بضعة أشهر من حلوله اسبانيا .
وهزم يوسف والصميل تحت أسوار قرطبة، وجعل معه
واليا عليها، ورأس في نفس ذلك المساء أهلها الذين اجتمعوا
في المسجد الكبير لاداء الصلاة، واعتبر حاكم اسبانيا في
مايو سنة ٧٥٦ م

وظل عبد الرحمن يعمل على حماية مملكته وتدريب
قواها أثناء حكمه الطويل الذي استمر اثنتين وثلاثين عاما
وكادت تخرج المملكة من قبضته مرارا - لولا
حذقه وحمته - ولم كان العبء الملقى على عاتقه شديدا وشاقا .
فقد كانت أمامه العصبيّة العربية القوية الشكيمة، التواقة
الى الاستقلال بشئونها، والتي تعد الحكومة عدوة لها،
ولم يكن ثمة من سبيل الى ردعهم الا بجيش يفوق
قوتهم، ولهذا لجأ الى الاستعانة بالجنود المرتزقة (المأجورة
الذين أحضرهم من برايرة افريقيا، ومن ثم نشأت في العرب
نفس الاسباب التي أدت بالملكة العباسية الى السقوط . و
يمكن شأن هذه الاسباب هنا أقل اثرا من شأن تلك

الاسباب هناك

ثم كان تعصب المسيحيين الذين كانوا يتظلمون ، بما
فيهم احزاب الوطنى الاسباني ، الى رفع النير الاجنبى عنهم ،
فجاء ذلك ضغثا على ابالة ، ومن ثم وجب إيجاد قوة خارقة ،
تهيمن على تلك العناصر المتمردة

هم ان الدولة التى وضع أساسها عبد الرحمن الناصر لم
تش اكثر من قرنين ، ولاسكنها مع ذلك استطاعت أن
تخلد لها ذكرا رفيعا بين سائر الدول بما نالتة اسبانيا على
يديها من الرقى والمدنية والتهديب ، مما لم تتمتع به فى زمن ما
ويعزى الفضل فى ذلك كله ، الى المخاطر الجرىء عبد الرحمن
الذى لم يغمطه ، حتى أعداؤه ، حقه من الاعجاب والتناء
فقد قلوا إن الخليفة ^(١) المنصور العباسى سأل حاشيته
ذات يوم : « من صقر قریش ؟ »

(١) ماخضة عن كتاب البيان المغرب طبعة دوزى (المجلد

الذى صحيفة ٦١)

فاجابوه : و: ذلك لفيك يا أمير المؤمنين ،، (هذا هو
الجواب الطبيعي لسؤاله)

« فانت الذي أخضع جبابرة الملوك وقع الدين الداخاية ! »
فأجابهم الخليفة « كلا ليس هذا لقي ! »
« اذن معاوية ، أو عبد الملك »
فقال لهم المنصور :

« كلا - انما صغر قريش هو عبد الرحمن بن معاوية
الذي جاب مهامه ، افريقيا بمفرده !
والذي استطاع أن يحقق إرثه من غير جيش بذاته
في أفليم مجهول وراء البحر !
والذي استطاع أن يخضع أعداءه ويسحق العصاة ،
ويشيد امبراطوريته العظيمة بلا - لاح يؤازره غير - لاح
الاناة ومضاء العزيمة !

ان عملا كهذا لم يأتيه قبله أحد ،، ا. هـ

نقلنا هذه القطعة التي افتح بها الاستاذ نيكسون
فصله الحادى عشر، انخاص بموضوع بحثنا اليوم، لتتبينوا منها
بأنفسكم، طريقته الخاصة فى الاداء، وابعازه الشديد، وميله الى
الاتيان بعبان كثيرة وآراء شتى فى اسطر وجيزة، وايكنا
(كما قلنا فى أول المحاضرة) لا يقنعنا مثل هذا القدر اليسير فى
الكلام على نشأة أمة نريد أن نتخصص فى دراستها (لا سيما فى
جامعة) ولا نستطيع أن نمر بهذا الجزء من فصله من غير أن
نشير بنقص، حتى فى بعض نقط جوهرية لا نستطيع
اغفالها مهما كان المقام ضيقا

افتتح الاستاذ نيكسون ذلك الفصل دون أن يتكلم
بشيء عن الانداس نفسها أو يبين لنا جغرافيتها وأهمية
موقعها الى غير ذلك، وقد يكون عذره فى هذا اعتقاده بأن
طلاب الآداب لا بد أن يكونوا ملمين بالامماتاما بمثل هذه
الاشياء، وأنهم يعرفون بلاشك موقعها الجغرافى ومكان البلاد
المهمة فيها من الخريطة، وهو عذر لا تردد فى قبوله

ثم تكلم عن فتح طارق بن زياد وموسي بن نصير
لهذه البلاد من غير أن يوضح لنا بإيجاز أهم الأسباب التي
اطمعت العرب فيها، وروح الفتح التي كانوا متشبعين بها وقتئذ،
والظروف الجمة التي اشتركت في العمل على سقوطها في أيديهم
نعم أنه كتب بضعة أسطر قليلة جدا في الفصل الخامس
الذي عقده على الدولة الاموية أثناء كلامه عرضا عن فتوحات
الولايد وبين أهمية هذه الفتوحات ، وقال إنها كانت أعظم
الفتوحات الاسلامية واعودها بالمعوائد الجمة ، وأن طارقا
اجتاز البحر الى اسبانيا بعد أن خضعت قبائل البربر القاطنة
شمال افريقيا واسكنه - زيادة على أنه لم يوف هذه النقطة - لم
يبين لنا نوع الامم التي كانت تقطن هذه البلاد وطبائعهم
ولم يعرفنا كيف وما هي العوامل التي أدت الى
استسلامهم للعرب ، وكيف فتح للعرب باب الامل على
مصراعيه واتيحت لهم الفرصة في امتلاكها ، ومن الذي
ارشدكم الى الطريق المؤدية الى فتحها وامتلاكها ، بهذه
السهولة وفي هذا الزمن اليسير ؟ ؟

*
* *

فليس يقتنع من يتصدى لدراسة الادب أو البلاغة
بإسرد بعض حوادث مشتتة لا ترجع الى أصل، أو يكتفى
بالاطلاع على بعض نماذج من البلاغة العربية أو الاندلسية
وسواها، ويضم ملح وطرف وفكاعات، أو يقتصر على معرفة
إبلغ ما كتب وأحسن ما قيل، ولا الحيد الاقصى الذى
وصلت اليه البلاغة التى يعنى بدراستها، ولا الامام يضع
قصائد سامية الخيال جليلة المعنى، ليتعرف آداب أمة معرفة
تنال صدره، وتكون مدعمة على أساس ثابت

نعم ان يقنع بمثل هذا القدر الذى يقتصر عليه مؤرخو
الآداب عندنا، من غير أن يدفعه ذلك الى الاستزادة، وإلى
البحث والتدقيق عن تاريخها المفصل وارتباطه بأدبها

وتم يستنتج بنفسه من سير الحوادث العديدة مزاجها
وتأثير ذلك المزاج فى أدبها، وليس لنا بد من معرفة نشأتها
ونشأة أهم ملوكها واشدهم أثرا فيها وفى أدبها، ومعرفة اخلاق
أهلها وادراك أثر تباين اجناسهم ومواهبهم فى الادب.
فقد كانوا خليطا من أمم شتى تمتاز كل أمة منهم بمواهب

خاصة بها، فتكون من نسلهم أمة جمعت مواهب لا يستهان
بها، تفسر لنا ما شاهده من اثرهم في الحضارة - في البلاغة
- في الفنون - في الطب - في الجغرافيا وفي كل شيء، مما
لا يكاد يصدق العقل، لذلك لا نستغرب قط من مؤرخي
الآداب (الغريبين علي الاخص) أن يعنوا بالتاريخ للعام
للأمة التي يحملون أديها ويدرسون بلاغتها عناية لا تقل عن
عنايتهم بنفس الآداب أو البلاغة التي يتعدون لبحثها.
إذن فليس لنا بد من تخصيص بعض هذه المحاضرات
لذلك. ليس لنا بد من نظرة اجمالية في تاريخ الآداب
لنتعرف منها سكان هذه الجزيرة (أو شبه الجزيرة إن
شئتم) وماذا آل اليه أمرهم، وما الذي اطعم العرب فيه الخ.
مما نراه جد ضروري لمعرفة المؤثرات التي جمعت الآداب
الاندلسي ممتارا عن سواه

لأن هذه الاسباب التي تختلف عن سواها، جديدة
كذلك أن تنتج آدابا مختلفة عن سواها
وكما ازدادت عناية مؤرخي الآداب بدرس التاريخ
العام مفصلا. وتحليل العظماء الذين خطوا للتاريخ طريقه،

كلما ازدادت مقدرتهم على تفهم الروح الادبية
وتطورات البلاغة

*
* *

والئن كان مقام الاستاذ نيكاسون لا يسمح له بشيء
من ذلك « كما يقول » فان مقامنا يسمح لنا بشيء قليل منه:
وانا لنجتزىء القول اجتزاء، وناخص الكم هذا الجزء
الضرورى الذى اغفله الاستاذ نيكاسون من كتابه فيما يلى:

(٣)
الاندلس

ترك شرح جغرافيتها للسبب الذي تركه من أجله
الاستاذ نيكلسون، ونبدأ بالصميم من تاريخها فنقول:
تغلب على بلاد الاندلس من قديم الزمان أمم شتى
من الافرنج واليونان والقرطاجنيين والقوط الذين استوثق
لحم الامر بعد الرومان^(١) وصاروا المهيمنين عليها عدة
قرون قبل الاسلام. ولما سادت المسيحية في الغرب اعتنقوها
فيمن اعتنقها، وكان يسمى ملكهم، وقت الفتح الاسلامي،
رودريق

ولم يقتصر على امتلاك بلاد الاندلس فحسب بل
تعدوا ذلك الى طنجة فاستعبدوها كما استعبدوا بلاد البربر
التي كان اسم ملكها حينئذ يليان، وكان خاضعاً لهم، يقطن
سبتة ويدين بدينهم

وفي هذه الاثناء كان الفتح الاسلامي يمتد بسرعة

(١) هذا مهم جداً لمؤرخي الآداب، لاهمية الاثر الذي ينشأ
عن هذا الاختلاط

مدهشة في زمن الوليد بن عبد الملك
وكان بطله وقتئذ موسى بن نصير الذي ناط به الوليد
هذه المهمة ، فذهب في نفر من المتطوعة حتى ورد مصر
وأخذ من جنودها فريقا ، ثم نزل بالقيروان فصبه أفريقيا
فاخذ معه عددا من الأقوياء الأشداء وفي مقدمتهم طارق
ابن زياد البربري ، وظل يفتح بلاد البربر حتى بلغ طنجة
ففتحها ونشر الاسلام فيها ، وخاف مولاه طارقا عليها بعد
أن أخضع يليان ملكها الاسلام

فتح الاندلس

كيف ولماذا فتحت الاندلس ؟ ومن لدى سهل للعرب
الطريق الى ذلك ؟ استبساد رودريق القوطي هو اكبر
العوامل التي أدت الى ضياع ملكه
فقد كان من عادة كبار القوط بالاندلس ان يرسلوا
أولادهم وبناتهم الى طليطلة ايتشرفوا بخدمة ملكهم ، فاذا
بلغوا ، زوجهم بعضا ببعض
وحدث أن كان من بين تلك البنات ابنة يليان حاكم

سببته وكانت غاية في الحسن ففتنت رودريق ، وحاول اخذها
مكرهة ، فاحتالت حتى أعلمت أباهما بذلك

فأضمر الحقد في نفسه لرودريق ، وحلف ليقوضن
دعائمه ملائكة . وأخذ أبنته من رودريق ، ثم ذهب من توه
الى طارق فأفشى له أسرار القوط ، ودله على أماكنهم
وطريقة أخذهم ، فسار طارق بأذن من موسى بن نصير على
رأس جيش من العرب والبربر الى بلاد الاندلس

قال صاحب كتاب المعجب وهو من رجال القرن
سابع الهجري :

« و أول موضع برنه - فيما يقال - منها ، المدينة المعروفة
باجزيرة خضراء اليوم

نزل قبيل الفجر فصلى بها الصبح بموضع منها ، وعقد
الرايات لأصحابه ، فبني بعد ذلك منته مسجدا ، وعرف بمسجد
الرايات . وهو باق الى وقتنا هذا . أسأل الله ابقاءه الى أن
تقوم الساعة : (١) »

وَمَا بَلَغَهُ دُو رُوْدْرِيقَ ، قَالَ خُطْبَتُهُ الْمَعْرُوفَةُ ، الَّتِي لَا تَقُلُ
بِالْغَيْبِ عَنْ أَبْلَغِ خُطْبِ الْقَوَادِ الْمَشْهُورِينَ (١)

(١) قَامَ فِي أَصْحَابِهِ ، فَحَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ حَثَ الْمُسْلِمِينَ
عَلَى الْجِهَادِ وَرَغَبَهُمْ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ! أَيُّنَ الْمَفْرُوعِ الْبَحْرِ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَالْعَدُوِّ
أَمَامَكُمْ ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللَّهُ إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبْرُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي
هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَضْيَعُ مِنَ الْإِيْنَامِ فِي مَادِيَةِ اللَّثَامِ ، وَقَدْ اسْتَقْبَلَكُمْ
عَدُوُّكُمْ بِجَيْشِهِ ، وَأَسْلَحَتِهِ وَأَقْوَانِهِ مَوْفُورَةٌ ، وَأَنْتُمْ لَا وَزَرَ
لَكُمْ لَا سِيُوفَكُمْ ، وَلَا قُرَاتٍ إِلَّا مَا تَسْتَخْلَصُونَهُ مِنْ أَيْدِي
عَدُوِّكُمْ . وَإِنْ أَمْتَمْتُمْ بِكُمْ الْإِيَّامَ عَلَى افْتِقَارِكُمْ ، وَلَمْ تَنْجِزُوا لَكُمْ
أَمْرًا . ذَهَبَ رِيحُكُمْ ، وَتَعَوَّضَتِ الْقُلُوبُ مِنْ رَعْبِهَا مِنْكُمْ الْجُرْأَةُ
عَيْبُكُمْ . فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ خِذْلَانِ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ مِنْ أَمْرِكُمْ ،
بِمَنَاحِزِهِ هَذِهِ انْتِصَافِيَةٍ ، فَقَدْ لَقِيتُ بِهِ إِلَيْكُمْ مَدِينَتَهُ الْحَصِينَةَ ،
وَإِنْ انْتَهَزَ الْفُرْصَةَ فِيهِ لِمُمْكِنٍ ، إِنْ مَحِجْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ لِلْمَوْتِ ، وَإِنِّي
لَمْ أَحْذَرِكُمْ مُرَاثَا عَمِهِ بِنَجْوَةٍ ، وَلَا حَمَلِكُمْ عَلَى خُطْبَةِ أَرْخَصِ
مَتَاعِ فِيهَا النُّفُوسُ أَبْرَ مِنْهَا بِنَفْسِي ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ - إِنْ صَبَرْتُمْ
عَلَى الْأَشَقِّ قَلِيلًا - اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْأُرْفَةِ الْأَلَدِ طَوِيلًا ، فَلَا تَرْغَبُوا
بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ نَفْسِي ، فَمَا حَظُّكُمْ فِيهِ بِأَوْفَرِ مِنْ حَتْلِي . »

وَقَدْ بَاغَكُمْ مَا أَنْشَأَتْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ مِنَ الْحُورِ الْحَسَانِ ، مِنْ

وما كاد ينتهى منها حتى انبسطت نفوس أصحابه
وأجابوه : « قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمنا عليه ،
فاحضر اليه ، فاننا معك وبين يديك » وفي صباح الغد تاهب

بنات اليونان (على التشبيه بهن) الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل
المنسوجة بالعقيان (الذهب) المقصورات في قصور الملوك ذوي
التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك - أمير المؤمنين - من
الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة
منه بارتياحكم لأطمان ، واستماحكم بجالدة الأبطال والفرسان ،
ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه به - هذه
الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين
سواكم ، والله - تعالى - ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكرا
في الدارين .

واعلموا أنني أول مجيب الى مادعوتكم اليه ، واني عند ملتقى
الجمعين - حامل بنفسي على طاعة القوم ، لتدريق ، فقاتله - ان
شاء الله تعالى - فاحملوا معي ، فان هلكتم بعده ، فقد كفيتكم
أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه ، وان هلكتم
قبل وصولي اليه ، فاخلقوني في عزمي هذه ، واحملوا بأنفسكم
عليه ، واكنفوا المهمل من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده
ينخذلون . »

الجيشان ، وحمل رودريق ، وهو على سريرته ، وقدرفع على رأسه رواق ديباج يظله ، وهو مقبل في غابة من البنود والاعلام ، وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق على أصحابه ، عليهم الزرد ، ومن فوق رؤوسهم العمام البيض ، وبأيديهم القسي العربية ، وقد تقلدوا السيوف ، واعتقلوا الرماح ، فلما نظر اليهم رودريق ؛ حاف وقال : « إن هذه العصور هي التي رأيناها بيت الحكمة يبلدنا » فداخله منهم الرعب ، فلما رأى طارق رودريق ، قال : « هذا طاغية القوم ، فحمل ، وحمل أصحابه معه ، ففترقت المقاتلة من بين يدي رودريق ، فخلص إليه طارق ، فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريرته ، وتم لطارق الفوز وانهزم اعداؤه والرعب ملء قلوبهم

ثم تغلغل طارق في بلاد الانداس ، وغنم شيئا كثيرا كان داعية لحسد موسى بن نصير عليه ، وقد بذل طارق وسعه في استئلال السخيمة من صدر مولاه موسى ، بكل الوسائل ، فحمل اليه كل ما غنم ونسب اليه الفتح ، ولكنه

خفق في رضائه رغم ذلك كله
وفي أقل من عشر سنوات تم فتح الأندلس ،
ولا بعض أصماع جبلية في الشمال الغربي منها

العرب في الأندلس

وبعد ذلك أخذ العرب ينظمون البلاد ويؤمنون أهلها ،
وفرضوا على من لم يسلم منهم جزية أقل بكثير مما فرضه
عليهم القوض . دون أن يمسه بأذى ، مما دل على أن دولتهم
ستبقى بداهة ، ولكن حدث عكس ذلك لأسباب
سند ذكره في موضعها

ويست مسألة التسامح الديني التي أظهرها العرب في
مع ملتهم مسيحي إسبانيا بأشياء القليل الذي يستهان به ، فان
نخرة واحدة إلى دول أوروبا في القرن السادس عشر ، وإلى
تضاحل خيف من جراء العقيدة الدينية - نظرة واحدة
في لدماء التي سفكت . وإلى الحروب الهائلة التي أقامها
تعميب بني - نظرة واحدة إلى المذابح العديدة المتكررة
التي سببها تعصب الأعمى للدين ، كذبحة قاس التي حدثت

في فرنسا سنة ١٥٦٢ م ومذبحة سان برثليميو عام ١٥٧٢ م
التي حدثت في باريس وذبح فيها من الهيجنوت ما لا يقل
عن ٢٠.٠٠٠ نسمة . ونظرة اخرى الى معاملة مسيحي
اسبانيا للمسلمين بعد أن طردوهم من اسبانيا والى الفظائع
التي ترتعد منها الفرائص ، تلك الفظائع التي ذكرها
الرندي الفليل منها دون الكثير ، في قصيدته الزونية التي
يقول فيها :

يا من لدلة قوم بعد عزهم
أحال حالهم جور وطغيان
فلو ترام حيارى لا دليل لهم
عليهم في ثياب الذل ألوان!
ولو رأيت بكم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزان!
يا رب أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كانما هي ياقوت ومرجان

يقودها العالج المكروه مكرهه
والعين باكية والقلب ولهان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان
ويقول منها في موضع آخر:
فجائع الدهر أنواع متنوعة
وللزمان سرات وأحزان
والحوادث سلوان يسهلها
وما لما حل بالاسلام سلوان
ومنها

يا غافلا وله في الدهر موعظة
إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلبيه موطنه
أبعد حصن تغر المرء أوطان؛
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
وما لها من طوال الدهر نسيان

ومنها :

يارا كمين عتاق الخيل ضامرة

كانها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة

كانها في ظلام النقم نيران

ورائعين وراء البحر في دعة

لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ عن آل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان ؟

الا نفوس أبيات لها هم

أما على المجد أنصار وأعوان ؟

والقصيدة طويلة وقد اخترنا أحسن ما فيها، وهي - رغما

عن سذاجتها - تدل على شعور صادق ونفس متألمة ثم هي

أيضا تقرر حقيقة تاريخية ووقائع ثابتة ليس من شك في

وقوعها

أقول :

إن نظرة إلى كل ذلك ، بل مالنا نذهب بعيدا - إن

نظرة واحدة الى ما لا تزال ترتكبه حتى أشد الامم مدنية
الى الآن من الجرائم والفظائع وحنوف القسوة بسبب
التعصب الديني، لتبين لكم قيمة هذا التسامح الذي
أظهره مسالمو الانداس نحو مسيحييها، وتجعلكم تكبرون
أمره لا سيما في ذلك الوقت - واسكنه الدين الاسلامي
الذي بنى على السلام والصفاء والتسامح هو الذي هدام
الى ذلك

« وتداول على بلاد الانداس ولادة من قبل بني أمية
أو من قبل من يقيمونه بلفيروان أو بمصر ، حتى قتل الوليد
ابن يزيد ، فاشتغلوا عن مراعاة أقاصى البلاد ، ووقع الاضطراب
بأفريقية ، والاختلاف بالانداس أيضا بين القبائل ، ثم
اتفقوا بالانداس على تقديم قرشي يجمع الكلمة الى أن
تستقر الأمور بالشام لمن يخاطب ، ففعلوا ، وقدموا
يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، فسكنت به الأمور ،
واتفقت عليه القلوب ، واتصلت امارته الى سنة ١٣٨ بعد
ذهاب دولة بني أمية بست سنين

وفي هذه السنة دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية
الملقب بالداخل ، فقامت معه اليمانية ، وحاربه وانتصر عليه
واستولى على قرطبة ، دار الملك ، وكان دخوله اياها يوم
الأضحى من تلك السنة ، فاتصلت ولايته إلى أن مات
سنة ١٧٢ « (١)

ولما كنا نعد عبد الرحمن الداخل ، مؤسساً كبر دولة
إسلامية في الأندلس ، بحق ، ونعزوله أكبر الفضل في تنظيم
تلك البلاد ، ومহারبة الفوضى ، التي كادت تلتهمها ، لولا
جهوده العظيمة ، وسياسته الحكيمة ، التي نهضت بها
وكانت سبباً في ازهار الآداب والخضارة العربية في
الأندلس ، ولما كان هذا الرجل فذاً في نوعه وكان اثره في
رقى البلاغة العربية شديداً جداً ، فانا لانرى بأساً من التوسع
قليلاً في سيرته الخافلة بالعظام ، لنلم بما لا بد من معرفته من
تاريخ هذا الملك الكبير ، متممين ما أغفله الاستاذ نيكلسون
في الصفحات التالية :

(١) ملخصة عن كتاب المعجب في تاريخ اخبار المغرب

عبد الرحمن الداخل

ولد سنة ١١٣ وتوفي سنة ١٧١ هـ

« لما وقع الاختلال ^(١) في دولة بني أمية ، والطلب عليهم ، فرعبد الرحمن ، ولم يزل في غراره متنقلا بأهله وولده ، الى أن حل بقريّة على الفرات ، ذات شجر وغياض يريد المغرب ، لما حصل في خاطره من بشرى مسكّنة ^(٢) »

(١) هذه عبارة ابن حيان التي نقلها المقرئ عنه
(٢) يشير بذلك الى حادثته مع مسلمة بن عبد الملك وهي مشهورة ، وحلاصتها أن عبد الرحمن هذا ، دخل ذات يوم وهو صبي ، على جده هشام ؛ وعنده أخوه مسلمة ، وكان شديد الفراسة بعيد النظر ، فأمر هشام أن ينحى عنه ، فقال له مسلمة : « دعه يا أمير المؤمنين ! هذا صاحب بني أمية ووزرم عند زوال ملكهم ، فاستوص به خيرا » قال عبد الرحمن : « فلم أزل أعرف من جدى مزية من ذلك الوقت »

ولا نحسبنا في حاجة الى التنبيه على ما تركته هذه البشري في نفسه من الاثر ، وما خلفته فيها من الامل الذي لا حد له في احراز السلطان ، فاجتاز أشد العقبات الموثمة ، وأحرز فيما بعد ، ملك بلاد الاندلس

حكايتہ عن نفسہ

قال عبدالرحمن الداخل :

« إننى لجالس يوما فى تلك القرية ، فى ظلمة بيت
تواريت فيه ، لرمد كان بى ، وابنى سليمان ، بكر ولدى ،
يلعب قدامى ، وهو يومئذ ابن اربع سنين أو نحوها ، إذ
دخل الصبي من باب البيت ، فازعا با كيا ، فاهوى الى حجرى
فجمعت ادفمه لما كان بى ، ويأبى الا التعلق ، وهو دهش
يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لا أنظر ، فاذا
بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فاذا بالرايات السود عليها
منحطة ، وأخ لى حدث السن كانت معى يشتد هاربا ،
ويقول لى « النجاء يا أخى ! فهذه رايات المسودة » فضربت
بيدى الى دنائير تناولتها ، ونجوت بنفسى ، والصبي أخى
معى ، وأعلمت اخواتى بمتوجهى ومكان مقصدي ، وامرتهن
أن ياحقننى ومولاي بدر معهن ، وخرجت فكننت فى
موضع ناء عن القرية ، فما كان الا ساعة ، حتى أقبلت اخيل
فاحاطت بالدار ، فلم تجد أثرا ، ومضيت ، ولحقنى بدر ،

فأنيت رجلا من معارفى بشط الفرات ، فأمرته أن يبتاع
لى دواب وما يصلح لسفري ، فدل على عيوسه. العامل
فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فاشتدنا فى الحرب ،
وسبقناها الى الفرات ، فرمينا فيه بأنفسنا ، والخيل تنادينا
من الشط : « ارجعا ! لا بأس عليكم » فسيحت حاثا انفسى
وكننت أحسن السبع ، وسيح الغلام أخى ، فلما قطعنا نصف
الفرات ، فصر أخى ودهش ، فالتفت اليه لا قوى من قلبه
واذا هو قد أصغى اليهم ، وهم يخذعونه عن نفسه ، فناديته
« تقتل يا أخى ! الى الى ! » واذا هو قد اغر بأمانهم ،
وخشى الفرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا
الفرات ، وبعضهم قدم بالتجرد للسباحة فى اترى ، فاستكفه
أصحابه عن ذلك ، فتركونى ، ثم قدموا الصبي ، أخى . الذى
صار إليهم بالأمان ، فضرخوا عنقه . ومضوا برأسه ، وأنا
أنظر اليه ، وهو ابن ثلاثة عشر سنة ، فاحتملت فيه ثكلا
ملا نى مخافة ، ومضيت الى وجهى أحسب أنى طائر ، وأنا
سرع على قدمي ، فلجأت الى غيضة أشبه ، فتواريت فيها
حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت هاربا أروم المغرب ، حتى

وصلت الى افريقية ا. هـ »

ذهابه الى افريقية^(١)

وصل الى افريقية ، وقد ألحمت به أخته شقيقته ،
مولاه بدرا ، ومولاه سالما ، ومعهما دنانير للنفقة وقسمة
من جوهر ، فنزل بافريقية وقد سبقه اليها جماعة من فل
بنى أمية

وكان عند واليها ، عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ،
يهودى حدثانى صلب مسامة بن عبد الملك ، وكان يتكهن
له ويخبره بتغلب القرشي المروانى الذى هو من أبناء موك
الفوم ، واسمه عبد الرحمن ، وهو ذو صنفيرتين ، يملك
الاندلس ، ويورثها عقبه ، فاتخذ الفهرى عند ذلك صنفيرتين
أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما جىء بعبد الرحمن ، ونظر
الى صنفيرتيه ، قال لليهودى : « ويحك : هذا هو . » وأن
قائله ، فقال له اليهودى : انك ان قتلته ، فما هو به ، واثن

(١) ملخصة عن كتاب فتح الطيب

غلبت على تركه فانه لهو ،، فافتتح الفهرى بذلك واستصوب
رأيه ، وانما احتال اليهودى بهذا الكلام لينقذ عبد الرحمن
الداخل من شره

* * *

وأخذ الفهرى يضطهد من نزل به من الامويين ،
ويتجنى عليهم ، فلم يسع الداخل الا الفرار من وجهه ،
فاستخفى منه يبرقه نحو خمس سنوات ، وتقلب في قبائل
البربر الى أن استقر على البحر عند قوم من زناته ، وأخذ
في تجهيز مولاة بدر للعيبور الى الاندلس لموالى بنى أمية
وشيعتهم بها

مهمة بدر

ذهب بدر الى بلاد الاندلس ، وأخذ يفتن في استمالة
أشباع بنى أمية ومواليهم ، وما زال يذكهم بمكان الداخل
منهم ، ويمنيهم باعلاء الدرجة ولطف المنزلة ، حتى أفلح في
اجتذاب البمانية بعد أن فشل في استمالة مضر وربيعة ، وكان
البمانية قوما قد أوغرت صدورهم على مضر ، فانهزوا هذه

الفرصة للانضمام الى جانبه (١)

* * *

وعاد بدر الى مولاه (٢) في مركب ومعه احد عشر رجلا ، فيهم تمام بن علقمة ، فالفوا الداخل يصلى ، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله ، فأمرع بدر اليه ساجحا في الماء ، غير متمهل حتى تصل المركب الى الساحل ، وبشره بنجاح مسعاه ، وخرج اليه تمام فسأله الداخل :

« ما اسمك ؟ » فقال له : « تمام » قال : « وما كنييتك ؟ »
قال : « ابو غالب » فقال : « الله أكبر ! تم أمرنا وغلبنا بحول الله ! » (٣)

-
- (١) وساعد علي ذلك بعد يوسف بن عبد الرحمن القهرى صاحب الاندلس في الثغر وغيبة الصميل
- (٢) وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه الى مواليه ، فكتبوا تحت ختمه الى من يرجونه في طلب الامر ، فشوا ذلك في الجهات مادب به امرهم
- (٣) هذا دليل على ميل الداخل الى الاخذ بذهب التفاؤل ، وفي تاريخه كثير من الادلة على ذلك

ذهاب الداخل الى الاندلس

وبادر عبد الرحمن بالدخول الى المركب ، فتمرض البربر
دونه . ففرق عليهم من المال حسب اقدارهم . ما ارضاهم به
جميعا . وسافرت المركب وساعدتها الريح حتى حلوا بساحل
البيرة في ربيع الآخر سنة ١٣٨ قزل بها ، فأناه جماعة من
وجوه الموالي وبعض العرب فبايعوه . نخرج الى كوردية
فدخلت في جماعته وبايعه أهلها وجنادها ، وانتال عليه
الناس اثيالا فقوى أمره ، واستضخم شأنه ، على عمر الأيام
حتى دخل قرطبة بعد سبعة اشهر ، كما سنبينه بعد قليل

* *

وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسف
الفهري بانيغر وقد قبض على بعض الثائرين بسر قسطة
وقتلهم ، فجاءه رسول يركض من قرطبة يعلمه بأمر
عبد الرحمن ونزوله بساحل جنند دمشق ، واجتماع الموالي
المروانية اليه ، وتشوف الناس لأمره ، فانتشر الخبر في
الجيش لسره حظه ، وتمرد كثير من الجنود ، فسارعوا

بالانضمام الى الداخل

وأمطرت السماء مطرا لم يعهد له مثيل ، فازداد موقفه
حرجا ، ولم يبق في عسكره سوى غلمانة وخاصته وقوم
الصميل ، فأقبل الى طليطلة واستشار الصميل ، فنصح له
بالمبادرة الى قتال الداخل قبل أن يستفحل أمره ، وأظهر
له خوفه من انقلاب اليمانية ، ولكن يوسف جبن لما رأى
انفضاض الناس من حوله ، وافتقاره إلى المال ، وشدة ما مني
به من المجاعة في سفرته ، وسار بجيشه الى قرطبة رغم
نصيحة الصميل

فتح قرطبة

سار عبد الرحمن اندا'خل الى اشبيلية فاحسن لقاءه رئيس
عربها أبو الصباح اليحصبي ، وقر الرأي على أن يقصدوا به
إلى قرطبة (دار الامارة) فلما أقبل اليها الداخل ، خرج له
يوسف وكانت المجاعة التي شملت أهل الاندلس ست سنوات
قد أضعفت قواهم ، فانتهت المعركة بفوز الداخل ، وفرار
يوسف الفهري والصميل



وما زال عبد الرحمن داثبا ، يذل كل عقبة بحزمه
وشجاعته ، حتى ثبت ملكه بين تلك العواصف التي كادت
تقتله مرارا ، فظفر بالفهرى بعد قليل وقتله ، ثم ثنى
بالصميل فحبسه وأوعز اليه من خنقه

وقد افتن في التنكيل بالنوار ليعتبر أعداؤه بمصرعهم
ثم استوحش من العرب ، فاكثر من اتخاذ البربر ، وما زال
يعمل داثبا على توطيد الأمن في الأندلس ، والسير بها في
طريق الحضارة ، حتى وافته منيته سنة ١٧١ فترك مملكة
ثابتة الدعائم ، زاهرة بالعلوم والآداب ، برف على أرجائها علم
السلام والرفاهية

اخلاق

عبد الرحمن الداخل

— ١ —

صراحتي

كان الداخل أمل واسع يصبو الى تحقيقه ، وهو
امتلاك بلاد الاندلس ،^(١) وقد تسبعت نفسه هذه الفكرة
اجريئة حتى امتزجت بلحمه ودمه ، وحتى هيمنت على كل
مشاعره . فواجه أشد الأخطار في سبيل تحقيقها . وما
ساعده الجند على إدراك اربته . لم يستطع أن يفكر لحظة
واحدة في أنهمون بأقل شيء ، يحتمل أن ينفذ في التحدث
امرد بد قدامه . ومن ثم لم يحجب عن قاضي من نور .

(١) كسم نينا بعد اسلاف عمرق .
أيدي العباسيين اندائه وقد همدك .
اشنه له بتسكين النلاقل وانقصاء على اثار بلاد الاندلس .
وسيمر بك ذلك في حينه

٣ - نظرات

وقف في طريقه ، كائنة ما كانت منزلته عنده ، أو قرابته
الشديدة منه ، حتى كان يفضل أن ينسب إلى العقوق
ونكران الجميل في سبيل توطيد ملكه

وحسبك دليلا على صرامته فتكه بالمغيرة ، ابن
أخيه ^(١) ، حين رآه يطمع في اجتذاب الأمر إليه ، وقتله
أبا العصباح اليحصبي زعيم اليمانية الذي مر ذكره والذي
ساعده على قهر يوسف الفهرى ، وقسوته الشديدة في معاملة
مولاه بدر الذي يعزى له أكبر الفضل في نجاحه

(٢) وقد عدوا ذلك من أوجه الشبه بين الداخل والمنصور ،
فقد قاسره به في رجوبيته وحزمه وصرامته ، واجترأه على
أكبر شر ، ربط الملكة . وهو ففته في أن تم كل منها ببرية
وأن كل من قتل ابن أخيه ، فإن المنصور قد قتل ابن السجاح
كما قتل ابن المغيرة

ويعني هذا التشابه في أخلاقهما بين لنا السرف في أعجاب المنصور
به ، وتقيده به بعتير قريش ، وسنورد بعد قليل وصف المنصور
به . ثم يلاحظ به وائده عليه ، وقد صدق علي بن أبي
طالب في قوله : روح جود مجتهد ، ما عارف منها اتلف
وهو . ريمه حنيف

ولكن ما أجددنا أن نسمى هذه الصرامة حزماً
 فقد كان مركزه غاية في الخطورة والخرج ، وكان في أشد
 الحاجة إلى الطمأنينة على ملكه المزعزع ، فأتخذ من صرامته
 وسيلة إلى تثبيت ملكه بين تلك الفتن والعواصف الموحشة ،
 وسلك أمثل الطرق وأخشنها في تأديب العصاة والتأثرين
 حتى استطاع أن يستبدل الفوضى بالنظام ، والخوف بالامن
 والطمأنينة

٢٠ ديمقراطية

وحيث يمكن مع صرامته ، وتنكيله بأعدائه ، متكبراً
 جافاً ، طباعاً ، بل كان على العكس من ذلك ديمقراطياً وديماً
 من الأخلاق ، فكان يقعدته عامة . ويسمع منهم ، وينصت
 بنفسه في رأيهم . ويتوصل إليه من أراد من الناس ، فيصل
 إليهم في رفع خذمة إياه دون مشقة ، وكان من
 عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه
 ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه

انصاف

وكان عادلا منصفا ، راجع الحلم واسع الاناة ، لا يملك
زمامه هواه ، وفي الحكاية التالية مثال حسن ، تبيين منه
إخلاصه للحق ، وتقديره لمواهب الرجال :

* *

لما فتح سرقسطه ، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه
أقبل خواصه يهنئونه ، فخرى بينهم أحد من يؤبه به من
الجند ، فهنا بصوت عال ، فقال : " والله لولا أن هـ...
اليوم يوم أسبغ علي فيه النعمة من هو فوقي ، فأوجب علي
ذلك أن أنعم فيه علي من هو دوني ، لاصليتك ما تعرضت
له من سوء النكال . من تكون ، حتى تقبل مهنثا . رافع
صوتك ، غير متلجلج ولا متهيب لمكن الإيمارة . ولا عارفا
بقيمتي ، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ، وإن جهلك
ليحملك على العود منها ، فلا تحذ مثل هذا الشافع في مثـ...
من عقوبة ! " ،

فقال : « ولعل فتوحات الأمير يقتزن اتصالها ،
بإتصال جهلي وذنوبي ، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة ،
لا أعدمنيتها الله ! » ،

فتهايل وجه الأمير ، وقال : « ليس هذا باعتذار
جاهل ! » ، ثم قال : « نبهونا على أنفسكم ، اذا لم تجدوا من
يذنبنا عليها ! » ، ورفع مرتبته ، وزاد في عطائه .

(٤)

ميله الى الجحد

ولولا تكاليف العلى ، ومغارم
ثقال ، وأعقاب الأحاديث في غد

لأعطيت نفسي في التخلي مرادها
فذلك مرادى مذنشأت ومقصدي^(١)

ولا نحسبنا في حاجة الى التدايل على ميل لداخل الى
الجحد وعزوفه عن الملاهي . فقد يكون في كل ما مر أمثلة
مقنعة . يتجلى فيها دؤوبه وميله الى الجحد ، على أننا لا نرى ،

(١) الشعر للطغرائي

مع ذلك ، بأسا من الاستشهاد بالمثاليين التاليين :
« لما خرج من البحر أول قدومه إلى الأندلس ، أتوه
بخمر ، فقال : « إني محتاج لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه ! »
ولما أهديت له جارية جميلة ، نظر اليها وقال :
« إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن انا اشتغلت
عنها بهمتي فيما أطلبه ، ظلمتها ، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ،
ظلمت همتي ، ولا حاجة لي بها الآن » وردها على صاحبها
وهكذا أنساه الطموح إلى المجد ، وشغلته فكرته النبيلة
عن مواطن اللهو والسرور
وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

(٥)

فضله

كيف وصفه أبو جعفر المنصور
وقد اعترف له بمزاياه النادرة التي انفرد بها دون غيره ،
أبو جعفر المنصور الذي كان (كما يقولون) ، بصدق حسه ،
وبعد غوره ، وسعة إحاطته ، يسترجع الداخل كثيرا ، ويعدله

بنفسه ويكثر ذكره ، ويقول :

« لا تعجبوا لامتداد أمرنا ، مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر قتي قريش الأحمدي الفذ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونشبهه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعده مرقى همته ، ومضاء عزيمته ، حتى قذف بنفسه في لجج المهالك لا بتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطامع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته وقع بعضهم ببعض بقوة حيلته . واستمال فلوب رعيته بأفضية سياسته ، حتى انقاد له عبيدهم ، وذل أيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكا على قطيعته ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لدماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو النقي كل النقي ، لا يكذب مادحه ^(١) ،

أوصافه

كان أصهب ، خفيف العارضين ، بوجهه خال ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، له صفيرتان ، أعور ، أخشم ^(٢)

(١) هذا أبداع ما قرأناه في وصف الداخل (٢) لا يشم

أدبها

شعره^(١)

- ١ -

وردت الأمويون عن أسرهم حب الشعر والموسيقى
والبلاغة الراقية ، وقد هاموا بها ، واحبوها أكثر مما أحبوا
القرآن ، واثبتت نسبة تلك الأبيات المشهورة ، التي
قيمت في النخلة ، إلى صقر قريش ، عبد الرحمن الأول ،
لدل ذلك على أنه يحسن منظره الخارجي الخشن ، احساسا
غاية في الرقة ، فقد حكى أنه رأى في إحدى حدائق
قرطبة نخلة منفردة ، جابوها من سوريا ، وإليه لي شخص
ببصره إليها ذات يوم ، إذ تذكر أرض وطنه ، وأحس بمرارة
النفى والغربة ، فقال^(٢)

(١) معرفة عن كذب الاستاذ نيكسون

(٢) لم يتجلى الرجوع إلى الأصل العربي للملك الأبيات ، وقت

يأنخل ! أنت فريدة مثلي

في الارض ، نائية عن الأهل

اللقاء المحاضرة ، فاضطرونا الى ترجمتها حينئذ ، ولا بأس من اثبات تلك الترجمة بعد ان عثرنا بأصداها العربي ، لتكون في هذه المرة شرحاً للايات :

« أيتها النخلة ! أنت هنا غريبة في بلاد المغرب أنت بعيدة عن موطنك الشرقي ، أنت شبيهة في النعاسة - ابكى أيتها النخلة ! ولكذك لا تستطيعين البكاء ، أيتها الشجرة الخرساء الكسيفة البال . ليس مثلك من يرثي لحالي ! آه ! لشاركتني في البكاء ، لو كان لديك من دموع تسكبونها ، على رفاقك على شواطئ الفرات ! والكمك لا تذكرين شيئاً عما هنا لك في تلك الاحراش الباسقة كما اذكر أنا ! فلقد انساني اصدقائي كراهيتي للاعداء ! وقد ورد في الشطر الاخير بدل كلمة الاعداء في الاصل بنو العباس

O Palm, thou art a stranger in the West,
Far from thy Orient home, like me unblest.
Weep, if thou canst, my Dam' de'ee c' tree
Thou art no made to sympathise with me!
Ah! thou wouldest weep, if thou hadst tear
to pour,
For thy companions on Euphrates' shore,
But yonder tall groves thou rememberest not
As I, in hating foes, have my old freinds forgot.

نبكى ، وهاى تبكى مكمة
عجباء ، لم تجبل على جبلى ؛
ولو آتيا عقلت ، إذن لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت ، وأخرجنى
بغضى بنى العباس عن أهلى
وقد ذكر له المقرئ أبياتا أخرى قالها فى النخل ، ، ا. هـ

٢

والأبيات التى عنها نيكلسون هى :
تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : «شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى ،
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمهلك فى الافضاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادرى المزن فى المنتأى الذى
يسح ويستمرى السما كبن بالوبل

ولقد تتبينون من هذه الأبيات، حنينه وشغفه ببلاده
وعطفه على وطنه

وقد صدق، فأى إنسان حساس شريف النفس، يستطيع
أن يتلهم عن وطنه الذى نشأ فيه، ولو بكل نعيم العالم
ولذاته؟ وليس مثل عبد الرحمن من ينسى بلاده التى انطبع
حبها فى شغاف قلبه. فلقد مات وهو يذكرها، وقد حن
إليها مراراً فى أشعاره

ولن يكون عبد الرحمن الداخلى أقل حنيناً إلى أرضه
ووجداً إلى عيشه الأول - من تلك العربية المشهورة التى آثرت
عيشها الخشن على كل ما لقيته فى قصور ملوك بنى أمية من
صنوف اللذات وأفانين الترف والاهور، وقالت يديها المشهور:
ولبس عباءة وتقر عيني أحب الي من لبس الشفوف

٣

وقد روى له الشيخ محي الدين بن على التميمي المراكشي
صاحب كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، الأبيات
التالية التى بعث بها إلى اخته وهى الشام وهى :

أيها الراكب الميمم ارضي
افر من بعفي السلام لبعفي
إن جسمي كما دامت بأرض
وفؤادي وساكنيه بأرض
قدر البين يبتنا فافترقنا
وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا
فمسي باجتماعنا سوف يقضي !

واثن صحت نسبة هذه الاشعار اليه وعرفنا من عزم قائلها :
وهمامة نفسه التي اصغرت كل مأرب ، ما عرفناه - فان قوله
في البيت الأخير

قد قضى الله بالفراق علينا فمسي باجتماعنا سوف يقضي
يدل على احلام وامان بعيدة ، كان يجيش بها صدره ،
وتنطوى عليها نفسه الوثابة التي لم تقف عند حد
نعم يدل على أنه كان يطمح لو مد الله في عمره الى غاية
يصغر أمامها كل ما أدركه من ذلك العظيم الذي كان يعد
الحصول عليه حاما . . . !

وماذا يريد بقوله : « فمضى باجتماعنا سوف يقضى »
الا أنه كان يحلم أيضاً بالتغلب على الدولة العباسية ، التي اجتثت
شأفة الامويين ، والقضاء عليها ، بعد أن يوطد ملكه في الاندلس ،
وليس يعلم الا الله وحده ماذا كان يكون لو لم تعترضه
تلك العقبات المؤتسة ، من إباء العرب وعصبيتهم ، وتمرد
المسيحيين من الاسبان ، الى غير ذلك . وربما كان اشتغاله
بإطفاء تلك الفتن ، وتوطيد دعائم ملكه وسحق العصاة ،
الأمر الذي استغرق كل مدة حكمه على طولها ، هو الذي
جعل هذه الأمنية في عداد الأحلام ! ولقد يعوز هذا
الاستنتاج ، البرهان التاريخي ، ولكننا قد نجد من وصف
العلامة ابن خلدون لعبد الرحمن الداخل ما يزيدنا استمساكا
بهذا الرأي ويجعلنا أميل إلى ترجيحه ، قل :

« وكان (عبد الرحمن الداخل) يدعو الى المنصور »

ثم قطعها لما تم له الملك بالاندلس ، ومهد أمرها ، وخذل ابن
مروان الساطان بها ، وجدد ما طمس له ناشرق من مع
الخلافة وآثارها ، واستلحم الثوار في نواحيها ، وقطع دور
العباسيين من منابرها ومد المذاهب منهم دونها »

فالمقد تتبينون من ذلك طريقته الحكيمة في التدرج
من صغير الأمر إلى كبيره ، فقد كان يطمح ، في أول أمره ،
إلى جمع الأمر في يده . ولو تحت سلطة العباسيين ، وساعده
ذلك على بلوغ إربته ، فلما تمت له هذه الخطوة الكبيرة ،
خطا خطوة ثانية لا تقل عنها شأنًا ، فنادوا الدعوة العباسية
وعمل على إبطالها ، فنجح في سعيه ، واستقل بأعباء هذا
الملك العظيم ، ونظم البلاد ومحق العصاة وأخذ الفتن ، بعزيمة
صادقة ، وهمة دائبة لا تعرف الكلل ، فلا غرو إذا
استنتجنا من قوله :

قد قضى الله بالفراق علينا فحسبنا اجتماعنا سوف يقضى
أنه كان يحلم أيضًا بمثل العباسيين ، وتمنيه نفسه بالتمغاب
عليهم ! وهذا من استنتاجه خاص ، وربما أيدناه أو عدلنا
عنه . إذ طاعنا على ما يؤيده أو ينفيه فيما بعد (١)

(١) وثمة بعض اخواننا في هذا الاستنتاج في حينه ؛
واتبعنا بهم في هذه المسألة ولا غرار في الخيال ، وحسبوا أننا
أسرفنا في تبيين هذا البديت . وزعم بعضهم ، بكل جرأة ، أن
تاريخ عبد الرحمن لم يحرر فيه يد بعض هذا الاستنتاج ويثبت

٤

ومما نختاره من شعره قوله - بعد أن استقامت الدولة
له - حين بلغه عن بعض من أعانه أنه قال : « لولا أنا ،

فساده ، وقد أصررنا حينئذ على رأينا حتى فطر بمستند تاريخي
يعززه أو ينفيه ، أما الآن فقد توافرت لدينا الأدلة التاريخية ،
التي لا تدع مجالاً للشك في صحته ، وإليك ما قاله ابن خلدون
في ذلك

« وفي سنة ست وأربعين ومائة ، سار الملأ بن مغيث
اليحصبي من أفريقية إلى الأندلس ، ونزل بباجة الأندلس داعياً
لأبي جعفر المنصور ، واجتمع إليه خاق ، فسار عبد الرحمن إليه
ولقيه بنواحي أشبيلية فقاتله أياماً ثم انهزم الملأ ، وقتل في
سبعة آلاف من أصحابه ، وبعث عبد الرحمن برءوس كثيرة منهم
إلى القيروان ومكة ، فالتفت في أسواقها سرّاً ، ومعها اللراء
الأسود ، وكتاب المنصور للملأ ، فارتاع المنصور لذلك وقال
ما هذا إلا شيطان ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر ، أو
كلما هذا معناه (في رواية أخرى أنه قال : « عرضنا هذا
البائس (يعني الملأ اليحصبي) نحترف ! بما في هذا الشيطان
مطمع ! فالحمد لله الذي صير هذا البحر بيننا وبينه ! ») وكثرت
ثورات رؤساء العرب ، لا أندلس على عبد الرحمن الداخل ، ونافسوه

ما توصل لهذا الملك ، ولكن منه أبعد من العيوق ، ، وأن
آخر قال : « سعيده أعانه لا عقله ، ، فقال مفندا تلك
المزاعم :

لا يلف ممتن علينا قاتل :
« لولاى ماملك إلا نام الداخل ! ، ،

ملكه ، ولقى منهم خطوبا عظيمة ، وكانت العاقبة له ، واستراب
في آخر أمره بانعرب لكثرة من قام عليه منهم ، فرجع الى
اصطناع القبائل من سواهم . واتخذ الموالي ، ثم غرا الافرنج
والشكنش ومن وراءهم ورجع بالظفر «
وهما يقرون ابن حيدر :

« وكان في نيته أن يجدد دولة بني مروان بالمشرق فمات دون
ذلك لامل «

ومما قاله المنرى في ذلك :

« وأشاع (نذاخل) سنة ١١٣٣ ، زحير الى الشام ، لاقتراحه ،
من بني عيسى ، زكيت بجهالة ، هلى بينا رمرت به رشيدة ،
وعسى هى (يستحيى) سبيونا ، زكيت ، زكيت ،
بعمامة من دابة ، ثم ترضى ردى سبيونا ، نصارى
الذى انرى شيب به رفسا ، « نزل درت ' عرد » ه

سعدى ، وحزمى ، والمهند ، والقنا
ومقادير بلغت ، وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب
نجم يطالعنا ، ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا ينقلوا
أروم تدوير البرية غفل ؟
وية قول قوم : « سعدى لا عقله »
خير السعادة ما جماعها ، آفل ؟
أنى تديرة ! جبرنا ، ذك
بغرب رغما ، وتسعود قبائل
ما من ذليل إمام قثم
ما من ذك ثابت

وقرأه في سنة ١٢٠٠ هـ
في سنة ١٢٠٠ هـ ، وذكره في سنة ١٢٠٠ هـ

شتان من قام ذا امتعاض
منتفى الشفرتين نصلا
فجاء قفراً، وشق بحرا
مساميا لجة ومحلا
دبر ملكا، وشاد عزا
ومنبرا للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى
ومصر المصر حين أخلا
سم دعا أهله إليه
حيث اتأوا، أن هلم أهلا!
فجاء هذا طريد جوع
شديد روع، يخاف قتلا
فدب ثمتا، ونال شيعا
ونال مالا، ونال أهلا
فنبكت حق ذ على ذا
اعظم من منعم ومولي؟

وفي هذه الأبيات والتي قبلها صورة صادقة تتمثل
منها نفس عبد الرحمن الوثابة، ونطالع فيها صفحة موجزة
من تاريخه الحافل بالعظام.

نثره

أما نثره ، فقد حاق في سماء عالية من البلاغة ، لم يسبق إليها شعره الجميل ، الذي يعجبنا فيه جمال الصدق المتحلي به ، وتأجج العاطفة المنبعث منها ، وطموح نفس قائله ، وما ينفجنا به أثناء قراءته من الذكريات الجليلة ، وما نحسه فيه من العزمات الصادقة ، التي تزيد إعجابنا به



واكن نثره - زيادة على أنه قد جمع كل هذه الميزات القيمة - عذرا من شعره بما فيه من "أزجاء" و"عشق" ولا يحدهم ، بل إنهم في شدة واحسن
 وبكم به "نثر" من نثره ، ذلت لهما على "نثر"
 عارونه ، وقد حجت ، به في حلقته ، "بلاغة" ، سواء في
 ذلك بداهة زروية :

محاضرات

ونبدأ بالحكاية التالية التي تتمثل فيها موعظة جواربه
وحضور ذهنه ، ووفور أدبه :

حكوا أنه كان في بعض مجالسه ، فمثل بين يديه رجل
من جنده فاسرين يستجديه ، فقال له : « يا ابن الخلاق
أتراشدين ، والساعة الأكرمين ، إليك فردت ، وبك عدت
من زمن ظوم ، ودهر غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ،
وشعب الحال ، فمخير إلى نذك المال ، وأنت ولي الحمد
والحمد ، الأرجى الرفد ،

فجابه عبد الرحمن بسرعاء :

« فسمونا مقالتك . وفينينا حاجتك ، وأنت
من ردت ، على كرمنا ، وكرمنا ، وكرمنا ، ولا سواك
شرب من زرقه ماء وسعت صرح السالة والاحاح في
الظلم . فريد لم يك خصب ، وحنك سر ، و فقه ينف
رمة لا نصير ، كيا تشرق أياك خذمت ، وتكف

شحات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالِكك ومالِكنا -
عز وجهه ، - بإخلاص الدعاء ، وصدق النية ، ،
قائوا : « وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يعجبون
من حسن منطقته ، وبراعة أدبه . وكف فيما بعد ذوو الحاجات
عن مقابلته بها شفاها في مجلسه »

* * *

أوجز ما يقال في هذه الكلمة ، أنها تشريع حكيم ،
وقانون عادل ، سنه لشعبه في هذه الأسطر القليلة ، حتى
لا يتورط أحد منهم في مثله مرة أخرى ، وقد لاءم في هذا
التشريع الموجز ، بين ما تتطلبه ديمقراطية نفسه ، وما تقتضيه
أرستقراطية الملك ، وجمع في ذلك الجواب بين الحزامة
والأريحية ، والتعنيف والعطف . ولم يعزب عن باله أن
حرمانه هذا السائل - علي ما قد يكون به من عوز - قتل
له ، ومجال لشماته أعدائه به ، كما أن صلته من غير تقرير
شديد . قد تفتح عليه بابا يستنفد كل ما في خزائنه من
المال ، دون أن يفي بحاجة كل محتاج ، وفي جملة الأخيرة
أبدع رد على عبارة التناق التي ختم بها ذلك السائل كلامه .

أما الأسلوب الذي صيغت فيه هذه الكلمة المرتجلة فهو
في نظرنا ، في ذروة البلاغة العربية ، لنصاعته ودقته ، وهما
ميزتان كاد يتفرد بهما أسلوبه من بين الأمراء

* *

وإليكُم مثالا آخر من بلاغته :

حدث بعض موالى عبد الرحمن الخاصين به ، أنه دخل
عليه ، إثر قتله ابن أخيه المغيرة بن الويلد^(١) وهو مطرق
شديد الغم ، فرفع رأسه إليه وقال :

« ما عجبى إلا من هؤلاء القوم ، سعيننا فيما يضجعهم
في مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا

(١) كان الداخل بعد أن استتب ملكه بالاندلس ، شديد
الارتياح الى وفود أقاربه من بني مروان ، ليشهدوا أنعم الله عليه
فتوافدوا عليه ، وكان منهم يزيد وعبيد الله ابن ابان بن معاوية
وهو ابن أخي الداخل ، وكا كانت تدبير يبرمانه في طلب الامر ،
فوشى بهما أحد موالى الثانى ، ومما قاله بعد قتلهما : « أعظم
ما أنعم الله به علي ؛ بعد تمكنى من هذا الأمر ، القدرة على إيواء
من يصل الى من أقارنى ، والتوسع في الاحسان اليهم ، وكبرى
في أعينهم وأسمائهم ونفوسهم ، بما منحنى الله من هذا السلطان
الذى لأمنة على فيه لا حد غيره »

بلغنا منه مطلوبنا ، ويسر الله أسبابه ، أقبِلوا علينا أمام
 السيوف ، ولما أوتيناكم وشاركناهم فيما أفردنا الله به حتى
 آمنوا ودرت عليهم أخلاق النعم ، هزوا أعناقهم ، وشمخوا
 بأنفهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله . نخذلهم
 بكفرهم النعم ، إذ اطلعنا على عوراتهم ، فما جئناهم قبل أن
 يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا في البرىء منهم ،
 وساء أيضا ظنهم فينا . وصدر توقع من تغييرنا عليه ،
 ما نتوقع نحن منه ، وإن أشد ساء على في ذلك آخر ، والد
 هذا المخدول ، كيف تضيق لى نفس بجاورته . مد قتل ولده .
 وقطع رجه . كيف يمتنع صدى من . أخير إليه
 السعة في تدركه . ويحذر حمة كلف ديار ادفعها إليه .
 وأمره عيا . من برائه .
 من برائه .

منه
 فتأوه وور
 على نفسه رعى

خطابتي

أما خطبه فلم يصلنا منها إلا بضع كلمات وجيزة ، كان
يبحث بها هم أصحابه ، ويلهب نار الحماس في قلوبهم ،
فمن ذلك قوله لهم حين اشتد الكرب بين يديه ، يوم
حربه مع الفهري :

« هذا اليوم هي أسس ما يبني عليه ، إما ذل الدهر ،
وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تريحوا بها
بقية أعماركم فيما تشتهون (١) »

قد مرى ما سمى فيه 'الى رجل طلب العاقبة وقنع بكسر مت
في كنف من يحمل عنه معسرة الزمان وكله ، ولا سول ولا قوة
إلا بالله ، ولا مرد لما حكم فيه به وقصاه في الحركة الى بر المدوة «
قال : « فلما رجعت الى الأبره ، ما علمته بقوله » : ر : ر :
« الحق ، وانك لا تخدعني بهذا » تقول عما في نفسه ، والله
هو قدر أن يشرب دمي من عنده لحظة ، فالحمد لله الذي أطهرنا
عليهم عما نؤيدها فيهم ، وأظلم في نوره فيما »

(١) وقد ذكرته المرجع بحمد باب بك في كتاب : « تاريخ

— ٣ —

كتابته

ولعل أسمى ذروة وصلت إليها بلاغته ، هي ما نشاهده

العرب في اسبانيا ، خطبة قالها رداً على تمام (الذي قدمها ذكره في ص ٢٩٠) حين عرض عليه اماره الاندلس باسم الوفد الذي أتى معه ، متقدماً اليه ، قائلاً :

« أجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة ، فيسمعك أن تبني فيها ملكاً مشيد الأركان ، موطن الدمام ، على أساس أقوى من الجبال ، معتمداً على عزائمهم القوية ، وطاعتهم الصادقة ، لا ريب أن ستجد مقاومة وبعض خطر ، ولكنك لست وحدك ، بل بجانبك فتیان أشداء من أبناء من فتحوا الغرب ، وشعوب ترغب فيك وتدعوك إليها ، ونحن جميعاً نهب الى الوغي ، ونبذل الارواح في سبيل ارتقائك الى عرش الامارة التي تلقى مقاليدها اليك ، وتحفظ بنيانها من أن يشلم »

فسكت عبدالرحمن هنيهة يتوقع منه أن يتم خطابه ، لكنه شعر أن لو قد ينتظر اجابته فخطبهم بقوله :

أيها السراة الامجاد ! اجابة لرغائبكم ، وسمياً وراء أمانيتكم في اصلاح شؤون مسلمي اسبانيا ، أذهب معكم ، باذلا النفس ، في

في رسائله مع مولاه بدر ، حين غضب عليه ، لشدة
عجبه وامتنانه عليه ، ففي تلك الرسائل تتمثل ذلك القلب
الكبير مضطرباً جائشاً ، كما يصطبغ الخضم الزاخر ، عند
اشتداد الماصفة ، وثم نرى صفحة مشرقة من البلاغة العربية ،
متفردة بأسلوبها القوي ، ومعانيها الباهرة :
ونبدأ بما كتبه إلى مولاه بدر ، رداً على رسالة بعث
بها اليه ^(١) قال :

سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة ، فإذا صدقت عزائمكم ،
ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز ، رأيتم مني أحماً ثقة
يقاممكم الشقاء والمهناء ، يعلم الله أني لأخشى الشدائد ولا أهوال
الحروب ولا أرهب الموت الأحمر ، فقد عركني الدهر وعركته ،
وكثيراً ماركت متون الاحطار على حدائث سني ، وإذا كان
ما يدعوني اليه هو رغبة مسلمي الاندلس الاشراف ، فأنا الي
فداءهم وأقبل أن أكون اميرهم ، وحامي ذمارهم ان شاء الله»
* * *

ونحن نرتاب في اسلوب هاتين الخطبتين ، لضعفه وبعده عن
اسلوب ذلك العصر ، ولعلمها ترجمتها عن لغة أجنبية - بعد ان صاع
اصاها العربي ، أو لعلنا وهمون في ذلك !
(١) بعد ان سمي بدر في تأسيس دولة عبدالرجن ، صحبه

« وقفت على رقعتك المنبثة عن جهلك ، وسوء خطلك ،
ودناءة أدبك ، وإثيم معتقدك ، والعجب أنك متى ما أردت
أن تبني لنفسك عندنا متاتاً ، أتيت بما يهدم كل مقام مشيّد
فأتمن به - مما قد أضجر الأسماع تكراره ، وقدحت
في النفوس إعادته - استخرنا الله من أجله ، على أن أمرنا
بإستئصال مالك ، وزدنا في هجرك وإبعادك ، وهضنا جنح
إدلالك ، فعل ذلك يجمع منك ويردك ، حتى يبلغ بك

عجب واستمان فبدأ يقول : « بعنا أنفسنا ، وخاطرنا في شأن
من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله ، » وقال مرة حين أمره بالخروج
في غرة : « رتبته مستريح حيراً ، وما أرانا إلا في أشد مما
كنا ، » وأكثر من تديدش عند الكلام وأشباهه فأعرض عنه
مداحل وهجده . ثم قال في ربه حتى كتب له رقعة منها :
« ما كان حزين في قديم أبحر وجوب القفر ، ولا أقدام على
تشتيت نظام ملكة ، وقامة أخرى ، غير المحجر الذي أهانني
في عهد كبري . نيت في ربي ، وأضعد أرمي ، ونهي
عند من يراني ، وقتي مع ، كاني كبري ويخمدني على
الطمع ، نرجاء ، رضى ، » . ثم قال : « يا أيها الله ،
يا أغواني أكثر من عندك ، يا رب ، » .

ما نريد - إن شاء الله - فنحن أولى بتأديبك من كل أحد ،
إذ شرك مكتوب في مثالنا ، وخيرك مدود في مناقبنا ^(١) ،

* *

وبعث إليه بدر برسالة ^(٢) فكتب يجيبه :

« إن لك من الذنوب المترادفة ، ما لو سلب معها
روحك ، لكان بعض ما استوجبته ، ولا سبيل إلى رد
مالك ، فإن تركك بمعزل ، في الهنية الرفاعية ، وسعة ذات
اليد ، والتخلي من شغل الأيدان ، أشبه بالنعمة منه بالخدمة .
فياأس من ذلك ، فإذ اليأس مرشح » ،

* *

وكتب إليه بدر يستعطفه في يوم غد ، ^(٣) فكان

(١) وقد أشفع عبد الله بن الرعي فتوحيه من
استأصله له ، ولزمه داره ، وذاك حديثه ، في تاريخه
(٢) يقول فيها : « سلطان هرة ... »
واشد داع كرتي سليمة ... فعمى إذ تولى ...
مال ، واتحد به في معزل ، لا تفر سلطان ، وذا أذخر في شيء
من أمور ما عشت »

(٣) لما واهد اليدي ، ورأي حاجة من يارده ، رحمه الله

جوابه عليه أن أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر ،
وكتب له في ظهر رقعة :
«

لست أعلم أنك لم تنزل بمقتك ، حتى ثقلت على العين طلمعتك
ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن
ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بأقصائك إلى أقصى
الثغر ، فبالله إلا ما أقصرت ، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى
أن تضيق بك معي الدنيا

ورأيتك تشكو بفلان ، وتتألم من فلان وما تقولوه
عليك ، وما لك عدو أكبر من لسانك ، فما طاح بك غيره ،
فاقصعه قبل أن يقطعك ،»

يفرح به الناس ، كتب إلى عبد الرحمن الداخل رقعة منها :
« وقد نني هذا العبد الذي حالفت فيه من أساء إليك ، ودمي
في خراب دوائك ، ممن عفوت عنه فتبديك النعمة في ذراك ،
واقتمد ذروة العز ، وأنا على ضد من هذا ، سليما من النعمة ،
مطرده في حصيص الهواء . أيا من مما يكون ، واقرع السن علي
عليه كان »

أثر الداخل في الحضارة الأندلسية

نظرة ختامية

وجه الداخل عناية خاصة إلى الآداب والعلوم والفلسفة وأكثرت من عقد الاجتماعات الأدبية والعلمية والفلسفية ، بالرغم من اشتغاله بإطفاء الثورات ومكافحة المغيرين ، والقضاء على الفوضى التي كانت تنذر البلاد الأندلسية بالخراب بين آن وآخر .



ولم يشغله ذلك عن العناية بفنى الزراعة والعمارة أيضا فعمل على إنهاضهما ، وما زال بهما حتى بلغا شأوا بعيدا ، وأصبحت قرطبة على عهده - تحاكي مدينة بغداد ، في اتساع شوارعها ، وضخامة مبانيها ، وكثرت فيها الحمامات والفنادق ، وانتشرت البساتين على طول ضفة الوادي الكبير ، وزاد عدد المدارس التي أكثر من بنائها



وشرع في بناء الجامع المشهور بجامع قرطبة سنة ١٧٠

واخرج عليه مائة الف دينار (كما يقولون) ، وقد ذكروا
أن ذلك الجامع كان فذا في نوعه ، وأن من بدائعه
احتواءه نحو ثلثمائة وستين طاقا ، على عدد أيام السنة ،
تدخل الشمس كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود ،
وأن فيه تنورا من نحاس أصفر يحمل الف مصباح ، وأن
فيه مصحفا بخط عثمان بن عفان

أكثر الداخل ، من ضروب الإصلاح ، وعمل على
توطيد الأمن ، فرغب كثير من المشاركة في الذهاب إلى تلك
البلاد . وسدد شجعهم الداخل على ذلك ، بكل الوسائل
الممكنة . وفاح في ثم شعث أفرام بنى أمية ، فكان لهم
أكبر فضل على ترقية العربية والأدب العربي ، وانتفعت
الأندلس بمواهبهم ، التي ظرواها راضيا في البلاغة
الأندلسية .

(وعدد ثمان عشرين رجلا من رجال عيسى بن عبد الله ،
واحد من قبايل من ينحدر من بني أمية والأدب العربي)

والآن فلنودعه - وفي قلوبنا له أجمل الذكرى -
ونحن على أمل ببقاءه في فرصة أخرى - نرجو أن تمكننا
الظروف منها ، فتفي له ببعض حقه علينا في رسالة نفرد به (١)

(١) اخبار الداخل طوية ممتعة ، فليرجع اليها من شاء التوسع
في المراجع الآتية .

- ١ الجزء الاول من فتح الطيب من ص ١٥٥ الى ص ١٥٨
- ٢ « الثاني منه من ص ٢٠١ الى ص ٢٦١
- ٣ « الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر ،
وديران المبتدا والخبر ، من ص ١٢٠ الى ص ١٢٤
- ٤ كتاب تاريخ العرب في اسبانيا للرحوم محمد دياب بك
من ص ٦٥ الى ص ١٦٨
- ٥ كتاب المعجب في تاريخ اخبار المغرب ص ٩ و ص ١٠
- ٦ الجزء الاول من كتاب دوزي المسمى « تاريخ مسلمي اسبانيا »
Histoire des Musulmans d'Espagne.

من ص ٢٩٧ الى ص ٣٨٧

هشام بن الداخل

(١) ١٧٢ - ١٨٠

مات عبد الرحمن الداخل في سنة ١٧٢ ، خلفه ابنه هشام ، وكان عادلا رحيا ، ورعا يتفقد أحوال رعيته بنفسه ويساعد من يستحق المساعدة من الفقراء ، وقد ذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، فكان يبعث ثقاته الى الكور ، فيسألون الناس عن سير عماله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى اليه عن أحد هم حيف ، أو وقع به ، وأسقطه ، وانصف منه ، ولم يستعمله بعد ، ففرح الناس بولايته ، ولقبوه بالعدل وبالرضى ، وارتفع شأن الفقهاء في زمنه

مثال من عدله

اعترض له يوما متظلم من أحد عماله ، فقال له هشام :

(١) ولي الملك وعمره ثلاثون سنة تقريبا ومات بعد سبعة

أعوام وتسعة أشهر من خلافته

«وإحلف على كل ما ظلمك فيه ، فإن كان ضربك فاضربه ،
وأوهتك لك سترا ، فاهتك ستره ، أو أخذ لك مالا ، نخذ
من ماله مثله ، إلا أن يكون أصاب منك حدا من حدود
الله ... »

أثره في الاندلس

وقد وجه همهته إلى العناية بقرطبة ، فأكثر من بناء
المساجد التي كان يدرس فيها الفقه والعلوم العربية ، وأتم
جامع قرطبة الذي شرع الداخل في بنائه ، ولم تشغله حروبه
مع أخويه المدين شقا عصا الطاعة عليه (١) ولا غزواته
الكثيرة وكفاحه الشديد لاستئصال شافة الثائرين عن
مواصلة إصلاحاته العديدة

فضله على العرب

وقد حظ على النصارى أن يتكلموا بغير العربية ، وإن
كان قد أباح لهم الكتابة بلسانهم اللاتيني ، وبذلك
أصبحت اللغة العربية هي اللغة الغالبة العامة ، وساد اللسان

(١) وقد أخضعهما ، ثم عفا عنهما فيما بعد

العربي في الأندلس

مثال من أدبه

قالوا : « وكان هشام إذا حضر مجلساً امتلاً أدباً وتاريخاً
وذكر أمور الحرب ومواقف الأبطال ، ^(١) وكان واسع
الاطلاع ، بارع الذوق ، سأله أبوه (الداخل) يوماً ، عن قائل
هذين البيتين :

وتعرف فيه من أبيه شاملاً

ومن خاله ، أو من يزيد ، ومن حجر

سباحة ذا ، مع بر ذا ، ووفاء ذا

ونائل ذا ، إذا صحا ، وإذا سكر

فقل له : « يا سيدي لا مريء القيس ملك كندة .

وكانه قاله في الأمير أعزه الله ، فضمه إليه استحساناً بما سمع
منه ^(٢) وأمر له بإحسان كبير ، وزاد في عينه ^(٣)

(١) كما كان أخوه سليمان كلما حضر مجلساً امتلاً سخرافاً وهذياناً

(٢) وقد سأل سليمان على التمراد عن نسبة هذين البيتين فقال :

« لعلهما لأحد أجيال العرب ، أم لي شغل غير حفظ اقوال

بعض الأعراب ؟ » فأطرق عبد الرحمن وعرف قدر ما بين الاثنين

من المزية (٣) ويمكن الرجوع إلى أخباره في الجزء الأول من تفتح

الحكم الاول^(١)

١٨٠ - ٢٠٦

ولما مات هشام سنة ١٨٠ ، وليه ابنه الحكم^(٢) بعهد منه اليه ، فاستكثر من الممالك ، وارتبط الخيل ، وباشر الأمور بنفسه ، وكان من المجاهرين بالمعاصي ، وفي أيامه

الطيب من ص ١٥٨ الى ١٦٠ وفي تاريخ ابن خلدون ص ١٢٥ وفي كتاب العرب في اسبانيا من ص ٩٦ الى ص ١٠٦

(١) ولد سنة ١٥٤ ومات سنة ٢٠٦ ، وولي الحكم وسنه أقل من خمس وعشرين سنة

(٢) وقد نازعه الحكم عمه سليمان ، وعبد الله اخو هشام وابنا الداخل (وثارا عليه) فانتصر عليهما بعد حرب شديدة ، قتل فيها همه سليمان ، وصننه سنابك الخيل ، وفر عبد الله عمه الثاني ، ثم طلب الصلح بعد ذلك ، فصفح عنه الحكم سنة ١٨٦ قتلوا : « لما جرى بجثة عمه سليمان الى ابن اخيه الحكم ، بعد قتله في تلك الحرب - بكاه وشيع جنازته باجلال واحترام وكان ذلك في سنة ١٨٤ .

أحدث الفقهاء انشاد أشعار الزهد ، والحض على قيام الليل .
في الصوامع بالمساجد ، وجعلوا يخاطون بذلك كثيرا من
التعريض به ، مثل أن يقولوا : « يا أيها المسرف المتمادى في
طغيانه ! المصر على كبره ! المتهاون بأمر ربه ! أفق من
سكرتك ، وتنبه من غفلتك ^(١) » ، وما نحا هذا النحو
فهاج به ذلك من الفقهاء ، وصب سخطه عليهم ، وكانوا
يحرصون العامة عليه ، حتى هاجموا قصره يريدون قتله ^(٢)

رباطة جأشه

ومما يحسن ذكره هنا ، ما رواه ابن حبان ^(٣) من أنه
لما تسور عليه القصر ، وأحس بالشر ، قل لخص غلمانه :
« ذهب إلى فلانة (إحدى كرائمه) قل لها تعطيك قارورة
الغالية » ، فابطأ الغلام وتأسك ، فأعاد ذلك عليه . فقال :

(١) وكاذبهم يقل في أدائه « الصلاة يا مخمورا » تعريضاً به

(٢) لما أنعمك الحكم في ذلك اجتمع أهل العلم بقرطبه ، مثل

محيي بن يحيى الليثي ، فتدوا به وخافوه ^(٣) ماخضة عن كتاب
المعجب .

« يا مولاي هذا وقت الغالية » ، فقال له : « ويلك يا ابن
ال..... بم يفرق رأسى من رؤس العامة إذا قطع ، إن لم يكن
مضمخا بالغالية » ،

ومن حسن حظه أن دام جنوده العامة من وراثتهم ،
فشتتوهم ، ثم أمر بتقتيلهم وهدم ديارهم ومساجدهم وحرقها
ونفى من بقى منهم عن البلاد ، نخرجوا حتى نزلوا جزيرة
افريطش من جزائر البحر الرومى ، المقابلة لبرقة أول
بلاد المغرب ، فلم يزالوا هناك ستميز ، إلى أن تفرقوا فرجع
بعضهم إلى الاندلس ، واختار بعضهم سكنى صقلية ، وانتقل
آخرون إلى الاسكندرية (١)

(١) « كان الحكم في صدر ولايته قد انهمك في لذته ،
 واجتمع أهل العلم بقرطبة مثل يحيى بن يحيى ، وطالوت الفقيه
 وغيرهما ، فثاروا به ، وامتنع ، فخلعوه وبايع محمد بن تميم ،
 من صومرة هشام . وكان بالربض الذري من قرطبة محلة متصلة
 بقصره ، وحاصروه سنة ثمان ومائة ، وقتلواهم ، فغلبهم ، وفتروا
 وهدم دورهم ومساجدهم ، ولحقوا بفاس من أرض العمدوة .
 ولحقوا بالاسكندرية » ا . هـ ملخصاً عن ابن خلدون

صفاته وأخلاقه

كان عالماً ، فطناً ، فصيحاً ، شاعراً ، حازماً ، لـكـنـه
متكبر قاسى القلب ، سريع الغضب ، قالوا : « وكان أخـل
بنى أمية بالاندلس واشدهم اقداًما ونخوة ، وكان يشبه بأبى
جعفر المنصور من خلفاء نـبى العباس فى شدة الملك وتوطيد
الدولة ، وقع الاعداء ، »

ميله الى اللهو

وكان شديد الواع بمحاسن الغناء واللهو ، لا يخرج من
قصره من السلم ، وفرضنا شئون المملكة الى ابنه عبد الرحمن
وكان يقضى أوقاته فى مجالس العارب والخمر ، فى حدائقه
بين غلمانة ونسائه اللاءكر يحسن الغناء

مثال من شهامته

أما شهامته فاعل أبـدع ما رأيناه من الامثلة الدالة علىها ،
ما حكاه المقرئ من أن العباس "شاعر توجه الى النفر ، فلما
نزل بوادى الحجاره ، سمع امرأة تقول : « واغوثاه بك

يا حكم ! لقد اهللنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا ،، فسألها
عن شأنها ، فقالت : « كنت مقبلة من البادية في رفقة ،
نخرجت علينا خيل عدو ، فقتلت ، وأسرت ، فصنع قصيدته
التي فيها :

« تدارك نساء العالمين بنصرة

فأنك أحرى أن تغيث وتنصرا ،

فلما دخل عليه انشده القصيدة ، ووصف له خوف
الشعر ، واستصراخ المرأة باسمه ، فأنف ، وبأدى في الحين
بالجهاد ، وغزا تلك الناحية وفتحها ، وقتل كثيرا من أهلها
ثم امر بإحضار المرأة ، وأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها
وقال للعباس : « سلها هل اغاثها الحكم ؟ ، فأجابته :
« والله لقد شفى الصدور ، وإنكى العدو ، واغاث الملهوف
فأغاثه الله ، وأعز نصره ، ، قالوا : « فرتاح لقولها ، وبدا
السرور في وجهه وقال :

« ألم تر يا عباس أني أجبتها

على البعد اقتادا لخمس المظفرا !

فأدركت أوطارا وبردت غلة
ونفست مكروبا وأغنيت معسرا،

مثال من اقل امم

ولما هجم سكان الربض الجنوبي من قرطبة على حرسه
وزاد هياجهم حتى فرقوا شمله، وانتهوا الى قصر الامير،
مهدديه بالدمار، تقلد الحشم سلاحه، وهم بالنزول، فألح
عليه من معه بالتريث في امره، فلم يسمع لهم قولا، وجمع
فرسانه وركب في مقدمتهم وخرج الى الثائرين فنكصوا
على أعقابهم

مثال من شعرة

ومما عثرنا به من شعرة، قوله لما قتل أهل الربض، وهدم
ديارهم وحرقها :

رأيت صدوع الأرض؛ أسيف راقعا
وقسم لا أمت انشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري. هل بها اليوم ثغرة ؟
أبأدرها مستنقى السيف دارعا

تنبئك أنى لم اكن فى قراءهم
بوان، وقد ما كنت بالسيف قارعا
وهل زدت إذ وفيتهم صاع قرصهم
فوفوا منايا قدرت ومصارعا
فهذى بلادى، إنى قد تركتها
مهادا، ولم أترك عليها منازعا
وقوله من قصيدة :

من لى بمقتضبات الروح من بدنى
يفصبنى فى الهوى عزى وسلط فى

اثره فى الانداس

أول من جند الاجناد المرتزة بالانداس (كما يقول
ابن خلدون) وجمع الاسلحة والعدد ، واستكثر من الحشم
والحواشى ، وارتبط الخيول على نابه ، واتخذ الممالك ، وكان
يسمىهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف ،
وكان باشر الامور بنفسه ، وكان له عيون يطالعونه
بأحوال الناس

الدين في اسبانيا

✽ تغلب العرب على الاسبانيين كما قدمنا في المحاضرة الاولى فانتشر الاسلام في اسبانيا وأصبح هو الدين السائد على الاغلبية من السكان وقد شرح لنا الاستاذ نيكلسون الاسلام في اسبانيا والآراء الدينية التي كانت سائدة بين المسلمين، في القطعة التي سنتلوها عليكم الآن - وشرح لنا العلامة دوزي المسيحية في اسبانيا، واثار الاسلام في المسيحيين، والآراء التي كانت سائدة بينهم، في قطعة أخرى، ونحن نبدأ بما قاله نيكلسون لاهميته، ثم نختم هذا الفصل بما قاله دوزي في هذا الصدد، واليك ما قاله الاول ✽

(١)

الاسلام في اسبانيا

لم يكن العرب ليكونوا الاقلية الصغيرة من مسلمي اسبانيا، فحسب، بل كانوا زيادة على ذلك يظهرون عدم مبالاة بهم بالدين، واحتقارهم لقوانين الاسلام، مما هو منتظر من رجال تشبهوا بتقاييد البدو وكانوا كل ايامهم على اتصال بأموي دمشق والنيويين، وعلى النقيض من ذلك كانت الحال مع

البرابرة ، ومع مؤمنى اسبانيا المسمون بالصائبين ، أو
المولدين ، الذين يعيشون كوال في كنف أشرف العرب ، فلقد
تمسكت تلك الطوائف بالدين الذي اتبعته استمساكا يتناسب
مع مزاجها السوداءوي الحار ، الذي كانت تمتاز به دائماً —
ومن ثم ساد بين مسلمي اسبانيا ايمان صارم ، يتمثل في يحيى
ابن يحيى المتوفى سنة ٨٤٩ م وهو أحد البرابرة ونموذج لهذا
الصنف .

يحيى بن يحيى

سافر إلى الشرق وسنه ، وقتئذ ثمان وعشرون سنة ، وتلقى
العلم على أستاذه مالك بن انس الذي أملى عليه كتابه المعروف
بالموطأ ، وحدث أن كان يحيى ذات يوم في إحدى دروس مالك
ومعه عدد من الطلاب رفقاءه ، فقال قائل : « حضر الفيل فجروا
جميعاً لرؤيته ، ولم يتحرك يحيى من مكانه ، فسأله مالك : « لم لم تذهب
لتراه وليس في اسبانيا مثل هذا الحيوان ؟ » فاجابه يحيى : « لقد
تركت بلادى لأراك واتلقى عنك الدروس ، ولم آت ههنا رؤية
الفيل ، فسر مالك هذا الجواب وقال عنه انه عاقل إسبانيا ، ولما

عاديحي الى إسبانيا ، بذل كل ما في وسعه لنشر تعاليم
مذهب سيده - واثن كان يحي هذا قد أصر بسبب تورعه
ونسكه على رفض أى منصب من المناصب العامة - فقد
عظم تأثيره ونغم ذلك وذاع صيته إلى حد ان وصلا - كما
يقول ابن حزم - الى أنه كان لا يولى قاض فى الاندلس إلا
بعد أن يؤخذ رأى يحي فيه ، وإلا بعد أن يبين من يفضله
على سواه من الناس ^(١)

(١) هذا مأورده ابن خلكان فى الجزء الرابع صحيفة ٢٩ ،
واليكم مقاله المقرئ فى ذلك :

« ومن الراجلين من الاندلس الفقيه المحدث ، يحي بن يحي اللبثي
داوي الموطأ من مالك رضى الله تعالى عنه ، ويقال ان اصله من
برابرة مصمودة - وحكى انه لما ارتحل الى مالكة ولازمه ، فبينما
هو عنده فى مجلسه مع جماعة من أصحابه ، اذ قال قائل « حضر القيل
فخرج اصحاب مالكة كلهم ، ولم يخرج يحي ، فقال مالك : « مالك
لم تخرج وليس القيل فى بلادك ؟ » فقال « انما جئت من الاندلس لا نظر
اليك واتعلم من هديك وعلمك ، ولم أكن لا نظر الى اليل » فاهجب
به مالكة وقال : « هذا عاقل الاندلس » ولذلك قيل « ان يحي هذا
عاقل الاندلس » وعيسى بن دينار فقيها ، وعبد الملك بن حبيب

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلى الحديث مباشرة
فى اتخاذه شرعا للبلاد - قال عالم من كتاب القرن العاشر
«لقد كان الاسبانيون لا يعرفون الا القرآن والموطأ ، فكانوا
اذا وجدوا تابعا من أتباع مذهب أبى حنيفة أو الشافعى

علمها ، ويقال ان يحيى راويها ومحدثها ، وتوفى يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤هـ
فى رجب وقبره يستسقى به بقرطبه » وقال المقرئ :

« وكان مع أمانته ودينه معظما عند الامراء يكنى عندهم
عفيفا عن الولايات منزها جلت رتبته عن القضاء ، وكان أعلى من
من القضاء قدرا عند ولاية الامر بالاندلس ، لزمه فى القضاء
وامتناعه - قال الحافظ بن حزم - « مذهبنا انتشرا فى بدء أمرها
بالرياسة والسلطان ، مذهب أبى حنيفة ، فإنه لما ولى للقضاء ابويوسف
كانت القضاة من قبله ، من أقصى المشرق الى أقصى عمل افريقيا ،
فكان لا يولى الا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا
بالاندلس ، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول
فى القضاة وكان لا يلى قاض فى اقطار الاندلس الا بمشورته واحتياره
ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى
الدنيا ، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به - على ان يحيى لم
يقبل قضاء قط ، ولا أجاب اليه - وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم
وداعيا الى قبول رأيه لديهم » ا . هـ

طردوه من اسبانيا - والويل لمن يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة أو من طائفة تنتمى لمذهب ما ، فانهم كثيرا ما كانوا يخذون أنفاسه^(١) .

وقد كان علماء الدين الاسلامي متغطرسين ومفرطين في التعصب الأعمى والطمع في احراز القوة ، فلم يشاءوا أن يرأسهم أحد في المملكة - فاما في زمن هشام (٧٨٨ - ٧٩٦) خاف عبدالرحمن ، فقد رأوا أميرا وفق ما يتمنون ، فقد كانت تقواه وورعه مما لا يدع لهم مجالاً لكلام ، وكان على شاكلتهم فاهتم بشئونهم

وأما الحكم (٧٩٦ - ٨٢٢) فقد كان أقل منه مراعاة لهم - نعم انه كرم رجل الدين وبجلهم واسكنه في الوقت نفسه أراهم أنه لن يسمح لهم بالتدخل في الشؤون السياسية مطلقا فنقموا عليه ، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الشرس واجابوه بالتهديد والاهانات ، واستثاروا جمهور قرطبة ولا سيما الصابئين - وكانوا في الجزء الجنوبي من المدينة وهو المسمى بـاربض - ليقوموا في وجه ذلك النظام وجنوده السفهاء - وفي

(١) المقدسي صحيفة ١٤٤

ذات يوم من أيام رمضان (١٩٨ هـ) (مايو سنة ٨١٤)
وجد الحكم نفسه وقد أقصيت عنه حاشيته وحاصره الغوغاء
المتهمجون في قصره ، ولكن شجاعته لم تفارقه ، وقد أنجاه من
مأزقه الخطر الذي كان فيه ، برودته وإتقاده جيشه المدرب له -
وكان نصيب تلك الضاحية النائرة أن دكها دكا ونفى من
سلم من القتل من أهلها إلى بلاد بعيدة ، وبلغ عددهم نحو
ستين ألف نسمة - والحق أن المجرمين الأصليين لم يقوموا
تحت طائلة العقاب - ثم كف الحكم عن اضطهاد رجال
الدين الخائفين الذين شعروا بأنهم يستطيعون أن يصلوا
منه باللين إلى ما أخفقوا في الحصول عليه بالقوة - وإذا كان
أغلبهم من الرب أو البرابرة ، فقد بشوا الدعوة الشديدة في
الناس لاحترام الحكم ، فعادت اليهم قوتهم في الحال - وفي
زمن عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) أدار دفة السياسة
الملية ، يحيى بن يحيى زعيم الثورة بنفسه ، وتولى توزيع مناصب
القضاء كما أراد . ا . هـ ،



هذا هو الجزء الذى تناول فيه الاستاذ نيكاسون ،
الكلام على الاسلام فى اسبانيا ، ولما كنا لا نستطيع
مناقشته فى كل ما قاله ، لكثرة الأغراض الاخرى التى
نريد الكلام عنها ، فإننا نكتفى بأهم تلك النقط وألزمها الآن
وحسبنا أن نلقى بنظرة سريعة على ما قاله :

* * *

فأما أسلوبه فهو دائماً لا يتغير - أسلوب موجز مملوء
بالمعاني كما رأيتم ، وكما ترون فى كل ما ننقله لكم عنه ،
وأما النتائج التى نخرج بها من هذه القطعة فإننا نسوقها ممزوجة
براء غيره من المؤرخين ، مع إبداء ملاحظتنا على أهمها
إيجازاً لكلام :

يتبين لنا مما مر ما يلى :

أولاً : قوة نفوذ الفقهاء وهيمتهم التامة على عقول العامة
ثانياً : رغبتهم الشديدة فى الاستئثار بكل شئ
وتدخل فى كل أمور المملكة تقريباً

ثالثاً : شدة تشبع الناس بالعقيدة الدينية وشدة انحصارهم
بها . وقد نرى أنهم كانوا يحاربون كل من يغضب رجال الدين أو

يتعدى عليهم

رابعاً : معرفة الفقهاء كيف يستثمرون ذلك النفوذ الدينى العظيم ، وكيف ينتهزون فرصة تشبع الجمهور بالعقيدة الدينية وتغانيه فى حمايتها - فى انفاذ ما تسوله لهم نفوسهم من الرغبات وفى تحويله إلى حيث شاءت لهم أهواؤهم - وقد شاهدتم كيف أنهم استطاعوا أن يهددوا السلطان نفسه خامساً : أن مسألة الدين فى الاندلس كانت غيرها فى الشرق ، بل أنها كانتا على النقيض ، فبينما كنت ترى المذاهب العديدة ، والنحل المختلفة ، سائدة فى الشرق ، إذ تشاهد عكس ذلك تماماً فى الاندلس ، فلم تكن ترى هنا إلا مذهباً واحداً قد هيمن على كل أهلها تقريباً ، ذلك هو المذهب السنى الذى لم يند عنه إلا بعض أفراد غاية فى البدرة ، ممن مالوا إلى مذهبي المعتزلة والظاهرية

سادساً : ان تعصب الناس لمذهب مالك ومغالاتهم فى الانتصار له ، وصلا إلى حد الجنون ، فقد رأيت أن افتقارهم بهذا المذهب ، وتهوسهم فى الولوع بكتاب الموطأ ، وصلا بهم كما يقول ذلك العام الذى أشهد به نيكاسيون - إلى حد

أنهم كانوا لا يعرفون إلا القرآن والموطأ
بل لقد بلغ جنونهم بالموطأ أكثر من ذلك ، فقد حكى
لنا بعض المؤرخين - أن تعصبهم للموطأ أنساهم النظر في
القرآن والاحاديث



فاما عن النقط الاربعة الاولى فلا أدل عليها مما سرده
نيكاسون عن الحكم هذا وعن حاله مع الفقهاء فقد رأيت
من حكايته جرأة الفقهاء في استعمال نفوذهم على العامة باغرائهم
ايام حتى على مهاجمة قصر الملك ومحاولة قتله
وقد كادوا يفعلون لولا حسن حظه - ولولا أن أغاثه
جنوده الذين داهمهم وشتتوا شملهم
واعلم ما يستلقت النظر في هذه الحكاية التي سردها
عن الحكم ، هو قوله عنه :
" وقد أنجاه من مأزقه الخطر الذي كان فيه برودته
وجيشه المدرب ، ، والحق أن الحكم قد بلغ من رزاقته
وثبات جأشه في هذا المأزق الحرج ، أن داعب خادمه بتلك
الجملة التي سقناها لكم في محاضرتنا السابقة - فقد أمره أن

يأتيه بزجاجة الغالية ليتطيب بها ، وقت أن كان الجمهور يحاصر قصره ويحاول اغتياله ، فلما أبطأ الخادم ، أعاد عليه السؤال ثانية ، فقال له خادمه :

« يا سيدي أهذا وقت الغالية ؟ » ، فاجابه :

« ويلك يا بن الفا ... بم يعرف رأسي من ردوس العامة إذا قطع ، إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ » ،

ولقد سمعنا حكايات عديدة عن رزاة بعض الناس وعن ثبات جأشهم وبرودتهم ساعة الخطر المميت ، فلم نر فيما آمنناه مداعبة أغرب من هذه المداعبة ، ولا رباطة جأش وصلت إلى أكثر من هذا الحد

شاهدنا شدة ازدياد نفوذ الفقهاء في ذلك العصر . ولكن لا يفوتنا أن نقول أن هذا النفوذ العظيم الذي شاهدتموه لم يكن ليقاس بما وصل اليه سلطانهم في الاندلس وقت انحطاط الدولة وتفقرها ، فلقد كان نفوذهم يتعاضم كلما ازدادت الدولة في الانحطاط ، وقد كان ذلك أكبر مساعد لدولة على توالي انحطاطها وتفقرها

واقدم كانت وطأة التعصب المدين والانتصار للمقيدة
تخف حين يقبض على ناصية الدولة ملك قوى كالحكم
الثاني مثلاً الذي استطاع حماية الفلاسفة ورجال العلم وأحرار
المفكرين من عنيت العامة والمتنطعين في الدين - كما سترون
ذلك في حينه - فسرون أنه أطلق حرية التفكير للناس
وأن العلوم قد وصلت في عصره إلى أقصى مدى - وإن
الآداب أزهرت وأن حرية الفكر وصلت إلى حد عظيم
جداً. وأنه أخذ بناصر المفكرين، وإن الحرية الدينية لم تصل
في عصر ما إلى ما وصلت إليه في زمنه. سترون كل ذلك في
حينه، ولكنكم سترور أيضاً أن الحرية الدينية رغم ما وصلت
إليه في ذلك الزمن لم تصل حتى في زمن هذا الملك العظيم -
إلى ما وصلت إليه في زمن المأمون الخليفة العباسي

* * *

بني علينا أن نتكلم عن النقطتين الخامسة والسادسة
فنعقول... إن وصول المذهب المالكي إلى حد أن أنساه
القرآن نفسه، وإن وصوله بينهم إلى حد أنهم كانوا لا يطبقون
رؤية أي مذهب آخر، وإلى حد أنهم كانوا يطردون أي

متمذهب بسواه، وإلى حد أنهم حرقوا كتب الغزالي حين وصلت إلى الأندلس - كما سترون فيما بعد - وإلى حد أنهم كانوا لا يطبقون النظر في كتاب فلسفة،،

نقول: «إن وصول المذهب المالكي إلى هذا الحد، كان بلا شك نذير سوء بما سنسمعه من المدهشات والغرائب التي حصلت وقت انحطاط الدولة، وسنورد أهمها في حينه»

قلنا أن العقيدة الدينية تمكنت من نفوس المساميين في إسبانيا، وإن الفقهاء تعهدوا غرسها وانماؤها وفق ما يستهون وأنهم أولوا النصوص الدينية والآي القرآنية على حسب رغباتهم فماذا نشأ عن ذلك؟؟ نشأ عن ذلك أن الجمهور فيما بعد، وقف عقبة كأداء في سبيل كل من حاول البحث بحرية ففكر، فكأن لا يتردد في رجم كل من سمع عنه الاشتغال بعلوم الفلسفة - متى رأى ما ينكره عليه - بل لقد وصل نفوذ الفقهاء وسيطرة الإمامة إلى حد أن كان الملك إذا حاول استرضاء الرعية تقدم إلى واحد من مشهوري الفقهاء وفوض إليه الأمر في حرق كل ما يراه في مكتبته منها - يفعل ذلك بعد

أن يكون قد احتاط ووضع أهمها في مكان لا يهتدى اليه الفقيه
وكان الجمهور يحارب الآراء الحرة من غير أن يفهم
شيئا عن حقيقتها، وآية ذلك انه كان يخلط الفلسفة بالتنجيم،
فكان يطلق على كل من حاول البحث بحرية فكر، اسم
المشتغل بالفلسفة والتنجيم - وكان الفقهاء يحاربون الآراء
الحرة والمذاهب الفلسفية لأسباب عديدة. فديكون أهمها
ان اغلبهم كان يخشى على نفوذه إذا انطلقت الافكار من
عقلها وتحررت العقول من رتبة التقليد - وإذا كانوا قد
استمدوا ذلك النفوذ العظيم من سيطرتهم الدينية، فقد
أيقنوا أن سلطانتهم الدينية باق على الجمهور ما دام جاهلا،
وعرفوا أنه اذا استنار أدرك ما في أقوالهم من التناقض
والاغراق، وفي ذلك القضاء على نفوذهم، وكأنهم كانوا يرون
رأى أبي العلاء في قوله :

الدين متجريميت، فلذلك لا تلقاه في الاحياء الا كاسدا

* * *

وقديكون الدافع شيئا آخر، هو جمود بعضهم على
فكرة واحدة، وعدم قدرته على التمشي مع الآراء الحرة

لقصر مداركه - كما أنه قد يكون ناشئا عن سوء نية
الكثيرين منهم وأنانيتهم وجنونهم بالسيطرة ، لكننا مع
ذلك جديرون أن لا ننسى أن بعضهم كما يفعل ذلك عن
محض اخلاص ، لاعتقاده أن انتشار الفلسفة وحرية المكر
بين الجماهير هو أكبر باعث على السير بهم في طريق الالحاد
والزندقة وزلزلة العقيدة - فكان لذلك يعتقد أن التضيق
على الآراء الحرة خير معوان على بقاء الدين ثابت الدعائم . آثما
من تطرق الشك إلى نفوس عامة الناس - ومهما يكن من
شيء فقد أدى ذلك التضيق الى عكس الغرض الاساسى
منه ، فقد حجب الفلسفة إلى نفوس الكثيرين وزادهم هياما
بها ، كما كانت الحل في البلاد الشرقية -

واذا كان اكثر ملوك الاندلس كانوا يخشون نفوذ الفقهاء ،
ويتهيبون سطوتهم ويبذلون جهودهم في نشر العلم ، ويشجعون
حرية الفكر سرا ، لأنهم لم يجرؤوا على مخالفة ارادة الفقهاء ،
وإذا شكوا العلماء والفلاسفة والملوك شدة بأس الفقهاء في اوائل
الدولة ، فقد انقلبت الحال في أواخرها تقريبا ، وأصبحنا نرى
في الملوك أنفسهم من هو على رأي الفقهاء المتنطعين ، في التضيق

على الفلاسفة، وستبينون ذلك من القطعة التالية ^(١) وهي :

« وقام بأمره (بأمر الملك) من بعده، ابنه علي بن يوسف بن تاشفين، وتلقب بلقب أمير المسلمين، وسمى أصحابه المرابطين، وجري على سنن أبيه في الجهاد، وكان إلى أن بعد في الزهاد والمتبتلين، أقرب منه إلى أت يعد في الملوك والمتغلبين - واشتد إثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرا في مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولي أحدا من قضائه كان فيما يعهد إليه أن لا يقطع أمرا ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحض أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يباغوا مثله في صدر الأول من فتح الاندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته - فعظم أمر الفقهاء - كما ذكرنا - وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثر لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم وفي ذلك يقول أبو جعفر المعروف بابن الأندلسي :

(١) منقولة عن كتاب المعجب في أخبار المغرب تأليف محي الدين المراد كشي صحيفة ٩٥

أهل الرياء لبستم ناموسكم
كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فلا تكتمو الدنيا بذهب مالك
وقسمتمو الاموال بآبن القاسم

ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين ويحظى عنده . لا
من علم الفروع - أعني فروع مذهب مالك - فنفت في ذلك
الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها . وكثر
ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسوله (صلعم)
فلم يكن من مشاهير أهل هذا الزمان من يعتني بها كل
الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه
الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير
المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة الساف له ، وهجرهم من
ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره الى
اختلال في العقيدة ، واشباه هذه الأقوال ، حتى استحكم في
نفسه بغض علم الكلام وأهله - فكان يكتب عنه في كل
وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد

من وجد عنده شيء من كتبه - ولما دخلت كتب أبي حامد
الغزالي - رحمه الله - المغرب ، أمر أمير المسلمين بأحراقها ،
وتقدم بالوعيد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد
عنده شيء منها ^(١) ، ، ا . هـ

(١) ومما قاله ابن سعيد في ذلك ، في كتابه المسمى بالشهب الثاقبة
في الانصاف بين المشرقة والمغاربة ؛ ونقله عنه المقرئ ، قوله :
« وأما قواعد أهل الأندلس في دياناتهم فانها تختلف بحسب
الأوقات ، والمظر إلى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم إقامة
الحدود ، وانكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة في ذلك ،
وانكاره ان تهاون فيه اصحاب السطان ، وقد يابج السلطان في
شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا
يعبئون بخيله ورجله ، حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في
اخبارهم .

وأما الرحم بالحجر للقضاء والولاية للأعمال - اذا لم يعدلوا -
فكل يوم «
إلى أن قال :

« وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم ،
فان لها حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ،
فانه كما قيل : « فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم » اطلعت

نكتفى الآن بسر تلك القطعة في هذه الالمامة
للموجزة، من غير أن نعلق عليها بشيء من عندنا، ففيها وحدها
تتبينون صورة واضحة للحال الدينية في عصر من عصور الدولة

شيء من الآثار الفعلية

للمعيرة الدينية

ولا يفوتنا بعد كل ما ذكرناه أن نبين لحضراتكم أثراً

عليه العامة اسم « زنديق » وقيدت عليه انقاسه ، فان زل في
شبهة ، رجوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ،
أو يقتله السلطان تقريباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم
بأحراق كتب هذا الشأن ، اذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور
ابن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وان كان غير خال من الاشتغال
بذلك في الباطن »
وقال :

« وقراءة القرآن بالسمع ، ورواية الحديث عندهم رفيعة ؛
ولفقه رونق ووجاهة ، ولا مذهب لهم الا مذهب مالك ، وخواصهم
يحفظون من سائر المباحث ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى
الهمم في الدوم »

فعليا واصنعا من آثار تمكن العقيدة في نفوس أصحابها، متى وجدت محركا قادرا على تصريفها، واستفزاز العاطفة الدينية فيها - فإن الفاء نظرة سريعة على قصيدة أبي اسحق الفقيه ورؤية أثرها العظيم الذي أحدثته في نفوس الجمهور، ليكفى وحده في اثبات ذلك، وانكم لترون فيها مبلغ التحمس الديني العظيم، وكيف أنها كانت السبب في القضاء على ما يربو على أربعة آلاف يهودي، ونهب أموالهم، وتدمير منازلهم، وكانت السبب في حدوث تلك المذبحة الهائلة في القرن الرابع الهجري سنة ٣٥٩ م

وقد دعا صاحبها الى قولها أن يوسف ابن نغزالة اليهودي الوزير^(١) وشى بأبي اسحق قاتل هذه القصيدة فقصاه

(١) قال صاحب تفتح الطيب : « ولما استوزر باديس، صاحب غرناطة، اليهودي الشهير بابن نغذلة، وأفضل دأؤه المسلمين، قال زاهد البيرة وغرناطة أبو اسحق الأبيرى، قصيدته النونية المشهورة التي منها في اغراء صنهاجة باليهود . . . الخ . »

« وهي قصيدة طويلة، فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور، فأراح الله البلاد والعباد، ببركة هذا الشيخ، الذي نور الحق على كلامه باد ! »

السلطان عن بلاده - قالوا - وكان ذلك الوزير قد تعرض
لتسفيه بعض الآراء الدينية الإسلامية ، وكان عظيم الخطر
واسع النفوذ - فوجد أبو اسحق من ذلك دافعا الى انشاء
تلك القصيدة البليغة التي سنتلو على حضراتكم أحسن
ما فيها والتي دفعه الى قولها غيظه من عدوه ذلك الوزير
الخطير ، فلأها تحريضا وأفعمها حججا وبراهين ، أفصح في
التأثير بها على العامة وحملهم على انفاذ رغباته - وما زال
يتفنن في ضروب الاحتثات والتهيبج حتى اشتعل الجمهور
الساذج حماسا ، وهجم على ذلك الوزير فقتله في قصر السلطان
نفسه - وليس من شك في أن أبا اسحق بذل كل مواهبه
في الضرب على النغمة الدينية واظهار التفجع الشديد على
ما انتاب الدين من النهاون به وعرف كيف يوالى فيها اطراد
الأدلة واتساقها وتدفق المعاني وغزارتها مع دقة في التعبير
عن أغراضه وخواجه بكلام نخم ، يتطاير حماسا ويتأجج
نارا وشعر صارخ

خارج من قلب قائله مثلما يزفر بركات
وبهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود

(أخصامه) فرض لا مناص من ادائه وواجب حتم لا يصح
السكوت عنه - وانهم، إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى،
فهم خليقون أن يتداركوه في الحال، حتى لا تصب عليهم
لعنة الله، أو يحيق بهم غضبه. فيخسف بهم الأرض، أو تنقض
عليهم السماء، وكذلك لم يترك ناظمها وسيلة من الوسائل التي
تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة إلا استخدمها،
ولا نعمة من نعمات التعصب للعقيدة الدينية، إلا ضرب على
وتيرتها - كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل اسمواته
إلى حد الركافة في بعض الأبيات، مع أنه من أجل الشعر
وأبدعه - وإن شئت فقل، وأروعه، واليكم هذه القصيدة
الفريدة في بابها :

| | |
|------------------------|-----------------------------|
| الافل المنهاجة اجمعين | بدور الزمان وأسد العرب |
| مقالة ذي مقعة مشفق | يعد النصيحة زلفى ودين |
| انقد ذو سيدك ذلة | تقربها عين الشامتين |
| تخير ككته كافرا | ولو شاء كان من المؤمنين |
| فمن اليهود به، وانتخرا | وتاهوا، وكانوا من الارذالين |

ومنها :

فكم مسلم راغب راهب لا وذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ولكن منا يقوم المعين
فها لا اقتدى فيهم بالالى من القادة الخيرة المتقين (١)
وأنزلهم حيث يستأهلون وردم أسفل السافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا ولم يستطيلا على الصالحين

ومنها يخاطب السلطان

أباديس (١) أنت امرؤ حاذق تصيب بظنك نفس اليعرب

(١) في هذا البيت شيء كثير من الركاكة في قوله (بالآلى
من القادة الخيرة لمتقين) ولكما نغتنرها لما في تدلييه من تمة
ذلك الصورة الشعرية المنطقية البديعة

(١) الهمزة للاستفهام ، وباديس هو باديس بن حبوس ،
صاحب غرناطة ، وكانت بينه وبين المعتضد حروب شديدة ،
قل بن خلدون : « ولي (باديس) ملك غرناطة بعد أبيه ،
واستولى على سلطانه اسماعيل بن نغزلة الذي ، ثم نكبه وقتله
سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، وقتل معه خلقاً من اليهود ، وتوفي
باديس سنة سبع وستين وأربعمائة ،

فكيف خفي عنك ما يعبتون وفي الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك الى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى اذا كنت تبني وهم يهدمون
وكيف استنمت الى فاسق وقارنته وهو بئس القرين
ومنها :

واني حملت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان اعين
ومنها :

وعلى أمانك على سرهم وكيف يكون امينا خؤون؟
وبك كل شيء درهما فيقضي ويدنون اذيا كلون
وقد هضوك الى ربكم فما ينعمون وما يشكرون
ومنها :

ودرحه وردعه داره ونجى اليها نير العميون
وصارت حوائجنا عندده ونحن على بابه قائمون
ويصدق فان الى ربنا راجعون (١)

يزي ن يجره و هـ نبت موبه الشيطاني في استفزاز
له نبت موبه عن م نبت جمع على ما اسباب النين من ضعف
نبت موبه نبت موبه نبت موبه

| | |
|------------------------|---------------------------|
| ولو قلت في ماله إنه | كمالك كنت من الصادقين |
| فيأدر إلى ذبحه قرية | وضيح به فهو كبش سمين |
| ولا ترفع الضغط عن رھطه | فقد كنزوا كل علق ثمين |
| وفرق عراهم وخذ ما لهم | فأنت أحق بما يجمعون |
| ولا تحسبن قتلهم غدرة | بل الغدر في تركهم يعيثون |
| فقد نكنوا عندنا عهدهم | فكيف نلام على أنما كئيبين |
| وكيف تكون لما هممة | ونحن خمول وهم ظاهرون |
| ونحن الاذنة من بينهم | كان أسأنا وهم محسنون |
| فلا ترض فينا بافع لهم | فأنت رهين بما يقبلون |
| وراقب الهك في حزبه | خزب الاله هم المفلحون |

نلك هي الفصيدة البايغة التي استفزت الناس إلى الفتة
باليهود وأخذ البريء منهم بذنب المسيء، وكان من نتائجها
تلك المذبحة الكبيرة التي أشرنا إليها والتي لا يؤخذ بنجريرتها
إلا إبراهيم اسحاق ناظمها الذي عرف كيف ينتقم لنفسه عن
طريق التشيع المدين والقطر يظهر التفاني في لدواع منه :

المسيحية في اسبانيا (١)

« بعد الفتح الاسلامي اعتنق كثير من المسيحيين دين الفاتحين - حفزتهم لهذا المنافع من جهة واقتناعهم بأن الدين الاسلامي هو الدين الحق من جهة أخرى . فقد جددوا فلسفتهم في نظرية الصراع - يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق ، ويقولون للكهنة : لو كانت المسيحية حقاً فلماذا أسلم الله بلادنا وهي مسيحية لشيعية نبي كاذب - وقد زعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته وقصصتم علينا

(١) معربة عن كتاب دوزي المسمى

Recherches sur les Musulmans & Litt. d'Espagne

ومن هذه القطعة تبيينون حال المسيحيين في اسبانيا بعد الفتح الاسباني ، وكيف تسرب الايمان الى الكثيرين ومنهم الذين أسماهم نيكلسون بالصائبين أو المولدين وكان لهم اكبر أثر في الدين الاسلامي وعاشوا كموال في كنف أشرف العرب ووصل تمسكهم بالاسلام الى حد عظيم جداً - ولقد يضطربنا الى الاكتفاء بهذه الكلمة دون تعليق على بعض ما جاء فيها من النقط الهامة - رغبتنا في الايجاز الشديد الذي يدعونا اليه ضيق الوقت.

مجموعة من تلك المعجزات التي وقعت غيرة على هذا لدين أيام المظالم الآرية - لم لاتبعث هذه المعجزات مرة أخرى ؟ » وقد كانت هذه الاعتراضات في العصور السابقة تسبب الحيرة والارتباك للكهنة انفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك لم خضع المؤمنون وذلوا أمام الملحدين !! - فلما تقادم زمن الفتح حلت هذه الاعتراضات بأن المتأخرين من ملوك القوط بل كهنتهم وأشرافهم كانوا أئمة مجرمين وأن القوارع التي قرعهم لم تكن الا عقابا عادلا من الله - وقد كان اعتبار النكبات قصاصا عادلا ، من فلسفة الاقدمين على العموم واليهودية على الخصوص - ولقد تتجلى في أمثال سليمان سعادة الأبرار وشقاوة الفجار في صور مختلفة - ولما توالت النكبات على يعقوب لم يكن أصحابه لينزعوا عن اعتباره مجرما لولا أن برهن على طهارته وفضيلته - وكانت القرون الوسطى تطبق على التعاسة نفس هذه النظرية فكان انتصار المسلمين على الخصوص آية الغضب الإلهي كما كانت انتصارات المسيحيين في رأى المسلمين - وكانت تردد هذه الجملة في إيطاليا كذلك وهي « اذا انتصر المسلمون فذلك لأن الله

يريد عقابنا على خطايانا » وكذلك كان يقال في اسبانيا -
وفي سنة ٨١٢ اذاع الفونس الثاني منشوراً باملاء الكهنة
قال فيه « أيها الاله - ان القوط اهاوك بكبرياءهم فكانوا
أهلاً لأن تمزقهم السيوف العربية » وفي سنة ٩٢٤ قال
سنكودي نغار في منشوره بمناسبة انشاء معبد البلد

« لقد كانت اسبانيا تحت سلطان المسيحيين فكانت
حصونها وقراها مكتظة بالكنايس . وبذلك كان الدين
المسيحي سائدا في كل مكان . ولكن اسلافنا تنابعت خطاياهم
وخرجوا على وصايا الاله ، فلاجل أن يعاقبهم على ما قدمت
أيديهم ويرجعهم الى الصراط السوي رماهم بهذا الشعب
البربري »

وقال سبستيان بدوره « وانما هلك الجيش القرطبي
لان الملوك والكهنة تركوا شريعة الله » ، وقال كاهن باشيلوس
« عاقب الله اسلافنا في هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون
هنالك حاجة الى عقابهم في الحياة الاخرى » ، كذلك نرى
المؤرخين المتعدينين من أهل الشمال اتهموا وزيتا ومعاصريه
بانهم كانوا غلاظا ملحدين فاهان الكهنوت برمود الثاني

ومعاصريه بسبب ذلك - وفي رواية كاهن بشيليوس أقدم المؤرخين الذين ينقلون عنه ، أن برمود كان عاقلاً وحيماً عادلاً وأنه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر ولكنه كان سيء الحظ فقد حدث في عهده وقت أن كان يشغل عرش ليون - أن وجه المنصور إلى المسيحية أشد الضربات التي أصابها منذ الهجوم العربي فلم ينتج شيء من سيوف المسلمين ولم تكن لنرى حينذاك إلا مدائن مخربة واديرة خاوية وكنائس مهدمة - بل لقد وصلت الحال إلى أن سقط سبستبول وهيكل سان جان رأساً على عقب - وهنا رجع السؤال لماذا تغلب المسلمون على المسيحية ؟ وأجاب الكهنة على سابق عاداتهم ذلك عقاب على خطايانا والمنصور هو مطرقة الغضب الإلهي ^(١) على أنهم كانوا جديرين أن

(١) Almanzor a été le fleau de la colère celeste

« المنصور مطرقة الغضب الإلهي » هكذا كانوا يسمونه ، ولهم الحق في ذلك ، فلقد باغ به حبه الشديد للغزو ، أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد ، فحدث له نية في ذلك ، فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد ، فنتبعه عساكره وتلاحق به أولاً فأولاً ، فلا يصل إلى أوائل بلاد

يدينوا لنا أين كانت تلك الجرائم التي استوجبت هذه العقوبة الهائلة ؟ وكيف تم ذلك رغم أن الايمان بالخلود كان في ذلك الزمن أكثر منه في أى زمن آخر ؟ ولكن لا غرابة في ذلك فقد آلى كتاب القرن الثانى عشر على أنفسهم أن يقوموا بهذا الواجب ^(١) فؤاف التاريخ الكشتالى على الرغم من أنه من رجال الكنيسة ضحى بلا روية بالكهنة الذين ترأسوا كنيسة رمبوستيل فى القرن

الررم ، الا وقد لحقه كل من اراده من المساكر ، غزا فى أيام مما كتبه نيفارخمين غزوة ، وفتح فتوحا كثيرة ، ووصل الى معاقل امتنت عى من كان قبله ، وملا الأندلس غنائم وسبيامن بات لروم ، وأولادهم وأنسائهم ، وفي أيامه تغالى الناس ، لا أنداس تبما يحزوني به بئاتهم من اثبات والحقى ، وذلك لخص أنهم بنات الروم ، حتى نودى عى ابدية عظم من عظام الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائم ، ولم تساوا أكثر من عشر بن ديناراً

وكان فى أكثر زمانه لا يخرب بأن يغزو غزوتين فى السنة « ا هـ

ملخصا عن كتاب الممجب

(١) وهو اتهام كل من اصابته بكبة بالعصيات ليدل على عايمهم

فعليل ذلك

العاشر وأظهروا أنهم بمظهر الفسقة المجرمين قساة القلوب (١)
وعنى فيالآخ أقيديو بشخص برمود - ألا ترى كيف أنه
يبدؤ كلامه بنشر صحيفة طويلة من سيئاته ونخزيه فاذا انتهى
منها وصل الى هذه النتيجة فقال : « وانما بسبب جرائم
برمود وجرائم شعبه ان المنصور الخ ،، وهكذا برروا عمل
الألوهية التي سمحت للإسلام أن يكتسح المسيحية

* *

ولما كانت الأقاصيص الشفوية قد لحقها كثير من
التحريف في زمن سبستيان ولم يكن قد اعترف الا من ذلك
المنبع فقد وجب أن تقابل كل معلوماته بالخطر المشروع ، ا هـ

(١) فعل هذا ليتوصل به الى اثبات أن سقراطهم كان

عقابا عادلا من الله

عبد الرحمن الثاني^(١)

٢٠٦ - ٢٣٨

ولمات الحكيم بن هشام ، خلفه ابنه عبد الرحمن
الاولسط ، وله انتصارات كثيرة على المسيحيين ، وقد ارتفع
ذكره عند بني العباس ، وكان يحتجب عن العامة^(٢)

اثره في الحضارة الاندلسية

كانت أيامه أيام هدوء وسكون ، وكثرت الأموال
عنده ، فأنخذ القصور والمتنزهات ، وجاب إليها الماء من
الجبال ، وأقام الجسور ، وبنت في أيامه الجوامع . وزاد في
جامع قرطبة رواقين ، ومات قبل أن يستتمه ، فتمه من
بعده ابنه محمد^(٣)

(١) ولد سنة ١٧٦ وحكم احدى وثلاثين سنة

(٢) وقد وصل اجلاله وحببه ، ليحيى بن يحيى الليثي الفقيه
زعيم الثورة الدينية التي قامت ضد الحكم ، الى حد عظيم ، وقد
سبق الكلام على هذه الثورة ، فليرجع اليها في ص (٨١)
(٣) ملخصة عن المقرئ

اثره في الحركة الفكرية

كان عبيد الرحمن الثاني عالما ، فاشتد ميله الى العلماء .
وكان أديبا فرفع مكانة الادباء ، وكان عالما بالفلسفة والشريعة
فبجل الفقهاء ، ومن ثم ازدحم بلاطه بالعلماء والشعراء
ورجال الادب والفقهاء ، ووصلت الحركة الفكرية في
الاندلس الى مدى بعيد

ولعه بالنساء

وكان شديد الولع بالنساء ، فاكتظ قصره بأحسن
الجواري وأجملهن ، وقد خلف منهن مائة وخمسين من
الدكور ، وخمسين من الاناث .

وحكايته مع جاريته طروب أشهر من أن تتصدي لها
وخلاصتها أنه أغضبها ، فعاقبته بالهجر والصدود ، وحاول
أن يرضها بكل الوسائل ، فأخفق ، فأرسل اليها من خاصة
خصيانته من يرغمها على الخضوع ، فأغلقت باب حجرتها
دونهم ، فاستأذنوه في كسر الباب عليها ، فلم يطاوعه قلبه ،

ولما اعيتته الحيل ، لجأ الى ترصيتها ، فسد عليها الباب من
خارج به بدر الدرام ، وتضرع اليها أن تراجعها ، على أن لها
جميع تلك النقود ، فخرجت اليه مكبة على رجله تقبلها ،
وأحرزت المال كله

أوصافه

كان أسمر اللون ، طويل القامة ، أفنى الأنف ، أكحل
العين ، عظيم اللحية

أمثلة من شعره

لم نعث من شعره ، بما يمكننا من الحكم على شاعريته
وربما كن في البيتين التاليين ، دليل على اصالة حكمته وبعد
نظره . وصدق شاعريته ، والبيتان :

واقعد تعارض أوجه لاوامر

فيقودها التوفيق نحو صوابها

وتشيخ ، إن يحو النهى بتجارب

فشباب رأى القوم عند شبابها

ما ألياته الأخرى ، فتخط كثيرا ، عن هذه المنزلة ،

فمن ذلك قوله في جاريته طروب ، التي مر ذكرها :
إذا ما بدت لي شمس النها ر طالعة ذكرتنى طروباً
أنا ابن الهشامين من غالب أشب حروباً وأطفئ حروباً
وليس في البيت الأول معنى يذكّر ، ولا بأس بجماع ،
تلك الصدورة التي يحويها البيت الثاني

*
* *

وقوله يتشوق إليها ، وقد طالت غيبته في غزوة من
غزواته :

الافى بوجهى سموم الهجير
إذا كاد منه الحصى أن يذوباً
تدارك بي الله دين الهدى
فأحييته ، وأمت الصليب
وسرت الى الشرك في جحفل
ملأت الحزون به والسهوباً
ولا بأس بتنظيم هذه الأبيات الثلاثة في الفقرة (١)

(١) ومن أحسن ما عثرنا به من ثمره ، ما كان يكتبه في بعض
توقيعاته : « من لم يعرف وجه طلبه ، فالحرمان أولى به »

فضله على فن الغناء

ولى عبد الرحمن الثانى ، الحكم فى سنة ٢٠٦ ، كما أسلفنا ،
فقدم عليه فى تلك السنة الأولى من حكمه زرياب^(١) المغنى
المشهور ، من العراق . فركب لائقائه ، وبلغ فى اكرامه ،
فيكان بذلك أكبر نصير لهذا الفن الجليل فى بلاد الأندلس
التي عرفت كيف تنتفع بتواهب هذا الفنان العبقري^(٢) ،
وسترون فى حينه - الأثر اجليل الذى أحدثه رقى الغناء فى
نظام الشعر العربى فى الأندلس^(٣)

(١) قال فى 'نفتيس' : « زرياب لقب غلب عليه ببليده ، من
جن سراد نونه ، مم فصاحة لسانه وحلاوة شمله ، شبه بطائر
أسود غرد عندهم ، وكان شاعرا مطبوعا »

(٢) من شاء أن يتتبع حركة الغناء فى الأندلس ، ويتعرف
أثر زرياب لموسيقى فيها ، فليرجع الى الجزء الثانى من كتاب
تعلالده نورى : تاريخ الموسيقى ص ١١١

ص ٩٩ ، L'histoire des Musiciens

(٣) ميرى تدمر : أن 'غناء' زرياب 'الأول' فى 'احتراع'

الموسيقى فى الأندلس

زرياب الموسيقى^(١)

« كان لموسيقى فارسي في بلاط عبد الرحمن الثاني
(٨٢٢-٨٥٢) الخطوة الاولى - ذلك الموسيقى هو زرياب^(١) »

(١) معربة عن كتاب نيكلسون
(٢) نشأ ببغداد ، وكان تلميذا لاسحق الموصلي ، فتلقف من
أغانيه استراقا ، وهدى من فهم الصناعة ، وصدق العقل مع طيب
الصوت ، وصورة للطبع الى ما فاق به اسحق ، واسحق لا يشعر
بما فتح عليه ، لى أن جرى للرشيد مع اسحق خبره المشهور
في الاقتراح عليه بمغن غريب ، مجيد للصناعة ، لم يشتهر مكانه
اليه ، فذكر له تلميذه هذا ، وقال : « انه مولى لكم ، وسمعت
له نزعات حسنة . ونغمات رقيقة . ملائمة بالنفس ، اذا أنا وقفته
على ما استغرب منها ، وهو من اختراعى واستنبط فكري ،
وأحدس أن يكون له شأن » فقل الرشيد : « هذا طيبتي ،
فأحضره » « على حاجتي » « حضره » « نكه رشيد ، عرب
عن نفسه بأحسن مصق وأوجز خطاب . وسأله عن معرفته
باللغة : « فقلت : « أحسن ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه
لا يحسنوه . لا يحسن الا عندك ، ولا يدخر لك ، فان
أذنت غنية . . لم تسمعها اذن قبلك »

مولى الخليفة المهدي وتلميذ المغني الدابة اسحق الموصلي الذي

فأمر بإحضار عود استاذ اسحق ، فلما أدنى اليه ، وقف
عن تناوله ، وقال : « لي عود ، نحتته بيدي ، وارهنفته بأحكامي
ولا أرتضي غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين في
استدعائه »

فأمر بإدخاله ، فلما تأمله الرشيد ، وكان شبيها بالعود الذي
دفعه ، قال له : « ما منعك أن تستعمل عود استاذك » فقال :
« ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي ، غنيته بعوده ، وان
كان يرغب في غنائي ، فلا بد لي من عودي » فقال له : « ما أراها
الا واحدا » فقال « صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي المظر غير ذلك
لكن عودي وان كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه -
فهو يقع من وزنه في الثث أو نحوه ، وأوتاره من حرير لم يغزل
بماء سخن يكسبها اناثه ورخاوة ، وبها ومثلها (وتران من
أوتار العود) اتخذتها من مصران شبل أسد ، فإيا في الترنم
والصفا والجهارة والحدة ، أضعاف ما غيرها من مصران سائر
الخيران . وله من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاقبة
بها ما ليس لغيرها » فاستبرع الرشيد وصفه ، وأمره بالغناء ،
فجلس . ثم المدفع فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائره

هارون . رح اليك العاس وابتكروا

رأى فيه منافسا خطرا فاغراه بمغادرة بغداد وتلمس جده
في اسبانيا حيث تلقاه عبد الرحمن الثاني مرحبا به ، وأعطاه

وأتم النوبة ، وطار الرشيد طربا ، وقال لاسحق : « والله
لولا أنني أعلم من صدقك لي على كتابه أياك لما عنده ، وتصديقه
لك من أنك لم تسمعه قبل ، لازلت بك العقوبة ، لنركك اعلامي
بشأنه ، فيخذه اليك ، واعتن بشأنه ، حتى أفرغ له ، فان له فيه
فيه نظرا » فسقط في يد اسحق ، وهاج به من داء الحسد ،
ما غاب صبره ، فخلا بزرياب وقال : « يا علي ! ان الحسد أقدم
الأدواء وأدواها ، والدنيا فتاة ، والشركة في الصبابة هدامة ،
لا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من اجاداتك
وعلو طبقتك ، وتصدت منفعتك ، فادا أنا قد أتيت نسي من
مأمنها بادنائك ، وعن قليل تستط منزاتي ، وترتني أنت فرقي ،
وهذا ما لا اصاحبك عليه ولو كنت وادي ، ولولا رعي لئمة
تربيتك لما قدمت شيئا على ان أذهب نيسك ، يكون في ذلك
ما كان ، فتخير في ثنتين ، لا بد لك منهما ، اما أن تذهب في
الارض العريضة ، لا أسمع نخبرك ، بعد أن تعطيني عن ذلك
الايمان الموثقة ، وأنبضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، واما
أن تقيم علي كرهى ورغى مستهدفا الى ، فيخذ الآن حذرلكهني

قصر انخا وأجرى عليه راتبا كراتب الامراء ، ومنحه كل ما يتصوره الانسان من مراتب الشرف ، فأحرز شهرة فاست والله أبقي عليك ، ولا أدع اغتيالك ، باذلا في ذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك »

رحلته الى الاندلس

فخرج زرياب لوقته ، وعلم قدرته على ما قال ، واختار الفرار قدامه ، فاطانه اسحق على ذلك سريعا ، ومضى يبنى الاندلس ، واستراح قلب اسحق منه ، وتذكره الرشيد بعد فراغه ، فأمر اسحق بحضوره ، فقال : « ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون ، يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غناؤه ، فلا يرى في الدنيا من يعدله ؟ وما هو الا أن أبطأت عليه جائرة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدد التقصير به ، والتهاون بصناعاته ، فرحل مغاضبا ، ذاهبا على وجهه ، مستخفيا عني ، وقد منع الله في ذلك لأمير المؤمنين ، فانه كان به لم يمشاه ويفرط خطئه ، فيفزع من رآه ! »

فسكن الرشيد الى قول اسحق ، وقال : « علي ما كان به ، فقد فتم منه مرور كثير ! »

أم زرياب الحكم ، وكتب اليه يستأذنه في الوصول اليه

واسعة وصلت الى حد أنه كان يضع الاسلوب الأمثل لكل ما يختص بالذوق والعادات ، ويحدد الزي ، ويصدق على الطهي ، ويعين من الملابس ما يمكن ارتداؤه في فصول

ويعلمه بمكانه من صناعة الفناء ، ففرح الحكم بكتابه ، وأظهر له رغبته الشديدة في ذلك ، فسار اليه زرياب بعياله وولده فلما بلغ الجزيرة الخضراء ، وافاه نبي الحكم فهم بالرجوع الى المدونة ، فثناء عن ذلك منصور اليهودي المغني ، رسول الحكم الذي كان يرافقه ، ورغبه في قصد عبد الرحمن الثاني خلف الحكم

احتفاء عيد الرحمن الثاني به

فكتب الى عبد الرحمن ، فأحسن الرد عليه ، ورحب به ، وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ، ويوصلوه الى قرطبة وأمر خصيا من أكابر خصيانته أن يتلقاه ، حتي وصل الى البلدة فنزل في دار حسنة ، واستدعاه بعد ثلاثة أيام ، وبدأ يجالسته على النبيذ وجماع غنائه ، فهاهو الا أن همه ، فاستهوله واطرح كل غناء سواه ، وشغف به وقدمه علي كل المغنيين

وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتبا ، وأن يجري على بنيهِ الأربعة عشر من دينار لكل واحد منهم ، وأن يجري على

السنة ، وكان يتخذها ملوك اسبانيا نموذجاً لهم ، وما زال
يعظم سلطانه حتى صار يستشفع به ، وعرف ذلك عنه جميع
سكان المملكة حتى آخر أيام حكم المسلمين ^(١)

زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، وأقطعه كثيراً
من إساتين قرطبة

فضل زرياب على الموسيقى

ومما أدخله في الموسيقى العربية من التحسينات - عدا
الانغام الكثيرة التي أدخلها فيها - انه زاد في أوتار عوده وترًا
خامساً ، اختراعاً منه ، وهو الذي اخترع بالاندلس مضراب العود
من قوادم النسر بدلاً من الخشب وأبدع في ذلك ، للطف قشر
الويشة وتقاؤه وخفته على الاصابع وطول سلامة الوتر على كثرة
ملازمته إياه ، فلا غرو اذا غطى فضله دلي كل من اشتهر بفن
الغناء في الاندلس من قبله .

سعة حفظه

وقد حفظ نحو عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بألحانها .
فدل بذلك على سعة اطلاعه ، ووفور ذكائه . ا . هـ ملخصاً عن
المقري بتصرف

(١) والى القاري - ماقاله المقري في ذلك أيضاً ، ليتبين منه مهارة
زرياب وأثره الشديد في الحضارة الاندلسية بعد أن عرف فضله

ولم يكن زرياب إلا واحداً من كثيرين من النوابغ
ورجال العلم الذين وفدوا على اسبانيا من الشرق فان قائمة

من قبل على الغناء الاندلسي
« وكان زرياب قد جمع الى خصاله هذه ، الاشتراك في كثير
من ضروب الظرف ، وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وحوى
من آداب المجالسة ، وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة الملوكية ،
ما لم يجده أحد من أهل صناعته ، حتى اتخذهم ملوك أهل الاندلس
وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته
فصار الى آخر أيام أهل الاندلس مذسوبا اليه ومعلوما به
فن ذلك أنه دخل الى الاندلس ، وجميع من فيها من رجل
أو امرأة يرسل شعره مفروقا وسط الجبين ، غاما للصديغين
والحاجبين ، فلما عاين ذوو التحصيل ، تحديقته هو وولده ونساؤه
لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ،
وتدويرها الى آذانهم ، واسدالها الى أصدانهم - حسبما عليه
اليوم الخدم الخصية والجواري - هوت اليه أفئدتهم واستحسنوه
ومما سنه لهم ، استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج ، لطرده
دجج الصنان من مغابنهم ، ولا شيء يقوم مقامه ، وكانت ملوك
الاندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شا كل

العلماء الذين رحلوا في طلب العلم الى أفريقيا ومصر والى
المدن المقدسة في بلاد العرب والى حواضر سوريا العظيمة

ذلك من ذوات القبض والبرد ، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضره ،
فدلمهم علي تصعيدها بالمح ، وتبييض لونه ، فلما جربوه
أحمدوه جدا

ومما اخترعه من الطبخ اللون المسمى عندهم بالتفايا . ويليه
عندهم لون الثقلي المنسوبة الى زرياب

ومما أخذه عنه الناس بالاندلس ، تقضيله آنية الزجاج الرفيع
على آنية الذهب والفضة ، وإيثاره فرش أنطاع الاديم لتقديم
للطعام فيها على الموائد الخشبية ، اذ الوضر يزول فيها عن الاديم
بأقل مسحة .

ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به ، فانه
رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخدمهم الملون من
يوم مهرجان أهل البلد في ست بقين من شهر يونيه ، فيلبسونه
الى اول شهر اكتوبر ثلاثة أشهر متوالية ، ويلبسون بقية السنة
الثياب الملونة ، ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد
— المسمى عندهم بالربيع — من مصبغهم جباب الخز ، والمالحم ،

والعراق . والى خراسان وترانسكسنيا . بل والى بلاد
الصين أحيانا . كانت تحوى كل نابغى الادباء ورجال البلاغة
العربية الذين أنجبتهم اسبانيا الاسلامية كما يرى ذلك من
يتصفح الفصل الخامس من كتاب المقرئ . ولهذا كانت
حركة مبادلة الآراء فى دؤوب ونشاط ، فلم يستأثر أحد من
رجال الشرق والغرب بشىء خاص ، وعرف الناس كل شىء
حتى أن مشاهير شعراء الاندلس كابن هانىء وابن زيدون
كان ينعتهمما النقاد الشرقيون المعجبون بهما بتمنبي الغرب
وبحتريه ^(١) ، ا . ه .



والحرر ، والدراديع التى لا بطائن لها ، لقربها من لطف ثياب
البياض اللطهاثر ، التى ينتقلون اليها لطفها وشبهها بالمحاشى ، ثياب
العمامة ، وكذا رأى أن يلبسوا فى آخر العيىف وهندأول تخريف ،
المحاشى المروية ، والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب
الملونة ذات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد
فى الغدوات ، الى أن يقوى البرد فينتقلون الى أثخن منها من
الملونات ، ويستظهرون من تحتها اذا احتاجوا اليه . صروف القراء
(١) يجد القاريء فى ختام هذا الفصل كلمة فى هذا الصدد

لعل أول ما يتبادر الى أذهاننا ويسترعي انتباهنا
وحيرتنا من هذه القطعة، هو تقدير الاندلسيين لزرياب، الذي
وصلوا فيه الى حد التقديس - رحب به عبد الرحمن الثاني،
وأغدق عليه نعمة لا تحصى، واجرى عليه راتباً كراتب
الأمراء وزاد افتتانه به وثقته بسلامة ذوقه الى حد أن
حكمه في كل ما يختص بالأذواق والعادات وتعيين ما يصح
ارتداؤه في فصول السنة

هذا الاحتفاء النادر الذي لقيه هذا المغنى الالمى -
وذلك التقدير الذى تغالوا فيه الى هذا الحد، يدلنا على
شيئين غاية فى الاهمية :

أولهما شغف الاندلسيين بفن الغناء وعنايتهم بأمره
عناية ربما رجعت عناية الغربيين اليوم بهذا الفن وأهله^(١)
وثانيهما مغالاة الاندلسيين فى الافتتان بكل شرقى

(١) منة نفع بهذا الاستنتاج في موضعه حين تتكلم عن
الموشحات الاندلسية ونشأتها وأثر الغناء في الشعر العربي -
وكيف أنه كان سبباً فى تحطيم أكبر قيد من القيود التى وقفت
بالشعر فى مكانه وأخرته عصوراً طويلة

والهيام بكل ما يمت بعلاقة الى المشرق ولم يقتصر ذلك على طبقة خاصة من الاندلسيين بل كان عاما في كل الطبقات من الملك الى احقر افراد شعبه وقد أظهر لكم حضرة الدكتور ضيف احتفاءهم الشديد بأبي علي القالي بما يعزز رأينا في ذلك، فأما الاستنتاج الاول فلنأعود اليه في موضعه، وأما النقطة الثانية فانا نوجزها في ما يلي :

اثر المشرق في الاندلس.

ان تقديس الاندلسيين لكل شرفي، مما يكاد يلمسه كل مطلع على تاريخهم في كثير من المواضع، فلقد تغالوا في اجلال المشرق حتى كانوا ينظرون اليه نظرة الابن الى أبيه ولعلكم تلمحون ذلك فيما ذكره نيكلسون من تلقيهم ابن هاني وابن زيدون بمثنى الغرب وبمثنى (١) فقد كان أقصى ما يطمح اليه الشاعر الاندلسي هو أن يلقب باسم شاعر

(١) لنا عودة قريبة الى هذه التسمية ومناقشتها، لتبين مقدار صحتها أو خطئها، فليس من العدل أن نغريها من غير تعاقب عليها، وسنتناول ذلك في ختام هذا الفصل

شرقى مشهور ، أو أن يقال أنه شبيه بمعاصره الشرقى فلان ،
كما كان أقصى ما يطمح اليه النحوى ، هو أن يشبه بنابغ من
نحاة الشرقيين كسيبويه ، وكذلك كان أقصى ما يطمح اليه
الملك هو أن يتشبه بملوك بنى العباس ويقادهم فى كل شىء



قال العباس بن الاحنف على لسان هارون الرشيد
تلك الآيات الشهيرة المنسوبة الى ثانيهما ، وهى :
ملك الثلاث الآنسات عنانى

وحلن من قاي بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية ككلمها
وأطيعهن وهن فى عصيانى ؛
ما ذاك الا أن سلطان الهوى

— وبه قوين أعز — من سلطانى
فماذا فعل سليمان الظافر أحد ملوك الاندلس ؟ قلده
فيها فقال :

عجبا يهاب الليث حد سنانى
وأهاب لحظ فواتر الأجفان

الى أن قال : « وتملكت نفسى ثلاث كالدى ،
يا عجبيا ! : كأن ابهة الملك ونخاره لا يمان الا بتقليد
أحد ملوك بني العباس حتى فى أتفه الاشياء - فاذا عشق
أحدهم ثلاث أو انس ، وتملكن قلبه ، وغلبته على أمره ، تحتم
على السلطان الأندلسي أن يعشق مثل هذا القدر لا أكثر
ولا أقل - ووجب أن يتملكن قلبه ويغلبته على أمره كذلك ،
لتشبه حاله حال السلطان العباسي !!

ووجب أيضا أن يكون التشبيب بهن من البحر
الكامل والثقافية النونية ، اثلا يحسب العشق مزيفا والنسيب
سمجا غير مقبول !!

قد نكون أسرفنا فى هذا الاستنتاج وقد نكون
توهمنا غير الحقيقة ، وقد يكون السلطان الأندلسي أراد
مجرد الفكاهة والاهو فحسب ، بتقليد السلطان العباسي !! قد
يكون هذا وقد لا يكون ، ولكن لا بأس علينا فى ذلك
فكلا الأمرين محتمل ، ولكن ما نريد اثباته أمر تاريخي
واقع سواء أصبح ذلك الاستدلال ام لم يصبح ، فان هناك
كثيرا من القرائن تعززه - انظروا الى قول أحد شعراء

الاندلس وقد صنجر لعدم التفات قومه اليه
أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولكن عيبي ان مطلقى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع
لجد على ما صناع من ذكرى النهب

وقول آخر :

أما ترى احمد في مجده لا يلاحق
اطلعه الغرب فارنا مثله يامشرق^(١)
وقول بعضهم في الترحيب بالمخزومى ، الهجاء الشهير ،
حين قدم غرناطة :

يا ثانيا للمعرى في حسن نظم ونثر
وفرط ظرف ونبل وغوص فكر وفهم^٢

(١) هذا يدل على أنهم كانوا يعتبرون الشرق مخرج النوابغ
والعظماء

(٢) المخزومى هذا هو ابو بكر المخزومى ، وهو شاعر أعمى
شديد القحة والشره ، خبيث الطبع ، ثلاب للاعراض ، ولست
ادرى أى وجه من اوجه الشبه بين هذا الوقح وبين شاعر المعرفة ؟
فليس بينهما من شبه الا تلك لآفة المحتومة وهي فقدان البصر ؛

ثم انظروا الى قول أحد شعراء الاندلس الذي اظهر فيه تبرمه بتقليد العباسيين في كل شيء حتى في اسمائهم :

أما فيما عدا ذلك ، فبينهما من أوجه الشبه والاتصال ما بين
القيض والنقيض ، وما الفرق بين المعري وبين هذا المخزومي
الا كالفرق بين الخير والشر أو النور والظلمة
ولكنها عادة الفها الاندلسيون في التشبيه بمشهورى المشاركة
كما أوضحناه !

ولا بأس من انتهاء هذه المناسبة لمجمل من شاء التوثق من
قحة هذا الشاعر وخبت نفسه ، الى حكايته مع خزفون بنت
القلاعى في ص ١١٨ من الجزء الاول من كتاب نفح الطيب ،
ففي هذه الحكاية مثل صحيح يعطى فكرة عامة عن كثير من
مجالس الادب في بلاد الأندلس ، وأخلاق فئة كبيرة من ادبائهم
وأدبياتهم في ذلك العصر ، وربما دل على شدة الشبه بين ما كان
يحدث في تلك المجالس الاندلسية من المجون ، وبين مجالس أبى
نواس وأضرابه في الشرق ، وربما ذكرنا هذا الهجاء الوقح الذى
نطالعه في تلك الحكاية ، بمهاجاة بشار وحماد عجرد ، وملاحاة
جرير ، وما اكتظ به ذلك الزمن من الفحش وهجر القول مما
لا تساعدنا آداب هذا العصر على اثباته ، على اننا نكتفى بتذكرة
القارىء ، ببائية جرير التى فيها بينه المشهور :

مما يزهدنى فى أرض اندلس
القاب معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة فى غير موضعها
كالهريحكى انتفاخا مصورة الاسد

* *

نحتزىء بهذا القدر فى اثبات تأثر الغرب بالشرق، على ان
فيما يراه المطلع على تاريخ الاندلس الكفاية فى تعزيز
ما ذهبنا اليه

اذا غضبت عليك بنو نمر رأيت الناس كلهم غضابا
لننبه الى قوله :

لعمر ك ما تقول بنو نمر اذا ما الا... فى... ابيك غابا !

وقد أسلفنا القول أن الاندلسيين تأدبوا بأدب الشرق ،
واتخذوا شعراء المشاركة قدوة واماما ، فقلدهم فى كل شيء
تقريبا ، ولن تؤدي هذه العوامل الى غير هذه النتيجة

ابن هاني والمتنبى

بقى بعد ذلك ، أن تناقش المؤرخين في تشبيه ابن هاني بالمتنبى وابن زيدون بالبحتري ، وقد وعدنا في اول هذا الفصل بالعودة الى ذلك في ختامه^(١) والآن نبروعدنا

ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تمكننا من الحكم عليه حكما صحيحا ، فانا نترك مناقشة القسم الثاني من هذه التسمية . ونكتفى الآن بالكلام على النقطة الاولى وهى تشبيه ابن هاني بالمتنبى لاستطاعتنا الكلام فيها - وسنسلك فى الموازنة بينهما طريقة قد لا نرضى عنها كثيرا . وقد لا نملك أنفسنا من الشعور بنقصها الشديد ، ولكن ضيق الوقت وحاجتنا الشديدة الى الايجاز يضطراننا الى سلوكها

(١) كان من حق هذه المقارنة أن تؤخرها قليلا ، الى عصر الناصر أو عصر الحكم الثانى ، فقد وجد ابن هاني فى زمنهما كما نراه فى ترجمته ، ولكننا أردنا التعجيل بهذه الكلمة لنتم بها مناقشة اراء الاستاذ نيكلسون فى النبذة التى ترجمناها له

رغم اعتقادنا بأن سرد عدة أبيات - كائنة ما كانت - لشاعر
ماء، لا يكفي للوصول الى حكم صحيح عنه . وربما اتسع لنا
الوقت فكتبنا في هذا الموضوع رسالة خاصة نسلك فيها
طرق المقارنة الصحيحة ، على أن كليتنا لن تخلو من بضع
فرائد، أهمها تحريك الافكار لمناقشة هذا الموضوع الخطير،
ونبدأ الموازنة بينهما الآن بسرد بضعة أبيات من أرقى
شعرهما المختار، لننتبين منها شاعريتهما ثم نسرد آراء مؤرخي
الآداب فيهما ونناقشها علنا نصل الى نتيجة مرضية :

مختار شعر ابن هاني^(١)

قال في الحكم
إنا - وفي آمال أنفسنا
طول ، وفي أعمارنا قصر -

(١) ابن هاني الأندلسي

ولد سنة ٣٢٦ - توفي سنة ٣٦٣ هـ

اسمه محمد ، كنيته أبو القاسم ، اسم أبيه هاني ، الأزدي
أحد الشعراء في بعض قرى المهدية ، وقد رحل الى الأندلس ،
حيث خلف محمدا هذا ، بمدينة أشبيلية ، ومن تاريخه ، نتيجه أنه
كان معاصرا المعتزلي في الشرق ، وأبجد الرحمن الداصر وابنه
الحكم الثاني في الأندلس ، أي أنه كان في أزهي عصر من عصور
الأدب العربي في الشرق والغرب

نشأ بأشبيلية واكثر من حفظ اشعار العرب وتعرف اخبارهم
وعمل الشعر وهو رفيه

تقرب من صاحب أشبيلية ، ولما كان ابن هاني ميلا الى
الفلسفة شغوا بدراستها ، وكان الأندلسيون يهتمون كل من
اشتغل بها ، بالألحاد والكفر (ارجع الى ص ٩٢ و ٩٣) كرهه الناس ،

نرى باعيننا مصارعنا
لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرننا
أجفاننا والغائب الفكر
واذا تدبرنا جوارحننا
فأكلهن العين والنظر

واساءوا الظن بصاحب أشبيلية بسببه ، واتهموه بمذهبه ، فأشار
عليه بالرحيل الى مكان آخر ، ريثما يذسى امره ، فاستعصوب كلامه
وأم بلاد المغرب ، وهو في السابعة والعشرين من عمره ، ومدح
جوهر القائد ، واستقدمه المعز حين انتهى خبره ، اليه وبالغ في
الانعام عليه ، فاكثر من اشعاره في مدحه ، ولما انتقل المعز الى
مصر ، تجهز ابن هانيء للحاق به ، فلما وصل برقة مات فيها ،
وقد اختلفت الروايات في سبب موته ، واشهرها ، أن شخصا
من أهلها أضافه ، فخرج ذات ليلة من داره وهو سكران ، فنام
في الطريق حيث وجدوه في اليوم التالي ميتا ، وقد حزن المعز
حين بلغه ذلك وقال جملة المشهورة : « هذا رجل كنا نود أن
تخاربه شعراء المشرق ، فلم يتح لنا ذلك »

ومما يسترعي النظر أن ابن هانيء مات سنة ٢٦٣ أي في السنة
التي ولد فيها أبو العلاء المعري

لو كان للآلِباب ممتحن
ما عد منها السمع والبصر
أي الحياة ألد عيشتها
موت بعد على اننى بشر
خرست لعمر الله ألسنتنا
لما تكلم فوقنا القدر

هل ينفعنى عز ذى يمن
وحجولها، واليمن والغر
ومقالى الحمود شارده
ولسانى الصمصامة الذكر
ها أنها كأس بشعت بها
لا ملجأ منها ولا وزر
أفترك الأيام تفعل ما
شئت ولا أسطو فتعصر؟
هلا بأيدينا أسنتنا
فى حين نغذوها فتشتجر؟

فانبذ وشيخا وارم ذا شطب
لا البيض ناقة ولا السم
دنيا تجتمعنا ، وأنفسنا
شكر على أحكامها مذر
لو لم تربنا ناب حادها
انا نراها كيف تأتمر
ما الدهر الا ما نحاذره
هفواته وهناته الكبير

وفيها يقول :

أقسمت لا يبقى صباح غد
متبلج وأحم معتكر
تفنى النجوم الزهر طالعة
والنيران الشمس والقمر
والئن تبدت من مطالعها
منظومة فلسوف تنتثر
والئن سري الفلك المدار بها
فلسوف يسلمها وتنفطر

وفيهما يقول :

واذا صحبت العيش أوله

صفوا ، فهين بعده الكدر

واذا انتهيت الى مدى أمل

دركا ، فيوم واحد عمر

ولخير عيش أنت لابسه

عيس حتى ثمراته الكبر

واكل حلبة ساق أمد

واكل نهلة وارد صدر

وجدد تعمیر المعمر أن

يسمو صعودا ثم ينحدر

ونسيف يبلى وهو صاعمة

وتنال منه الهام والتقصير

والمرء كاظم المديد ضحى

ولمىء يحسره فينحسر -

ثم يقول فى ختامها :

غرض ترامى فى الخطوب ، فذا

قوس ، وذا سهم ، وذا وتر

فجزعت ، حتى ليس بي جزع
وحذرت ، حتى ليس بي حذر (١)

* *

وقال في النسيب :

امسحوا عن ناظري كحل السهاد
وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا مني ما أعطيتم
لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محبا من هوى ؟
أو تفكون أسيرا من صفاد ؟
أسلوا عنكم من هجركم
فلما يسلو عن الماء الصوادي !

(١) هذا ما اخترناه من قصيدته الفلسفية التي قالها في رثاء والده

يحيى وجعفر بن علي ، ومن رأينا أنها قد نمت الى اعلى قمة وصلت
اليها بلاغة ابن هاني ، ويمكن القول بأنها أروع قصيدة رأيناها له

انما كانت خطوب قبضت
فعدتنا عنكم احدى العواد
فعلي الايام من بعدكم
ما على الظلماء من لبس الحداد
لا مزار منكم يدنو سوى
أن ارى أعلام هضب أو نجاد
ومنها :

قل تنويل خيال منكم
يطي بين جفون وسهاد
ومنها :

لم يزدنا القرب الا هجرة
فرضينا بالثبات والبعاد
واذا شاء زمان رابنا
برقيب أو حسود أو معاد

وقال يصف أكله:

يأليت شعري ، إذا أومى الى فيه

أحلفه لهوات أم ميادين ؟

كأنها - وخبيث الزاد يضرهما -

جهنم ، قدفت فيها الشياطين

تبارك الله ما أمضى أسننته .

كأنما كل فلك منه طاحون !

كأن بيت سلاح فيه مخزن

مما أعدته للرسل المراعين !

أين الاسنة أم أين الصوارم أم

أين الخناجر أم أين السكاكين

كأنما الحمل المشوى في يده

ذو النون في الماء لا عضه النون

إن الجداء بأيديها وأرجلها

كأنما اقترمتين المراحين

وغادر البطل من مثني وواحدة

ننما اختطفتهين الشواهين

يخفّض الرز من قرن الى قدم
 وللبلاعيم تطريب وتلحين
 كأننا كاهن دكن من طبائعه
 نار، وفي كل عضو منه كنون !
 كأننا في الحشا من خيل معدته
 قرنفل وجواريش وكمون
 قوموا بنا فلتدريعت خواطرنا
 وجاذبتنا أعنتها البراذين
 صحتكم . نخذوا من شدة وزرا
 أولا، فأنتم سويق فيه مطحون^(١)

(١) هذه قصيدة جميلة تتمثل منها صورة مضحكة لشعره
 ذلك الا كول ، ولكنهم - على جهلها - لم تسم الى شعر الفحول
 أمثال المنبى وابن الرومي ، والى القارىء مقال الثاني في هذا
 معنى ، أيتمين منه بنفسه ، الشرق بن شعر "مجنون" وغيرهم :
 وأما يد البصري في كل صفحة
 فأقلع من سيل واغرف من رفش
 بغير على مال الوزير وأهله
 فيفش في رغبته أئما تفش

وقوله في وصف الخيل :

وصواهل، لا الهضب يوم مغارها

هضب، ولا البيد الحزون حزون

عرفت بساعة سبقها، لا أنها

علقت بها يوم الرهات عيون

وأجل علم البرق فيها أنها

مرت بجانتية وهي ظنون (١)

على أنه ينمي الى كل صاحب

ضروساً له تأتي على الثور والكباش

ينجر عنها أن فيها تشدا

وذلكم أدهي، وأوكد للجرش

ألم تعلموا أن الرحي، عند تقرها

وتجريشها، تأتي على الصلب والهش؟

(١) انظر الى المغلاة القبيحة في هذا البيت، ثم قسه الى

بيت أبي الملاء المعري في وصف سرعة الخيل من غير أن ياجأ

الى المحال، في قوله من قصيدة أنشأها في صباه :

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا

وقال يمدح المعز
تقول بنو العباس « هل فتحت مصر »
فقل لبني العباس : « قد قضي الامر » ،
وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تطأ لمة البشرى ، ويقدمه النصر (١)
ومنها وهو نهاية الملق وصغار النفس :
امام رأيت الدين مرتبطا به
قطاعه فوز ، وعصيانه خسر
أرى مدحه كالمدهح لله إنه
قنوت وتسبيح يحط به الوزر
الى أن يقول :
رأى أن سيسمى مالك الارض كلها
فلما رآه قال : « ذا الصمد الوتر » ،

(١) في هذين البيتين تهب علينا نفحة من نفحات المتنبي
رغم ما شعر به من السخط لما في الايات الاخرى من المغالاة
والملق

وفيها يقول :

وما ضر مصر حين ألفت قيادها

إليك ، امد النيل أم غاله جزر

* * *

غدا جوهر فيها غمامة رحمة

يقي جانبها كل جانبة تعرو

كأنى به قد سار في القوم سيرة

تود لها بغداد لو أنها مصر

ستحسدها فيها المشارق ، انه

سواء اذا ما حل في الارض والقطر

الى أن يقول مخاطباً المعز :

وأوصيته فيهم برفئك ، مردفا

بجودك ، موقوداً به عهدك البر

وصاة كما أوصى بها الله رسله

ونيس باذن أنت مسمعها وقر

ويقول :

رضينا لكم يا أهل مصر بدولة
أطاع لنا في ظلها الأمن والوفر
لكم أسوة فينا قديما ، فلم يكن
بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر

* * *

حتى يقول :

فيا ملكا - هدى الملائك هديه -
ولكن نجر الانبياء له نجر
ويا رازقا من كفه نشأ الحيا
والا فمن أسرارها نبع البحر
الا انما الايام أيامك التي
لك الشطر من نعمائها ، ولنا الشطر
لك المجد منها ، يا لك الخير والعلی
وتبقى لنا منها الحلوة والدر

ويقول في ختامها وهو نهاية الاحالة :

فلو سمع التشويب من كان دمة

وفاتا ، ولي الصوت من ضمه قبر

لناديت من قد فوز ، احي بدولة

تقام لها الموتي ويرتجع العمر ! ،

ونختار له في المدح قوله أيضا :

أبني العوالي السهرية والسيو

ف المشرفة والعديد الاكثر

من منكم الملك المطاع كأنه

تحت السوابغ تبع في حمير

القائد الخيل العتاق شوازيا

خزرا الى لحظ السنان الأخزور

شعث النواصي حشرة آذانها

قب الأباطل ، دانيات الأنسر

تنبو سنا بكنهن عن عفر الثرى

فيطان في خد العزيز الأصغر

وفيها يقول :

قوم يبيت على الحشايا غيرم
وميتهم فوق الجياد الضمر
وتظل تسبح في الدماء قبايهم
فكانهن سفائن في البحر
فياضهم من كل مهجة خالع
وخيامهم من كل لبدة قسور
حى من الاعراب الا أنهم
يردون ماء الامن غير مكدر
وأصدق ما نصف به هذه القصيدة أنها تقليد محكم
لشعر المتنبي !

مختار شعر المتنبي^(١)

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا

(١) أبو الطيب المتنبي

٣٠٣ سنة ٣٥٤ هـ

أحمد بن الحسين، لقبه المتنبي، كنيته أبو الطيب، ولادته بالكوفة وكان أبوه سقاء

نشأ أبو الطيب محبا للعلم والادب قوى الحافظة، فلما قرع رحله أبوه الشام ينتقل به من باديتها الى حاضرتها، واستمر في تلقي العلم فأتقن اللغة وتعمق في معرفة حوشيتها. وحفظ الكثير من شعر الجاهلية وغيرهم.

نشأ بعيد الهمة، كبير النفس فلم يقنع بالشهرة الأدبية بل طمحت نفسه الى السيادة بالفتح ! فدعا الى بيعته قوما من مريديه من أبناء سنه فبايعوه، ولما كاد يتم له ذلك، وصل خبره الى وائى البلدة فقبض عليه وحبسه، ثم أطلقه الوائى بعد حين.

فيقال انه خرج الى بنى كلب، وأقام فيهم وادعى أنه ملوى، ثم ادعى النبوة - وفي هذا كلام كثير ربما عدنا الى مناقشته في غير هذا الكتاب !

قالوا : « ولما شاع أمره بين الناس خرج عليه لؤاؤ، أمير حمص

وتولوا بنصبة كلهم من ٥ وان سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع ليالي ٥ وليكن تكدر الاحسانا
وكانا لم يرض فينا بريب الله ٥ هر حتى أعانه من أعانا

من قبل الاخشيدية ، فقاتله وأسر من كان معه من بنى كلب
وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه في السجن دهرأ طويلا ، حتى كاد
يتلف ، فسئل في أمره ، فاستنابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد
فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام ، وأطلته . فكان
المتنبي كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك حارل التنصل من تبعته «



ثم اشتهر بالشعر ، فتسابق الملوك الى استمدائه بالجوائز ومنهم
سيف الدولة بن حمدان فقدم عليه المتنبي سنة ٣٣٧ هـ ، ومدحه
بكثير من غرر قصائده ، ثم وقع بين المتنبي وابن خالويه النحوي
المشهور قول في مجلس سيف الدولة فوثب الى المتنبي فضرب
وجهه بمفتاح كان معه فشججه ، ولم يدافع سيف الدولة عنه .
فغضب المتنبي . ورحل الى مصر . وتغرب ٥ وبني حمدان
كافور الاخشيدى سنة ٣٤٦ هـ وامتدحه انتقاما من سيف الدولة
فأكرمه كافور ، ثم ارتاب فيه لما رأى من كبره وتعاليه ، وقال :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أحقر من أن نتعادي فيه وإن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالخات، ولا يلقى الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جيانا
كل ما لم يكن من الصعب في الأند نفس سهل فيه إذا هو كانا

* * *

ومن أبدع آياته الفلسفية قوله:

دل من يغبط الدليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللثام
من يهن سهل الهوان عليه ما لجرح بنيت إيلام !

« يقوم من ادعى البوة بعد محمد (صلعم) ألا يدمى الملك مع
كافور »

وأم وأطيب بغداد، ثم فارس، حيث امتدح ضد الدولة
ابن بويه نديمي . وأحزل عطاءه ، وعاد من فارس قاصدا بغداد
حيث قتل في طريقه

وقوله من قصيدة رائعة :
ولقد رأيت الحادثات ، فلا أرى
يتقما يئيت ، ولا سوادا يعصم^(١)

وفيها يقول
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
واخو الجهالة في الشقاوة ينعم
والناس قد نبدوا الحفاظ ، فمطابق
ينسى الذي يولى ، وعاف يندم

ويقول :
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبه الدم
ويقول :

والظلم من شيم النفوس ، فان تجد
ذا عفة ، فلعله لا يظلم !

(١) معنى البيت « لا أرى الشيب سببا للموت ، ولا النيب

واقيا منه »

ما زلت تدفع كل أمر فادح
حتى أتى الأمر الذي لا يدفع
فظللت تنظر، لا رماحك شرع
فياءراك، ولا سيوفك قطع؟
ثم يقول :

وصلت إليك يد، سواء عندها
الباز الاشهب، والغراب الأبقع

ومن أروع ما تختاره له في الغزل قوله :
لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقي
وللحب مالم يبق منى وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى
مجال لدمع المفلة المترق
وأحلى الهوى ماشك في الوصل ربه
وفي الهجر، فهو الدهر يرجو ويتقي؟

ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهم
بمثن بكل القتل من كل مشفق
عشية يعدونا عن النظر البكا
وعن لذة التوديع خوف التفرق
وقوله في قصيدة أخرى :

عزيز أسي من داؤه الحديق النجل
عباء ، به مات المبيرن من قبل
فمن شاء فليتنظر الى ، فمنظري
نذير الى من ظن أن الهوى سهل
وما هي الا لحظة بعد لحظة
اذا نزلت في قلبه رحل العقل
جري جبهها مجري دمي في مفاصلي
فأصبح لي عن كل شغل به شغل

*
* *

ومن أصدق ما تتمثل به نفسه الطموحة الى الحكم
والسيطرة قوله من قصيدة له :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر
فالاّن اقدم حتى لات مقتحم
لا تركت وجوه الخيل عابسة
والحرب اقوم من ساق على قدم
بكل منصلت مازال منتظري
حتى أدات له من دولة الخدم
*
* *

وقوله من قصيدة أخرى
تمست بالآفات حتى تركتها
تقول: «أما المريت أم ذعر لذعر؟»
وأقدمت اقدام الاتى كأن لى
سوى مهجتي ؛ أو كان لى عندها وتر
ذر النفس تأخذ وسمها قبل بينها
فمترق جاران دارها العمر
ولا تحسبن المجد زقاوقينه
فما المجد الا السيف والفنكة البكر

وتضرب أعناق الملوك ، وأن ترى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا ، كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر
وفيها يقول

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر ؛ فالذى فعل الفقر

*
* *

وقوله من قصيدة طويلة :
يا ساقبي ! أثمر في كيؤوسكا
أم في كيؤوسكا هم وتسهب
أصخرة انا ؛ مالى لا تغيرني
هذى المدام ، ولا هذى الاغاريد
ماذا لقيت من الدنيا ، واعجبها
أنى بما أنا بك منه محسود

وقوله من قصيدة أخرى:
بما أضر بأهل العشق أنهم
هووا، وما عرفوا الدنيا، وما فطنوا
تفني عيونهم دمعاً وأنفسهم
في إثر كل قبيح وجهه حسن
وقوله من قصيدة أخرى
أني أصاحب حلمي . وهو بي كرم
ولا أصاحب حلمي ، وهو بي جبن

* *

ومما نختاره له قوله يمدح سيف الدولة من قصيدة
على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم
وفي هذه القصيدة لرائعة يقول
فلله وقت ذوب الغش ناره
فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

الى أن يقول

وقفت وما في الموت شك لواقف

كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كللى هزيمة

ووجهك وضاح ، وتغرك باسم

ثم يقول

ضمت جناحيهم على ضمة

نمت الخوافى تحتها والقوادم

وقوله من قصيدة أخرى

لا يدرك المجد الا سيد فطن

لما يشق على السادات فعال

لا وارث جهلت يمناه ما وهبت

ولا كسوب بغير السيف ساك

الى أن يقول :

كأن نفسك لا ترضاك صاحبها

إلا وأنت على المفضل مفضل

ولا تمدك صوانا لمهجتها
الا وأنت لها في الروح بذال
لو لا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

* *

نكتفى بهذا القدر من شعر المتنبي وابن هانيء الاندلسي
ونحيل من شاء التوسع الى ديوانيهما ، ونؤكده لحضراتكم
أننا قد تحررنا نهاية الدقة في الاختيار ، محاولين جهدنا أن
يخرج القارىء بعد قراءة هذه النخبة من شعرهما ، بصورة
قريبة الوضوح ان لم نقل تامة - يتمثل منها شاعريتهما
ويرى بنفسه في أى سماء من البلاغة يحاق كل منها

ولا مندوحة لنا عن القول بأن عثورنا على تلك الايات
الرائعة التي اخترناها من شعر ابن هانيء قد كبدنا كثيرا
من العناء ، لقلة الجيد من كلامه ، على حين لم يكلفنا اختيار
هذه الصفوة المتفردة بأسلوبها العالى ومعانيها الساحرة ،
من شعر المتنبي ، أكثر من القاء نظرة مطعنة في ديوانه الخالد

ولقد اخترنا لكم أمثلة من أروع شعر ابن هانيء ،
وأريناكم أعلى جو حلقت فيه بلاغته ، فهل ترون في كل
ما ذكرناه ، شعرا يمت بنسب الى قول المتنبي في نونيته
الساحرة :

وكاننا لم يرض فينا بريب لا دهر ، حتى أعانه من أعانا ؛
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا ؛
أم هل ترون في كل شعر ابن هانيء ، ما يمت بنسب
ما الى هذه النونية الساحرة ؛ كلا ؛ وشتان بينهما (١)

(١) من الحق ألا نكنم أعجابنا الشديد برائية ابن هانيء
التي ذكرناها له في ص (٢١٩) لاسيما قوله فيها

انا وفي آمال انفسنا طول ، وفي اعمارنا قصر
انرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الالباب نعتبر
وقوله :

أى الحياة ألد غيشتها من بعد على أنى بشر
وقوله ، وربما كان أروع ما قرأناه له :

خرست لعمر الله انفسنا لما تكلم فوقها القدر ؛
فقد كاد يسمو بهذه القصيدة الى مصاف الفحول ، حتى
لاحسنا في أكثر آياتها طائفة من أهمي خوالج الحياة ،

ان نظرة يلقبها الانسان على ديوانيهما لتبين له الفرق
العظيم بين قصيدة طويلة تقرأها لابن هانيء فلا يعجبك
منها الا بضعة أبيات قلائل واخرى للمتنبي لا تقل عنها
طولا قد لا يشذ عن اعجابك منها أكثر من هذا القدر

ومن يدري ؟ فربما لو طال عمر ابن هانيء واستمر في هذه
الطريق الفلسفية الحقة ، التي انتهجها في رائيته ، لكان لنا فيه
رأي آخر ، ولعددناه في مرتبة الفحول ، التي لم يسم اليها من
شعراء العربية الا افراد غاية في الندرة

ولندكر مثلاً ، يتبين منه القارىء - رغم ايجازه - ما قد نعنيه
بقولنا « مرتبة الفحول » التي سما اليها المتنبي وأضرابه القليلون
كالمعري والبحتري وغيرهما ، والتي قصر ابن هانيء عن شأوها .

قلنا ان ابن هانيء قد أبدع في قوله :

خرست لعمر الله اتقنا لما تكلم فوقنا الفـ
ولا نزل نكر أنه وبق الى اخراج صورة حية ، تتمثل
فيه جلال هذا المعنى وروعته . ولكنه لم يهـ بطور الاجابة بعد

ولو أن انسانا قرأ نونية المتنبي التي اخترناها له واكتفى
بقراءتها وحدها، وقرأ شعر ابن هانيء كله، ثم حكم بتفوق
الاول على الثاني لعذرنا - وان لم تقبل حكمه، لا تفرادها
بميزات لا تكاد تجتمع في سواها
ولكن ماذا يقول من يقدم على المقارنة بينهما وليست
هذه القصيدة الساحرة الا مثلاً واحداً من الامثلة العليا
الكثيرة التي أخرجها المتنبي للوجود!

فاذا شئت أن تري ما بعد مرتبة الاجادة، فانظر الى هذا
المعنى في صورته الخالدة حين تناوله شاعر المعرة، فطبعه بطابع
الخلود الذي امتاز به اكثر شعراءه، لتبين الفرق واضحا بين مرتبة
شاعر مجيد كابن هانيء الاندلسي، وشاعر فحل كأبي العلاء مثلاً،
فربما كدنا نلمس الفرق بين شعر الاجادة وشعر الخلود في قول
المعري:

تقفون . والافلاك المسخر دائب ونحركون فتضحك الاقدار
ولعل أوجز وأصدق ما نقوله في هذا البيت انه باغ حد
الاعجاز ! !

لنعد اذن الى الأسباب التي ذكرها مؤرخو الآداب^(١)
ليبرروا بها تلقيبهم ابن هانيء بالمتنبى علنا نعتز فيها على شيء يشايج
صدورنا ويقتنعنا بصواب ما ذهبوا اليه أو أرجحيته على الأقل
قال مؤرخو الآداب إن اوجه الشبه بين الرجلين
كثيرة ولكن أهمها ما يلي :

(١) نشأ كلاهما في الطبقات الوضيعة وترقى بمواهبه
وشعره الى درجات الخاصة

(٢) اغرق كلاهما في المدح الى حد مذموم

(١) فقد اتفق المؤرخون كلهم تقريبا على أن ابن هانيء
خير شعراء الاندلس ، بلامنازع ، كما اتفقوا كذلك على تلقيبه
بمتنبى الغرب ، وتعالى بعض للناس في تقديره فمدوه شاعرا فذا
وقالوا :

ان تكن فارساً فكن كعلی

أو تكن شاعراً ، فكن كابن هانی

كل من يدعى بما ليس فيه

كذبه شاهد الامتحان !

ولم نعتز الى الآن على رأى مؤرخ بناقض ذلك ، غير ما نذكره

في ختام هذا الفصل من رأى الممرى فيه

- (٣) جالس كلاهما الملوك وناظم الامراء
(٤) أجاد كلاهما وصف ما رأى اجادة نادرة
(٥) كانا معاصرين
(٦) مات كلاهما غيلة بيد عدو نذل دنيء وهو في كمال
العمر وتناهى القوة

وهي اوجه شبه كما ترونها مضحكة ، ولعل أغراها
بالضحك الوجهان الاخيران ، واست أدري ام لم يسترسلاوا
في اضافة أوجه شبه اخرى اليها ليزيدونا اقتناعا بصحة
ما ذهبوا اليه ، كأن يقولوا مثلا : وكلاهما رجل ، واكل منهما
عينان ، ثم يعددوا من أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينهما
اشتراكهما في الطول والقصر أو عدم اشتراكهما الخ
ليس في هذه الاوجه الا وجه واحد يمكن اعتباره
وجيها وهو الرابع الذي يقولون فيه ان كلاهما قوم أجاد
وصف ما رأى اجادة نادرة ، وهو قول يحتاج الى تحديد
ودقة ، ولا ينبغي أن يلتقى على عوامته ، على أنه نستطيع أن
نقول إنه بالاختصار غير صحيح في مجموعه ، نعم أجاد ابن

هانيء وصف بعض الاشياء التي رآها، ولكن مختاره
ورواعه. — رعم قلنا بالقياس الى حسنات المتنبي — لا تسمو
بحس ما الى الذروة التي حلفت فيها بلاغة المتنبي وعبقريته
الجبارة

وانما اجاد ابن هانيء وصف بعض الاشياء كما يجيد
أى شاعر آخر من أشباهه الكثيرين جدا — لا كما يجيد
شاعر قد لا تعرف العربية له مثيلا الا اثنين فقط هما
المعري وابن الرومي

نعم ثنية الى تلك الاسباب وتعم النظر فيها علنا
نعم فيم، سببا آخر نبربه هذا الخلط ! ربما كان ذلك هو
السبب لاون لذي ذكروا فيه أن كليهما نشأ في الطبقات
الوضيعة وترقى بموهبه وشعره الى درجات اخاصة، وهو
كأنه لا يخو من مضطحة أيضا، نعم ارتقى كلاهما بمواهبه
وشعره وع من أنس رتقوا كذلك من درجات العامة الى
مسة، بولك والامرء بمواهبه وشعرهم فهل يكون في
ذات ميرر متارتيه بهمتاني ؟

لقد يتساءل الانسان كيف وصلت شهرة ابن هانيء
الى حد أن قارنه الناس بالمتنبى وفضلوه على كل شعراء
الاندلس ان لم يكن جديراً بذلك؟ والجواب على هذه النقطة
من أيسر الامور ، فإن الشهرة وحدها ليست معياراً
للكفاءة ، وليست جدارة الانسان هي دائماً الوسيلة الى
شهرة وبعد صديقه ، بل هناك طرق شتى وظروف عديدة
تعينه على ذلك ، وعلى قدر استعداد الانسان لها ومعرفته
بانتهاز تلك الفرص وتبافته على الشهرة يكون نصيبه منها
وأنتم أفلا ترون من شهرة بعض معاصرينا من الشعراء
وغيرهم وبلوغها حداً كبيراً جداً مع تقصيرهم التام ، ما يقرب
إسكهم فهم السبب الذي قد يكون داعياً لشهرة ابن هانيء
وما قيمة الشهرة ؟ أليست أبوابها قاصرة على الجماهير
وهل للجماهير رأى في البلاغة ؟^(١)

(١) ليس للشهرة قيمة حقيقية ، إذ لم يكن صاحبها جديراً بها ، ولأنه
يضيق بنا المقام اذا شئنا الاقفاضة في الاستدلال على ذلك بالامثلة
العديدة المنجدة ، التي كثيراً ما نشاهد ما في روحاننا وغدواننا
من تحريك بعض الناس على الوصول الى الشهرة بكل اوسع ثل المنيعة

* *

اننا نظلم ابن هانيء ظلماً فاحشاً ونغبنه أشد الغبن اذا
وكثيراً ما ينجحون ، ولكنه في الغالب نجاح مؤقت ، لا يلبث
ان يفضح غشيه .

ومعاذ الله أن نعي ابن هانيء بشيء مما نقول ؛ وحاشانا أن
نقصده الى ذلك ، فان لابن هانيء في نظرنا - رغم تقصيره الشديد
عن بلوغ شأو المتنبي مكانة ادبية كبيرة ، تدهونا الى احترامه ،
بل والى الاعجاب به أحياناً .

* *

ولكننا لا نرى مع ذلك بأساً من انتهاز هذه المناسبة •
لاظهار قيمة الشهرة في نفسها حتى لا يتخذها بعض الناس وسيلة
من وسائل الاقناع ، والى الفارىء مثلاً من امثلة عديدة من
أساليب الشهرة - نسرقه كدليل صادق لا يدع مجالاً للشك ، ولا
يقبل التأويل - في دحض قيمتها :

أساليب الشهرة

شهرة أساليب كثيرة تتفرع تحتها أنواع ، أغلبها من صغائر
ولا بأس من ذكر واحد من ذلك المفرد ، هو رجل من رجال صناعة
الحل - مدة عريضة من الزمن ، فهم يعملون في « حرفة » رأت

قارناه بالمتنبى - بل أنى لأجرؤ فأقول ، اننى بعد مطالعة كل
مقالاه تقرىبا لم أتردد فى الحكم بأن مقارنة الاول بالثانى
بعد حتى فى مصاف الخطاطين العاديين ولما اعيتته الحيل ولم يجد
ثمة من سبيل الى الشهرة عن طريق الجدارة لما يتطلبه ذلك من
سلامة الطبع والعمل المتواصل - سلك طرقا اخرى للوصول الى
غرضه ويمكن تاختيص ما نعرفه منها فيما يلى :

اولا : التعلق باذيال كل من يمت بملاقة الى الصحف

ثانيا : كتابة أسماء الصحف والمجلات وحفرها على نفقته

ثالثة واهدائها الى اصحابها

ثالثا : الاسراع بالتعرف بكل اديب نابه وتعلقه اياه طمعا فى

أن يكتب له ذات يوم اسم كتاب يؤلفه أو صحيفة يصدرها

رابعا : اهداء كل من يعرف عنه القدرة على نظم الكلام -

كشيها باهمى ، أو هدية اخرى تتناسب مع ما يتوقعه من وراء

ذلك من الفائدة . ولقد أهدى بعضهم طورا ذهبية ثمنا مقدما

لمدائحهم فيه

خامسا : التألق فى منبسه والعناية بجمل هندامه مشاهرا لى

جوعة لأرئت

سادسا : كتابة الاعلانات عن نفسه بنفسه فى الصحف

والتيجاء الى نشره بكل وسيلة ، وترديد كاهتى الاستاذ والابفة

جريئة كبرى، ارتكبتها معاصروه أولاً، ثم قلدهم في ارتكابها
بعض المؤرخين وتابعهم عليها البعض الآخر بلا روية - كما
فيها حتى يحفظها الجمهور

سابعاً : اتخذ أئمة زعماء السيادة وأساطين الاجتماع وسيلة
الى الرفعة من شأنه وان شوه خطه الرديء جمال كلماتهم البديعة
ثامناً : ترديد كلمتي (الفن) و (الجمال) أمام افرار العامة
ونشر الدعاوى المريضة عن نفسه في كل مجلس، والخط من شأن
أساطين فن الخط الذين يترفعون عن أن يكونوا اساتذته، وكثرة
تنقصه اياهم وتبجحهم بأنهم عيال على (الفن) وانهم لا يفهمون
(الجمال) (والهائين في سوح الجمال) وعشاق (جمال الفن)
(وفن الجمل) !!

ولقد توصل بهذه الصفة - والحمد لله - الى أمنية -
ونجحت وسائله الخفية رغم أنف الخلق والفن - واشتهر اسمه
حينئذ ما بين العامة - وان احتقرته الخاصة - وساعده على ذلك ما يرى :
اولاً : كثرة المجاملات التي يتبعها أغاب أرباب الصحف
وعند من يتبعهم كثير من نشر الخقائق

ثانياً : انسحاب راس بالحالة السياسية وعدم انتفاات الكثيرين
منهم لمصائر المنرف للجهل

ثالثاً : ترفع حقر الخطاطين عن أن يتدنوا يوماً من الايام

اعتقد أن الحكم على ابن هانيء بأنه خير شعراء الأندلس
بلا منازع جريمة أخرى لا تعدلها الا جريمة المقارنة بينهما
الى انتقاده - لأن رجال هذه الطائفة كلهم لا يعترفون
بوجوده أصلاً

وها هو الآن يجرب دعاواه في الأدب ونحن نبشره بالنجاح
إذا سلك أشباه هذه الوسائل . ولا بأس من سرد فكاهة بسيطة
حدثني بها صديق لى عنه . وهى وحدها كافية في إظهار جنون
هذا المسكين بالشهرة وتهالكه عليها - وخلاصتها أنه تقدم ذات
يوم الى وظيفة خبير فى إحدى المحاكم ثم ثلاثة ممن يحترفون الخط
فاظهرت نتيجة لامتحان أنه الرابع (أى لاخير) - ثم ذ
فعل ! لم يكتب بهذه خيبة . ولم يشأ أن يتركه حتى هذه المصروفة
من غير أن يعكسها تمام ثم يستمتع بها ! فنشر بعد بضعة أيام فى
صحيفة (. .) ما يلى : (قسم صديقنا النابغة (. .) فى لامتحان
فى وظيفة خبير بالخطوط فكان الرابع فى قرنته . . . ونحن
لا يسمنا الا أن نهنته بذبوغة . . . !

حسبنا هذا القدر فى إظهار قيمة الشهرة ولو شئنا الاقضية
نخرجنا عن الموضوع الذى تصميناله . وربما فردت طرفة
الموضوع رسالة خاصة به نطبعها على حدة ونبين فيها أشباه هذا

لسنا متحاملين على ابن هانيء فليس يبتنا وبينه خصومة أدبية ، وليس نمت ما يحملنا على انتقاص أدبه أو تفضيل

الدعي واضرابه الكثيرين من المتهاكين على الشهرة « ولو أننا شئنا الأفاضة في سرد الامثلة الكثيرة للاستدلال على حقارة الشهرة ، وقلة غنائها ، واظهار الطرق الحقيرة والحيل السخيفة التي يسلكها عشاقها المفتونون بها ، لامتد بنا نفس الكلام وخرجنا عما قصدنا اليه ، فلنكتف باحالة القارئ الى ما كتبه النقاد الالماني ماكس نورداو في كتابه « الغرائب . I'araxes » عن المجاح ووسائله ، وقد خصه الاستاذ العقاد في مجلة الميزان ، فليرجع اليه من شاء .

على أننا لا نرى بأسا من اقتطاف الكلمة التالية من مقال طريف ، حلو الدابة ، كتبه صديقنا الأستاذ سيد افندي ابراهيم في العدد الثلاثين من صحيفة الرحاء ، تعليقا على ما كتبناه في ذلك وقد أيد فيه ما ذهبنا اليه ، وأورد بعض ملاحظات على مقالنا ، ونحن نشبها هنا ، مع الشكر ، لما فيها من الفكاهة والفائدة ، قال :

« ولا أكتم الاديب أنني ألومه أشد اللوم على تقصيره في إنهاء تلك الرسالة التي وعدنا بها في مقاله الممتع فان بلدنا مكتظ

سواه عليه بغير حق ، بل لسنا نأقن عليه بل هو في رأينا
من أساطين شعراء العربية (الكثيرين) . ولقد نجله وبكبر

بالادعاء الكثيرين الذين جنوا بالشهرة جنونا فلم يجدوا أى
غضاضة عليهم من التحايل على نيلها بكل وسيلة بالغة ما بلغت
زرايتها - من غيرحياء ولا خجل -

وليس من ارضاء الضمير ولا من الاخلاص في العمل ، أن
يتهاون الادباء بكشف حيل تلك الفئة القذرة التي تحميها قذراتها
عن أن يتناولها أحد بالنقد ، فنذهر هذه الفرصة للتدليس على
الجمهور الساذج - ونحن مع عرفاننا أن مجرد التفكير في هذه
الفئات شرف لهم أى شرف ، فانا لن نضن على هذا الآدمي -
رغم ذلك - بهذا الفخار الذي تصبو اليه نفسه الحقيرة ويبذل
في سبيله ألف حيلة

لقد أظهر لنا الأديب صورة بهلوانية مضحكة من ذلك
لمسوخ ولكنه - والحق يقال - تحري الصدق في كل كلاء قالها -

وهذا في رأي أول شرط أساسى يجب على الناقد اتباعه - ولئن

آخذت الكاتب بشيء ، فهو أنه ترك بعض ملاحظات هامة كنت
أرجو أن لا تفوته وأن لا يخلو منها مقاله الجميل - وقد يكون
تركها عمدا اما رغبة منه في الإيجاز واما لأنه استكثر عليه مقالة

مواهبه ، ولقد نهش لكثير من مختار شعره وتغنى به
ونطرب له ، ولقد نصفق لكلامه استحسانا ، كل ذلك

ضافية لحقارته ، واني أجل ملاحظاتي وأمرد بعض النقط التي
أغفلها فيما يأتي :

بدأ صديقي بقوله « أعرف رجلا ممن مارسوا صناعة
الخط » - واني استمع الصديق عذرا اذا لمته أشد اللوم على
هذا الخلط المشين الذي دل على جهله التام بصناعة الخط وعدم
صلاحيته مطلقا للحكم عليها

ولقد نجح ذلك الدمي في حيله اذا ظفر به - هذه التسمية من
الخاصة - فان غاية ما يقال عنه انه ممن مارسوا صناعة النقش ، والفرق
واضح بين الخط والنقش فيما اذن ! واني لا أضن عليه به - هذه
التسمية ولا استكثرها عليه كما يفعل سواي . ونعمة ملاحظة
أخرى أبدىها علي مقالة وهي أنه أغفل الكلام على صورته :

ولئن صح ما يقولونه من أن الوجه مرآة صادقة التعبير عن
دخيلة صاحبها . فان من ينظر الى سحنة ذلك النقاش يستطيع
بإدنى تأمل أن يلمح على سيماء أربع صفات تسترعي انتباهته لأول
وهلة وهي : الملق والغباء والصفافة والادعاء



ولقد صدق الشاعر العربي صالح ابن عبد القدوس حين قال

تفعله اذا ذكر اسمه على حده ، فاذا قسناه الى المتنبي أو قارناه
به ، تضاعفت أمامنا شاعريته وظهر بمظهر العاجز العمي ، ولم

ما يبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
فقد بذل ذلك للنقاش المتأنق جهودا كبيرة في التحايل على
نشر صورته في بعض الصحف والمجلات ولم يدرك انه بذلك قد
أظهر للملأ صورة دقيقة كنا نأسف على فقدانها وكان يجهدنا
النصب اذا حاولنا الحصول على مثل نستدل به على ما ذهبوا اليه
من أن الوجه مرآة صادقة لصاحبه — وأني يتاح للانسان أن يمر
على مثل هذه الصورة النفيسة التي نلمح فيها تلك الصفات الاربع
ناطقة شاهدة واضحة لكل ذي عينين

ولا جرم أن صفته التي لا تقف عند حد وتزلفه بلا حساب
لكل انسان ، قد تمكننا من نفسه — كما يشهد بذلك كل عارف به —
الى حد يحار الانسان في تحليله — وعلى هاتين الخطتين وحدهم
بنيت شهرته عند العامة . ولا بأس من سرد الفسحة ليلية نستبين
منها تلك الصفات الاربع التي ذكرناها جلية ، ونقدريء ذب روح
بها عن نفسه وله أن يستمتع منها ما شاء زيادة على ما استمتعنا به
ومرقدناه .

جاء ذات ليلة ووجهه يطفح بشرا وسرورا وقد ترنحت عطشه
بخمرة الزهو والفخر ، وما كاد يقترب من رفقة حتى قاص

انظروا كيف جعل من هذا المعنى قضية منطقية بديعة
ودعها يبرهان شعري ، غاية في الحسن ، فظهرت للناس
صورة تامة ، تأنس إليها النفس ، وتمش لها

* *

وهذه عادة أصيلة في المتنبي ، بل ميزة خص بها دون
الكثيرين من شعراء العربية ، فلا تكاد تقرأ له شعراً —
من غير أن تحس تلك الروعة وهذه الفخامة ، بل إن لشعره
طابعاً أنماز به ، بذلك عليه فلا تحتاج إلى السؤال عن قائله ،
ولا تردد في أن تنسبه إلى المتنبي ^(١)

* *

ولناقد أن يحاسبنا على ما رمينا به ابن هانيء من الملل
وصنعة النفس ، وزعمناه المتنبي من الكبر والمظمة النفسية

(١) وهذه من أكبر مميزات شعر الفحول ، فإن من الهين
أن يميز الإنسان بين شعر المتنبي والمعري والبحتري وابن الرومي
متى توافر على دراستهم ، لوضوح شخصياتهم جميعاً في أكثر
أشعارهم ، ولما يخطئ الإنسان في ذلك ، إذا اعتمد على ذوق
صحيح ، وطبع صادق ، ودراسة واسعة .

مع وفرة ما قاله في المديح المملوء بالمبالغة والتملق ، وربما
حسب بعض الناس أن المتنبي صنوا ابن هانيء من هذه
الوجهة ، وهو خطأ لا يسعنا للسكوت عليه ، وكلام باطل
أشبه ما يكون بالحق ، وقول يحتاج الى دقة وإناة

المتنبي كثير من أشعار المدح المملوء بالملق ، كما لابن
هانيء ، فقيم بتماز الاول على الثاني ؛ وأين تلك العظمة المزعومة ؟
تلك العظمة التي نزعها للمتنبي - أيها السادة - ظاهرة
حتى في هذا النوع من الشعر المملوء بالمبالغات السخيفة ،
متى أنعمنا النظر

ونوجز فنقول : وإن مدح المتنبي للملوك والامراء
يشعرك بأنه مدح ككفء لكفء ، فاذا تعلقهم فهو ند
يتماق أنداده ، بل ربما شعرت من مديحه - أحياناً - أنه رجل
أكبر منهم نفس . يشعر بتفوقه عليهم ، ولكنه يرى أدوات
رفقته وضيامة شأنه ، ووسائل تحقيق رغبته منحصرة في
إرضائهم في أول أمره . لئلا يتخذ منهم جسراً يبر عليه الى آماله
الكبيرة . وكثيراً ما من عليهم بشعره ، وأظهر لهم بصريح

العبارة ضالة ما يمنحونه من الهبات الوافرة بالقياس الى
 ما يكسوهم به من حلال الشعر الخالد
 أما مدائح ابن هاني فتشعر بك بأنه فرد عادي ، كان
 أقصى أمله ، أن يمدح الملوك ويتملقهم ، حاسبا ذلك غاية
 الشرف ، ونهاية الرفعة ، فلا غرو اذا رأيت متزلزا فنيت
 شخصيته فيهم ، ورأيت المتنبى شامخ الرأس ، دالا عليهم
 يمدحهم بما يمدح نفسه به ، ويرى نفسه بينهم ، ملكا غير
 متوج ، بين ملوك متوجين ،،



لنعد الى شعرهما الذي قال مؤرخو الآداب انها
 اشتركا في الكفر فيه فماذا نرى ؟
 نرى أن المتنبى لا يزال حتى في هذه المرة ذا خصائص
 نادرة .. كفر ابن هاني بسبب معنى تافه حقير كأن يمكن
 أدائه بأسلوب أجمل وأبدع من غير اخلال بالبحر أو
 القافية فقال :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
 وهو معنى بدانا على نهاية الملق وصغار النفس وضيق

العقل ، وما أكثر وقوع ابن هانيء في هذا الأذى (١)
وكفر المتنبي ، كما يقول رجال الدين ؛ ولكن لأي
معنى ؛ لمعنى جليل قد ينسى الناس جريمته وغرض تمثيل
فيه نفسه الوثابة التي حلقت في سماء العظمة اللانهائية ، فقال :
أي محل أرتقى أي عظيم أتقى ؟
وكل ما قد خلق إلا وما لم يخلق
محتقر في همي كشعرة في مفرقي !
وجماع القول أن المتنبي عظيم - وهو لو لم يكن شاعرا
عظيما لكان شيئا آخر ، ولكن متصفنا بصفة العظمة الملازمة
له ، وقد خلقه الله أي يكون عظيما فكان كما أراد الله أن يكون (٢)

(١) ارجع اني ص . (١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢)

(٢) بعد ان انتمينا من كتابة هذا الفصل عثرنا برأى
لفيلسوف الحكيم أبي العلاء المعري حين سئل عن المتنبي فقال .
« هو أشعر لمحدثين » ثم سئل عن ابن هانيء فقال « ما أراه إلا
كرحي تطحن قرونا »

وهو حكم صائب يؤيد ما ذهبنا اليه ولا يخيره أن يحسبه
بعض الناس صادرا عن هــري في نفس أبي العـلاء لتعصبه

مجلد بن عبد الرحمن^(١)

٢٣٨ - ٢٧٣

اشتهر بغزواته الكثيرة ، وكان يئنه وبين الفرنجة
والمجوس وغيرهم حروب طاحنة ، وقد وجه همه الى الفتح ،
وانتصر في وقائع عديدة ، وقهر المجوس وأخذ منهم كثيراً
من الغنائم بعد حرب عنيفة

وربما كان أهم ما حدث في زمنه هو حروبه مع الشقى

اللمتني ، فاق نظرة طويلة في ديوانيهما تشرك بصواب هذا الحكم
العدل وصدقه :

ونعل أعجب ما يدهشك من شعر ابن هانيء أنك تقرؤه ،
فتعجب من روعة أسلوبه ، وقوة تعبيره ، ومتانة حركه ، فاذا رجعت
الى منقشته ، وتفهم ما تحويه تلك الالفاظ الرنانة وجدت معنى
تدفها لا قيمة له ، أو معنى لم ينضج بعد ، أو معنى شائماً متكرراً ،
وربما وجدت بعض أبياتها المتينة الأسلوب غالباً من المعنى .

١ اولى ملك وعمره ثلاثون سنة تقريباً

الجرىء ابن حفصون ، الذى قوى أمره واستغنم شأنه
فى زمنه ، وقد استطاع محمد أن يخضعه مدة حكمه ، ولكنه
مات قبل أن يقضى على ابن حفصون

صفات

وقد وصفوا هذا الامير بأنه كان عادلا واسع الحلم ،
كريم الخلق حسن البديهة والروية ، عالما بالحساب ، وقيا
لمواليه فى أنفسهم وفى أعقابهم ، لا يسمع فيهم وشاية ، فأحبه
الناس وأخلصوا له
وقد دفعته شدة التمسك بدينه الى اضطهاد نصارى
قرطبة .

دخول المذهب الحنبلي في زمنه

وقام نزاع في أول حكمه بين فقهاء قرطبة وبقى بن مخلد^(١) الذى رحل من الأندلس الى المشرق حيث تلقى مذهب ابن حنبل - فلما رجع الى الأندلس بدأ يدرسه في جامع قرطبة، فثار عليه مدرسو المذهب المالكي، وأنكروا عليه ما فيه من الخلاف، واستبشعوه، وقام عليه جماعة من العامة ومنعوه من قراءته، ولما بلغت الأمير محمد شكاة خصومه، استجضرهم وإياهم وتصفح الكتاب الذى معه - وهو مصنف أبى بكر بن أبى شيبه في أصول المذهب الحنبلي - جزءا جزءا حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن كتبه: "هذا لا تستغنى عنه خزانتنا، فانظر فى نسخة لنا"، وقال لبقى: "انشر علمك واروما عندك"، ثم نهام عن أن يتعرضوا له

(١) ولد بقى فى سنة ٢٠١ ومات فى سنة ٢٧٦، ورحل من الأندلس الى المشرق حيث تلقى مذهب ابن حنبل على أشهر علمائه، ثم رجع الى الأندلس فبدأ يدرسه في جامع قرطبة

المنذر بن محل^(١)

٢٧٣ - ٢٧٥

مات الامير محمد في سنة ٢٧٣ فوليه ابنه المنذر ، وقد
تقم في الملك عامين قتل في السنة الاولى منها وزير أبيه ،
هشام بن عبدالعزير^(٢)

(١) ولد سنة ٢١٩ هـ ، وولى الملك وعمره أربع وأربعون
سنة

(٢) وقد قالوا ان أهل قرطبة كانوا يسمون فيه لدى المنذر ،
ويثولون كلامه للايقاع به ، لشدة حبه ووفائه للأمير محمد ،
حتى انهم تأولوا قوله ، في الامير محمد ، عند مواراته :

أعزى يا محمد عنك نفسي أمين الله ! ذا المني الجسم !
فملا مات قوم لم يموتوا ودفع عنك لي كأس اللحم ؟

فقالوا انه يعني المنذر بقوله : « قوم لم يموتوا »

ولم يزل يزداد سخط الامير عليه ، حتى أمر بحبسه ، ثم بعث
عليه من قتله في سجنه ، ونهب ماله وسجن أولاده
ومما كتبه هذا الوزير وهو في سجنه ، الي جاريته ، قوله :

وأشهر ما حدث له ، حربه مع ابن حفصون فقد
فتح جميع قلاع وحصونه ، ولما شدد عليه الحصار ، سأله
الصلح ، فأجاب وأفرج عنه ، فنكت ، فرجع الحصاره ،
ولكنه مات ، وهو يحاصر ابن حفصون

وإني عداقي أن أزورك ، مطبق
وباب منيع بالحديد مضرب
فإن تمحي يا عاج مما أصابني
فقي ريب هذا الدهر ما يتعجب
زكت رشاد الأمر إذ كنت قادرا
عليه ، فلاقيت الذي كنت أرهب
وكم قائل قال : « وانج وبحك سالما
فقي الأرض عنهم مستراد ومذهب ،
فقلت له : « ان الفرار مذلة
وتقسي على الأسواء أحلى وأطيب »
سأرضي بكم الله فيما ينوبني
وما من قضاء الله للمرء مهرب
فإن يك أمسي شامتا بي ، فإنه
سينهل في كأمي وشيكا ويشرب

عبد الله بن محل^(١)

٢٧٥ - ٣٠٠

ولى الملك عقب موت اخيه المنذر بن محمد . وكان عصره مملوءا بالاضطراب والفتن ، وكثر قيام الشوار في زمنه وتغلبوا على الكور والمدن . وامتنعوا عن اداء اخراج ، ولولا انقطاع القتال بينه وبين الفرنج والجلالة حينئذ ، لتقوضت اركان مملكته . فقد ارتبكت احوال الاندلس في زمنه ، ارتبكا شديدا ، وأصبحت مجالا لمنازعات القبائل الفاتحة وميدانا للفتن و"ششق بين الاسرة المالكة ، وقد ضاعف أحزانه ، ثورة ابنه محمد والى اشبيلية^(٢) من ناحية

(١) ولد سنة ٢٧٥ وولى الملك وعمره خمس واربعون سنة

(٢) قالوا : هو وكان السبب في ذلك هو أن لأمير عبد الله

والد محمد هذا ، اطلق سراح ابنى هاشم بن عبد العزيز . ثوير

الذى مر ذكره في ص (١٨١) واطلق سراح معلمها جابر بن مغيث

أحد مشاهير العلماء في ذلك العصر ، ورد اليهم أموالهم ، فكان

من ذلك ان أحبه أهل قرطبة ، وسخطت عليه أسرته ، ولا سيما

وشدة مناوأة ابن حفصون وتمرده عليه من ناحية أخرى ،
وقد انتهى أمر الاول منها بأن حاربته ابوه ، وأسرته ، وحبسـه
في قلعة اشبيلية ، حيث مات في سجنه ، وقد واصل عبد الله
كفاحه مع ابن حفصون ، كما واصل حروبه في محاربة غيره
من الثوار والفاتحين

أوصافه

كان جميل الصورة ، أزرق العينين ، معتدل القامة ،
فطنا ، عالم ، شجاعا

حزنه على امه

وماتت امه في سنة ٢٩٩ ، فحزن عليها أشد الحزن ،
وبنى لها قبرا نفيا ، وبني لنفسه قبرا آخر بجوارده ، وزهد في
الدنيا ، فجمع الامراء والوزراء والولاة ، وأوصى بولاية
عهد المملكة لحفيده عبد الرحمن ابن محمد ، اذ رأى القلوب
بجمعة عليه

ابنه محمد والى أشبيلية ، فنار عليه مع أخويه الاصمغ والقاسم
والى شريش وشذونة في جنوب الاندلس ، واذبح اليهم ولاية
آخرون .

أمثلة من نثره

— ١ —

مثال من محادثاته

اعتذر إليه يوماً بعض مواليه فقال له عبد الله :
« إن مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك ، وتنبئ
عن باطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت
لجرمك ، لكان أجمل بك وأسدل لستر العفو عليك ،
فقال :

« قد اشتمل الذنب على ، وحاق الخطأ بي ، وإنما أنا
بشر ، وما يقوم لي عذر ! ،
فأجابه عبد الله :

« مهلاً عليك ! رويدا بك ! تقدمت لك خدمة ،
وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل ، وقد وسعت
الغفران ! ،

مثال من كتابته

وكتب الى بعض عماله :

«أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتباك به، على حسب متوترك بالسكتب واشتغالك بذلك على مهم امرك، لكنت من أحسن رجالنا غناء، وأتمهم نظرا وأفضلهم حزما، فأقلل من الكتاب فيما لا وجه له، ولا نفع فيه، واصر ف همتك، وفكرتك، وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك ويظهر فيه غناؤك - از شاء الله !»

أمثلة من شعرة

— ١ —

مثال من غزل

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| يا مهجة المشتاق ما أوجعك | ويا أسير الحب ما أخشعك |
| ويا رسول المين من لحظها | بالرد والتبليغ ما أسرعك |
| تذهب بالسر فتأني به | في مجلس يخفى على من معه |
| كم حاجة أنجزت ابرازها | تبارك الرحمن ما اطوعك! |

— ٢ —

مثال آخر^(١)

| | |
|--------------------|-----------------------|
| ويحي على شادن كحيل | في مثله يخلع العذار |
| كأنما وجنتاه ورد | خالطه النور والبهار |
| قضيب بان اذا تثني | يدير طرفا به احورار |
| فصفو ودي عليه وقف | ما اطرد الليل والنهار |

(١) قوله في صباه

— ٢ —

مثال من زهد

| | |
|---------------------|---------------------|
| يا من يراوعه الأجل | حتام يلهميك الأمل ! |
| حاتم لا تخشى الردى | وكانه بك قد نزل ! |
| أغفلت عن طلب النجاة | ولا نجاة لمن غفل ! |
| هيهات يشغلك المني | ولا يدوم لك الشغل ! |

— ٤ —

مثال آخر

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| أرى الدنيا تصير الى فناء | وما فيها شيء من بقاء |
| فبادر بالانابة غير وان | على شيء يصير الى فناء |
| كانك قد حملت على سرير | وغيب حسن وجهك في الثراء |
| فنافس في التقى واجنح اليه | لعلك ترضين رب السماء |

﴿ اختراع الموشحات ﴾

في زمن هذا الأمير اخترع الموشحات مقدم بن
معافر الغريري ؛ وسنتناول الكلام عنها بعد قليل

عبد الرحمن النشأ^(١)

٣٠٠ - ٣٥٠ هـ

و في سنة ٩١٢ م . خلف أمير المؤمنين عبد الرحمن
الناصر ، جدّه الأمير عبد الله . على عرش قرطبة ، وإن
صفاته وذكاءه وحكمته في سوس ممالكه العظيمة لتتجلى
في القطعة التالية التي خطها قلم المؤرخ الأديب « دوزي »
الذي سيظل كتابه عمدة الباحث ، وإن ألفه منذ خمسين عاما

* *

« ينفرد عبد الرحمن الثالث بأنه كان الأول ، بلامنازع
من بين الملوك الأمويين الذين حكموا إسبانيا ، وإن ما أتمه
وحده ، أيكاد يكون معجزة ، فقد وجد الأمير اضورية
سائرة إلى طريق «فوضى والحروب الداخلية ، ورأى الفتن
والاحزاب السياسية قد انهكتها ، وألفاها مقتسمة بين

(١) معرفة عن الفصل التاسع من كتاب تاريخ داب العرب

للاستاذ نيكاسون

كثير من الامراء المتبايني الأجناس ، وراها معرضة
لإغارات مسيحي الشمال التي لا تنقطع ، كما رأى أنها على
وشك أن يلتهمها أحد اثنين ، هما الليونيون والافارقة ،
فأخذ اسبانيا - بالرغم من العقبات التي لا تحصى - منها
جميعا ، ونجهاها من الخراب الداخلي وصدد عنها الغارات
الخارجية وبعث فيها روحا جديدة ، وجعلها أقوى مما كانت
عليه في أى وقت مرت به ، ونظمها وأسد حال أهلها
وجعلها محترمة في الخارج

وكان بيت المال في حال يرقى لها ، فامتلا في عهده ،
وقد خصص من ايراد مملكته السنوى الذى بلغ ٢١٥٠٠٠٠٠
جنيها . ثلثا كان يصرفه في النفقات العادية ، وثلثا احتياطيا
يدخره ، وثلثا ينفقه على مبادئه (١)

وقد قدر ما في خزائن بيت ماله في سنة ١٥١٠م . بمبلغ
عظيم بلغ (٢٠٠٠٠٠٠٠) جنيه وهو ما يجعلنا نتق بأن
ما قاله أحد السائحين من ان عبيد الرحمن هذا والحمدانى

(١) وهذا سهل لكم ادراك السر في تقدم فن العمارة

الذى وصل في عصره الى حد يدعو للدهشة كما سنبينه

(ناصر الدولة) الذي كان حينئذ حاكما كافي بلاد الجزيرة (بين
النهرين) كانا أغنى معاصريهما - لم يكن جزافا، وأنه لم
يقبل ذلك لعدم تقديره للمسائل المالية أو جهله بها - وقد
كانت سعادة المملكة متوقفة على سعادة بيت المال، ومن
ثم نجحت الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم -
وان قرطبة التي فيها نصف مليون نسمة وثلاثة آلاف مسجد -
والتي فيها القصور الفخمة والتي بها ١١٣ ألف منزل و ٣٠٠
ماخورة وثمان وعشرون ضاحية لم يكن ليفوقها في سعتها
وعظمتها وابهتها الا بغداد وحدها، ذلك البلد الذي طالما
شغف القرطبيون بمقارنتها به، ولقد كانت قوة عبدالرحمن
عظيمة - فقد كان يناصره اسطول كبير في منازعاته مع
الفاطميين دولة للبحر الابيض وقد غنم سبته مفتاح مورتيا نيا
ثم إن جيشه الكبير الذي كان على اتم نظام والذي
ربما كان احسن جيش في العالم - قد جعله يتفوق على المسيحيين
قاطني الشمال - وقد رغب في محالفته حتى اشد الحكام صلفا
فلقد ارسل امبراطور القسطنطينية وملك الالمان وايطاليا

وفرنسا سفراءهم اليه (١)

ويقيني ان تلك نتائج باهرة - واماكن دهشتنا واعجابنا
بهذا العمل اذ ندرس ذلك العصر الذهبي لا يبلغان الحد الذي
يصلان اليه ، بنفس الرجل الذي قام بهذا العمل واكتنفا
العبقرية والذكاء الواسع الذي لا تند عنه شاردة هما الاذان
يجعلنا لا يقل اعجابنا برأيه في ادق التفاصيل عنه في
اعوص المسائل وأعضائها

وان ذلك الداهية الالهي الذي جمع الكلمة ووحيد
الملكية والذي اوجد بحالفاته نوعا من التوازن والذي
استطاع بأناته وحلمه الواسع أن يضم الى مجلسه السيادي
اساندة الاقاليم الاخرى هو اقرب الى ان يكون ملكا
حديثا منه الى ان يكون ملكا من ملوك القرون الوسطى

وموجز القول ان عبد الرحمن الثالث جعل مسلمي
الاندلس أمة واحدة وكون من العرب والاسبان أمة
اندلسية متضافرة

تلك الامة التي تقدمت بسرعة لا يصدقها العقل كما

(١) سير بك شيء من ذلك بعد قليل .

سترونها الآن۔ الى مستوى تهذيبى عال، جعل اوروباً تحسدها عليه، ووصل بها الى حد لم تضارعهامعه اية مملكة من ممالك الشرق الاسلامية۔ ومهما يكن من شيء فقد بدأ سقوط الأسرة الاموية بعد مائة . ۱ . هـ،،



ونحن لا نمالك أنفسنا من الاعجاب بهذا الوصف الشائق الذى اتحفنا به العلامة دوزى . وليس يسعنا كما أنه لا يسمع أى منصف الا موافقته على كل ما جاء فيه واعتماده فان ذلك الوصف وان يكن يبدو فيه لمن ينقى عليه النظرة الاولى أو يقرؤه لأول وهلة، شىء من تحيز دوزى لعبد الرحمن الناصر۔ الا أنه مع ذلك يصف حق، خال من الاغراق والهوى ولا يثبت المنصف صدق أن يعرفه غايته ويستند صدق ما جاء فيه، واثق أن عبد الرحمن الناصر لم يكن منكم جديراً بالاحجاب فحسب، بل كان زينة عبي شت رجلاً جديراً بخلود ذكره۔ والله اعلم بالبحث اذا حاولنا أن نعثر بمثاله القائلين فى التاريخ، فن أمثاله من الملوك لا يشرفون

العالم الالماما ولا يظفر بهم التاريخ الا نادرا - نعم وايسوا
ممن يوجدون في كل قرن (١)

(١) ونحن يا سادة حين ندرس أمثال عبد الرحمن الداخل أو
عبد الرحمن الناصر ونرى ما قام به كل منهما من جليل الاعمال
نستطيع أن ندرك بسهولة ، الباعث الأول والمؤثرات الحقيقية
التي كان لها أكبر الأثر في الأدب الاندلسي
فان من لا يفهم تماما أن عبد الرحمن الثالث مثلاً قد جعل
مسلمى الاندلس امة واحدة ، وكون من العرب والاسبان امة
اندلسية متضافرة كما مر - وان من لا يعلم أن الزراعة والصناعة
قد نجحت وان الامن استتب وان غذاء الدولة قد وصل في مدته
الى درجة لا تسامى - لن يفهم سر الروح الادبية التي مرت في
الامة حينئذ ، وليس من يجهل أمثال هذه التصورات التي تحيا بها
الاعظم ، والتي لولاها لبادت ولما كان لها شأن يذكر في عالم التاريخ ،
بحقيق أن يفهم لدرجة اتى وصلت اليها بلاغتها ولا يجدير أن
يدرك الاسباب التي وصلت بها الى تلك الدرجة - ولن يكون
شأنه لا كشأن الكثيرين عندنا ممن يحسبون دراسة بلاغة امة
مما لا يتخطى حفظ بضع طرف وأشعار بديمة وعدة نماذج قيمة
فهم لا يعرفون ، في تاريخ الادب الاندلسي مثلاً ، أكثر من أن
بن زيد بن كان شعراً فحداً ، وانه كان يحب ولادة وراسلها وراسله

*
* *

ولكن كم يتفجع الانسان ويتحسر وتتحول غبطته
وسروره بهذا العصر الذهبي الى أسمى عميق وحزن يذهله

وان من خير قصائده نونته المشهورة الخ الخ
ثم يعرفون بعد ذلك بضع أشعار متفرقة لبضع شعراء
متفرقين دون أن يعرفوا في أي عصر نشأ شاعرهم ولا المؤثرات
التي أثرت في شعره ولا اثر شعره في الحالة العامة وأثر الحالة
العامة في شعره ، وارتباط ذلك كله بالحالة السياسية وارتباط
الحالة السياسية به

وهل يكتفى من يود دراسة بلاغة امة ما ؛ بعدة محفوظات
متفرقة غير مرتبط بعضها ببعض ، ولا مقيد بزمان ولا مكان ؟
وهل نستطيع ان أقول في علم البلاغة الاندلسية لاني أحفظ
ترجم ست شعراء ونحو عشرين قصيدة لهم ؟ وهل يكفينا أن
نعرف في مثل هذه المحاضرات قول ابن زيدون :

يا لها لمضفك ووزمن كأن صبغت نصارته برد صباك

والليل - مهطأ - قعر طوله هاتي - وقد غفل الرقيب - وهك

حتى ذا بغنا قوله :

يا ليتني أصبحت بعض منته

عن نفسه حين يقرأ هذه الجملة التي ختم بها نيكلسون كلامه
الذي علق به على كلام دوزي وهي قوله "وهما يكن من

يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم ، أكاد به اقبل فك
صفقنا استحسناله ، وسحرنا اهتداؤه الى هذا المعنى الباهر
الذي يمثل تلك الصورة الحقيقية ويشرح حال العاشق الصادق
في عشقه بهذه الدقة النادرة ، في قوله :

يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم اكاد به اقبل فك
نعم يا سادة : انها أبيات رائعة فلما نعثر على شبيهاها في الشعر
العربي ، وليس من شك في أنها من اعلى امثلة البلاغة الحقة ، ولكنها
مع ذلك ليست وحدها كل المقصود من دراسة البلاغة وتاريخها

* * *

وانى عني يقين من ان من لا يدرس التاريخ العام دراسة
مفصلة لن يستطيع ان يحكم بنفسه حكما صادقا على بلاغة امه ما
وان تكون دراسته الا كدراسة مدارس البلاغة ، اذ يكتفي
الطالب فيها بالامام بطائفة من اصماء الشعراء والادباء ، وخاتمة من مختار
أقر لهم وعدة احكام لا رأى له فيها مطلقا ، لقدمها له استاذة تدقينا
ودها اليه امانة لم تنقص ولم تزد ، كما قلها عن استاذة هو الآخر
بديرة - وهي طريقة يجب محاربتها بكل وسيلة - عني انى لا ارى
وجوب دراسة التاريخ العام فحسب ، للوصول به الى تفهم

شيء ، فقد بدأ سقوط الاسرة الاموية بعد مماته ،
يحزننا ذلك لانها جملة تعودنا أن نسمع أشباهها من

البلاغة على حقيقتها، بل ازيد على ذلك وجوب دراسة علم تقويم
البلدان، لاسيما للاقليم الذي نشأت فيه تلك الآداب ونمت، مع
العناية التامة بتفهم أثر المناخ وأثر موقع البلد الى آخر تلك الاسباب
التي تباين بين الامزجة والطبائع - ولخير الانسان ان يلم بعصر
واحد من العصور المما مجديا، من ان يكون راوية لتراجم ألف شاعر
لا يعلم ارتباطهم بالتاريخ العام، وارتباط التاريخ العام بهم، واثروهم
في الحضارة، واثار الحضارة فيهم - بل اني لاجرؤ فأقول: ان خيرا
للانسان ان لا يدرس آدابا قط من ان يدرسها بالطريقة المضطربة
التي سلكها كثير ممن كتبوا في تاريخ الأدب عندنا - اللهم الا اذا
كان الغرض من دراسته هو الافحصار على دراسة بضع منتخبات
ونماذج من البلاغة لتقوية الملاحظات اللغوية وتهذيب الذوق
لأدبي فحسب - وإنما رددنا هذه الملاحظة مرة أخرى لانا على
يقين من ان الكثيرين منا لا يزنون يعتقدون ان دراسة تاريخ
البلاغة معناه لا كتناء بذكر ترجمة مشاهير الشعراء والاقتصار
على نخبة من شعارهم - وهم في ذلك يرون ان من الامر ف
ان يتوسع الانسان في الكلام على التاريخ العام - على انه كذا

المؤرخين لا سيما المختصين منهم بالكلام على التاريخ
الأندلسي ولا مندوحة للمطلع على تاريخ المسلمين، لا سيما
في إسبانيا، من سماع هذه الجملة عقب كل ملك قوى عظيم

ازددنا بحثنا في دراسة بلاغة أمة ما وأعوزنا تفهم الأسباب التي
أدت إلى نتائج خاصة، كلما ازداد شعورنا بالحاجة الشديدة إلى
التوسع لا في دراسة تاريخها العام وحده بل وفي علم تقويم
البلدان أيضا

أثر الناصر في الاندلس

« وجد الانداس مضطربة فسكنها ، وقاتل المخالفين حتى أذعنوا واستنزل الثوار ومحى اثر ابن حفصون ^(١) كبيرهم ، وحمل اهل طليطلة على الطاعة وكانوا معروفين بالخلاف والانتقاض - واستقامت الاندلس وسائر جهاتها في نيف وعشرين سنة من أيامه ودامت نحوًا من خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بملك النواحي - وهو أول من تسمى بأمر المؤمنين عند تلاشي اخلافة بالشرق ا. هـ ^(٢) ،

سبب تلقب بالخلافة

فانه لما رأى هياج الدولة العباسية وضعفها في المشرق وظهور الدولة التركية والديلمية أقر ان امرأ المؤمنين لا ثقة به ، فلقب نفسه أمير المؤمنين ا. هـ «

(١) وقد مات الشقي عمر بن حفصون في سنة ٣٠٦ بعد أن هدد ملك الأمويين طويلاً ، وكاد يثل عرشهم مراراً ، فزال بعونه أكبر شبيح مرعب للفوضى (٢) ابن خلدون

وقد أودت من أعقبه هذا اللقب . واستهل خطيب
جامع قرطبة خطبة الجمعة بذ كر ذلك في سنة ٣١٦ ، وقد انفذ
الناصر كتبه الى عماله بالمنشور التالي :

منشور الخلافة

«وأما بعد ، فإننا احق من استوفى حقه ، واجدر من
استكمل حظه ، وابس من كرامة الله ما ألبسه - للذي
فضلنا به ، واظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطانا اليه ، ويسر على
ايدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه - وللذي اشاد في الآفاق
من ذكرنا ، وعلو أمرنا ، واعلن من رجاء العالمين بنا ،
واعان من انحرافهم اليما ، واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله
ولي الانعام - بما انعم به ، واهل الفضل ، بما تفضل علينا فيه
وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ،
وخروج الكتب عنا ، وورودها علينا بذلك . إذ كل مدعو
بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه
وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق
نُضعناه . واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك

أن يقول به ، واجر مخاطبتك لنا عليه - ان شاء الله ،
والله المستعان ،،

أثره في الحضارة الاندلسية

« ولما استفحل ملك الناصر^(١) ، صرف نظره الى تشييد
المباني والقصور ، وكان جده الامير محمد ، وابوه عبدالرحمن
الأوسط ، وجده الحكم ، قد اختلفوا في ذلك وبنوا قصورهم
على اكبر الاتفاق والضخامة ، وكان منها المجلس الزاهر
والبهو الكامل والقصر المنيف ، فبنى هو الى جانب الزاهر
قصره العظيم وسماه دار الروضة ، وجلب الماء الى قصورهم
من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر
فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم اخذ في
بناء المنزهات ، فأتخذ مينا الناعورة خارج القصور ، وساق
لها ماء من أعلى الجبل - على بعد امسافة .،

تشييد مدينة الزهراء

« ثم اخطط مدينة لزهراء ، واتخذها منزله ، وكرسيها

للكه ، فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا
على مبانيهم الاولى ، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة
الفناء ، متباعدة السياح ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك ،
واتخذ فيها داراً لصناعة آلات من آلات السلاح للحرب
والحلى للزينة ، وغير ذلك من المهن
وأمر أن تعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة ، وقاية
للناس من حر الشمس ^(١) ،



وقد عني الناصر عناية خاصة بإنشاء نافورات من المرمر
الجميل في جوامع قرطبة واشبيلية ، يكتنفها بوح يغرس
فيها شجر البرتقال والاس وغيرها
وأصلح قنطرة النهر الكبير ، وضرب نقوداً جديدة
وضع عليها اسمه والقابه ^(٢)

() ابن حلدون

(٢) وكان ذلك في السنة التي تليها فيها بالخلافة أي في سنة
(٦٣٥ هـ) . فأمر بإقامة دار السكة داخل قرطبة ، لضرب الدنانير
والدراهم ، وكانت مشاقلة ودراهمه محضاً من خالص الذهب والفضة .

ومما استدل به بعض المؤرخين على رقى عصره ،
ما حكوه من أنه أراد القصد ذات يوم ، فقدم بابيهو في
المجلس الكبير ، المشرف على مدينته بالزهراء ، واستدعى
الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب الآلة ، وحبس يد الناصر
وإنه لكذلك ، واذا بزرزور قد أطل ، فصعد على اناء ذهب
بالمجلس ، وانشد :

أما القاصد رفقا بأمر المؤمنين

أنا تقصد عرقا فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة ، فاستظرفه الناصر
وسربه وسأل عن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور ،
فذكر له ان السيدة الكبرى مرجانة ام ولده ونى عهده
الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك واعدته لهذا الامر
قلوا : " فوهب لها ما ينيف على ٣٠ الف دينار ! " ،

العصر الذهبي

وقد أصاب المؤرخون في تسميتهم هذا العصر
الاندلسي بالعصر الذهبي^(١) فقد تفتت فيه سوق العلم
والأدب وارتقت فيه الفنون، فكنت ترى أنى ذهبت
مجالس أدب ومجالس علم ومجالس غناء، وكان بلاط الناصر
مزدحما بالعلماء ورجال الأدب والفن

هدية قسطنطين

ولما عظم أمر الناصر، وارتفع شأنه، رغب في مخالفته
حتى أشد الملوك صلفا - كما يقول دوزي - وكان من بين
هؤلاء الملوك قسطنطين ملك الروم الذي بعث إليه بهديته
المشهورة وأرسل معها كتابا يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة
التي كانت بين أسلافهما مع خلفاء بغداد

قلوا: وكتب هذا الكتاب بحروف من ذهب
في رق سماوي اللون، وفيه طرس سماوي أيضا كتب بحروف

(١) تشمل هذه التسمية عصرى الناصر وابنه الحكيم الثاني

من الفضة يصف الهدية وأصنافها، وكلاهما بالخط الاغريقى

* *

فأحسن الناصر لقاء الرسل، حتى اذا وصلوا الى قصر
قرطبة، بهرهم ما رأوه من بهجة الملك وروعته، وأمر
الخليفة بعض الادباء والشعراء بالخطابة بما يناسب ذلك المقام

ارتباك أبى على القالى^(١)

فبدأ الكلام أبو على القالى، فحمد الله، وصلى على النبي،

(١) ترجمة القالى

المتوفى سنة ٣٥٦

سمه 'عم عيس' ونقبه أبو على. وامم أبيه القاسم وكان من
مواشي عبد الملك بن مروان.

أكثر أبو على من حفظ اللغة والسمر، وعنى بـ شديدة
بدرس نحو 'بصريين'، وتعلم لأبى دريد، وفتاويه، وابن
درستويه، وغيرهم.

وقد أقام ببغداد ٥٥ سنة ثم أقام بالموصل زمناً. ثم وفد على
الاندلس فى زمن الناصر « وكان ابنه الحكيم يتصرف حينئذ من
مرايه كالوزير، فأمر طاهمهم ابن رماحس؛ أن يجيئ مع أبى على

ثم ارتج عليه لهول المحفل وأبهة الخلافة .

الى قرطبة في وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة ، تكرامة لأبي علي ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل ، فكانوا يتذاكرون الادب في طريقهم ، ويتناشدون الاشعار ، الى ان تجاوزوا يوما ، وهم سائرون ، أدب عبد الملك بن مروان ، ومسألته جلساءه عن أفضل المناديل ، وانشاده البيت :
« نمت قما الى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل »
وكان التذاكر للحكاية الشيخ أبا علي ، فأنشد الكلمة في البيت :
« اعرافها لأيدينا مناديل »

فاكرها ابن رفاعه الألبيري . وكان من أهل الادب والمعرفة ، وفي خاتمه حرج وزعارة ، فاستعاد أبا علي البيت مستتبعا مرتين في كليهما النشده « أعرافها »

فلوي ابن رفاعه عنانه منصرفا ، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس ، لا يغلط الصبيان فيه ، والله لا تتبعته خطوة »
و نصرف عن الجمعة ، ونذبه أميره ابن رماحس الا يفعل ، فلم فيم يجب فيه حجة ، وكتب الى الحكم يعرفه ، ويصف له ما جرى لأبي رداء ، وينكوه ، « اجابه على ظهر كتاه : « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوائده من مخطي ووافد أهل تهرق البناء وابن

قلوا: « وانقطع ، وبهت ، فما وصل إلا قطع ، فوقف

رفاءة اولى بالرضا عنه من السخط ، فدعه لشأنه ، واقدم بالرجل
غير منتقص من تكرمته ، فسوف يعمل به الاختبار ان شاء الله
أو يحطه » ا. هـ

وفي هذا الجواب تتمثلون عدل الحكم وانصافه ، ووفور
عقله ، وغزارة أدبه كما تتمثلون من هذه الحكاية ، شدة تعلق
الادباء بالمسائل المروضية واشباهها ، وفيها دلائل آخر على ماسقناه
من كبار الانداسيين لرجال الشرق وعلمه .

ويريد ان لا يغوت اتماريء ان مثل هذا الخطأ المروضى
الذى وقع فيه الاديب ابن اتقال لا ينقص من قيمته الادبية ،
ولا يزيد في قيمة بن رفاعه ، ولئن صحت دلالة على شيء ، فهو
شيء لا يمس عذبة ذلك الاديب الاندلسي في حكمه ، وارتقبه به درة
مظنر به من بن النقي في طائر بها فرحا ، وبملا مضغيه فخر ، فيأنبه
بذلك مره .

ومن يدري ؟ وربما كان ابو على في شغل شغل — ثناء تلاوته
هـ ، البيت — والتفكير في موضعه الشرقي أو حديث ما عهده بجذبه
من ارتقبه تـ اندلس . أو تـ روى في شيء آخر .
على ما — د — ما — لم يصحح رين بيت من الشعر فان

ساكتاً مفكراً»

ذلك لا يدل على شيء أكثر من فقدان الروح الموسيقية وحدها،
وذلك لا يطمئن في سلامة ذوقه الأدبي وحسن اختياره، وسعة
علمه .



ولقد تعلم بو علي القالي وارتج عليه حين اراد الترحيب
برسل ملك الروم ، واظهار مجد الاسلام امامهم ، فهل دل ذلك
على شيء أكثر من ان لكل مقام ناسا لا يصاحون الا له .
فلأبي علي القالي ، التفكير الهاديء والبحث الأدبي المطمئن ،
وتمحيص الروايات والاسانيد ، ولابن سعيد البلوطي وأشباؤه
الثرثرة والتأثير الخطابي على نفوس سامعيه . وليس في استطاعة
احدهما ان يقوم مقام الآخر .

ونحن نحيل انقاريء على 'اخبار ابى الفوارس صاعد في الجزء الثاني
من نفح تطيب (من ص ٥٠ - ٥٩) وفي كتاب المعجب (من
ص ١٦ - ٢٠) ليتبين منها مثلاً نازراً لثرثرة ومرة فلبداهة
وحذو الجواب ، مع البعد الشديد عن تمحيص ما يقول ، او
تحرى الدقة في كلامه ، وسيمر بك شيء من أخباره

خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١)

فلما رأى منذر بن سعيد البلوطي ذلك ، قام قائماً بدرجة
من مرقاة أبي علي ، ووصل افتتاحه ، وخطب خطبة صافية ،
تمتار منها قوله :

(١) ترجمة منذر بن سعيد البلوطي

ولد سنة ٢٧٣ عند ولاية المنذر بن محمد ، وتوفي سنة ٣٥٥
وقد ولاه الناصر القضاء بقرطبة ، بعد ان ثبت له كفاءته وسعة
علمه ، وكان مهيباً قوى النفوذ ، وله كتب كثيرة في السنة
والورع ، وقد نظم بعض أشعار في الزهد منها قوله :
الموت حوض ، وكلما نرد لم ينسج مما يخافه أحد
فلا تكن مغرماً برزق غد فلست تدري بما يجيء غد
وخذ من الدهر ما أتاك به ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لاتدعه في في الناس الا لتشفيع والحسد
وقوله :

كم تصابي وقد علاك المشيب وتعامي همداً وانت اللبيب
كيف تلهو وقد أنك نذير ان سيأتي لهما منك قريب

« واني اذكركم نعم الله تعالى عليكم وتلافيه لكم بخلافة
أمير المؤمنين التي لمت شعشكم ، وآمنت سربكم ، ورفعت
خوفكم ، بعد ان كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ،
ومستذابين فنصركم ، ولأه الله رعايتكم ، واسند اليه امامتكم ،

يا سفيها ، قد حان منه رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عقيب !
ان الموت سكرة فارتقبها لا يداويك - ان أتنك - طبيب
وفي ختام هذه الابيات يقول :

ليس من ساعة من الدهر الا للمنايا عليك فيها رقيب
وكتب اليه بعض الادباء بقوله :

مسة جئتكم مستفتيا عنها وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجهه للظبا وأوجه العشاق فيها اصفرار
فجابه منذر بقوله :

احمر وجه الظبي اذ لحظه سيف على العشاق فيه احمرار
واصفر وجه الاسب لما نأي والشمس تبقى للمغيب اصفرار
وفي هذا مثل تبين منه طريقة فهمهم للادب ونوع تمكيرهم فيه ،
ومما حكاه عن نفسه ، ما حدث له مع أبي جعفر بن النحاس ،
وهو في مجلسه هناك ، يملئ في اخبار الشعراء ، شعر قيس المجنون ،
حيث يقول :

حبيبي من بالشام عين حزينة تبكي على نجد لعل أعينها

أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، واحاطت بكم شمل
النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال
ونكد العيش والتغيير ، فاستبدتم بخلافته من الشدة بالرجاء ،
وانتقلتم يمين سياسته الى كنف العافية بعد استيطان البلاء ،
أنشدكم الله يا معشر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكه خفها ،
والسبب مخوفة فأمنها ، والاموال منتهبة فاحرزها وحصنها ،
ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة
فخامها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه
جمع كلمتكم ، بعد اقتراقها بامامته ، حتى اذهب الله عنكم
غيتكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يداً على عدوكم ، بعد ان

قد اسمها الباكون لاحامة مطوقة بات وبات قرينها
تجوبها أخرى على خيررانة يكاد يدينها من الارض لينها
فقال له : « يا أبا جعفر ماذا أعزك به باتا يصنعان ؟ » فقال
لي : « وكيف تقوله أنت يا نداسي ؟ » فقلت له : « بات وذن
قرينها ! » فسكت : قال ابن سعيد : « وما زال يستثقلني بعد
ذلك حتى منعتي كتاب العين ، وكنت ذهبت الى الاسننح
عن سخته . »

وسيمر بك طرف من اخبار ابن سعيد هذا بعد قليل .

كان بأسكم بينكم ، ناشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة
بعد انطلاقتها من عقالها ، ألم يتلاف صلاح الامور بنفسه
بعد اضطراب احوالها ، ولم يكل ذلك إلى القواد والاجناد ،
حتى باشركم بالمهجة والاولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر
الايوطان ، ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون الى
الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة .
وبصيرة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة
واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ،
تحت عدل مشهور ، متحملاً للنصب ، مستقلاً لما ناله في
جانب الله من التعب ، حتى لانت الاحوال بعد شدتها ،
وانكسرت شوكة الفتنة عند حديثها ،

قالوا : « ولما فرغ من خطبته انشد معرصنا بأبي على القالى :
هذا المقال الذى ما عابه فند لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفاً لكنى منهم فاغتالى النكد »
وقد بالغ اعجاب الناصر والحاضرين بهذه الخطبة أقصى
حد ، وكانت سبباً في رفعة شأنه ونباهة ذكره فيما بعد (١)

(١) ومما قاله مفتخراً بأقدامه ، وشجاعته ، بمناسبة تلك

فقد ولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع وأمره على
الصلاة بالزهراء ، ولما مات محمد بن عيسى القاضي ولاه الناصر
قضاء الجماعة بقرطبة

الخطبة ، الابيات التالية :

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| مقاتل كحد السيف وسط المحافل | فرقت به ما بين حق وباطل |
| بقبب ذكي ترمى جنباته | كبارق رعد عند رفس الأنامل |
| ثم دحضت رجلى ولازل مقوى | ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل |
| وقد حدثت نحوي عيون اظالمها | كمثل سهام انمت في المقاتل |
| ظهير امام كان أو هو كاش | لمقتبل ، وفي "مصور لا وائل |
| ترى "ندس أفواجا يؤمون ببه | وكاهم ما بين راض وآمل |
| وفود ملوك الروم وسط فنائنه | مخافة بأس أو رجاء لدائل |
| فعمش سالما أقصى حياة معمر | فأنت غيث كل حاف وناعس |
| مستملكها ما بين شرق ومغرب | و أدب قسطنطين أو رص ديس |

طرفتا من أخبار الناصر

مع ابن شهيد^(١)

ذكر ابن بسام أن أبا عامر بن شهيد احمد بن عبد الملك
الوزير، أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه
فلمحه الناصر فقال لابن شهيد: «أني لك هذا» فقال «هو
من عند الله» فقال له الناصر: «تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون
بالقمر؟» فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام وقال «يا بني
كن مع جملة ما بمنت به، ولولا الضرورة ما سمحت بك
نفسى» وكتب معه هذين البيتين:

أمولاي هذا البدر سار لا فقكم
والأفق أولى بالبدور من الأرض
فرضيكم بالنفس وهى نفيسة
ولم أر قبلى من بتهجته يرضى

(١) تجد ترجمته وطرفا من أخباره الممتعة في الجزء الأول

من كتاب تقيح الطيب من (ص ٢٢٩-٢٣٣) وفي ص ٢٤٦ و٢٥٧

فحسن ذلك عند الناصر، واتحفه بمال جزيل وتمكنت
عنده مكانته، ثم إنه بعد ذلك أعدت إليه جارية من أجل
نساء الدنيا تخاف أن ينهى ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون
كقصبة الغلام فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وبعثها
معه، وكتب له هذه الأبيات :

امولاي هذى الشمس والبدر أولا

تقدم، كيما يلتقى القمران

قران لعمري بالسعادة ناطق

فدم منيما في كوثر وجنان

فما لها والله في الحسن ثالث

وما لك في تلك البهية ثاني

فتضاعفت مكانته عنده، ثم إن أحد اللوثة رفع يده
أنه بقي في نفسه من الغلام حُرقة وأنه لا يزال يذكره حين
تحركه الشموال ويترج السنين على تعذر نوصوه، فقال بوشى
بذلك : لا تحرك لسانك ولا ضر رأسك، واعمل الناصر
حيلة في أن يكتب على لسان الغلام رقعة منب : « يمولاي ته
أنك كنت لي على انفراد وذا أزل معك في نعيم واني وإن

كنت عند الخليفة مشاركا في المنزل له ، محاذر ما يبدو منه
من سطوة الملك ، فتحيل في استدعائي منه « وبعثها مع غلام
صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان وأن الملك لم
يكلمه قط ، ان سألته عن ذلك ، فلما وقف أبو عامر على الرسالة
واستخبر الخادم فعلم في سؤاله ما كان في نفسه من الغلام
وما تكلم به في مجالس المدام ، كتب على ظهر الرقعة ، ولم
يزد حرفاً :

أمن بعد احكام التجارب تبتنى
لدى سقوط العير في غابة الاسد ؟
وما أنا ممن يغلب الحب قلبه
ولا جاهل ما يدعيه اولو الحسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم
يعد الى استماع واش به ، ودخل عليه بعد ذلك فقال له « كيف
خلصت من الشرك » فقال : « لأن عقلي بالهوى غير مشترك »
فأنعم عليه وازدادت محبته عنده . هـ .

سطوة الدين في زمنه

وكان الناصر مع قوته وصرامته ، يخاف الفقهاء ويداريهم
أحياناً ، وقد أظهر شيئاً من ضعف العزيمة أمامهم في غير
مرة ، ولقد جبهه القاضي منذر بن سعيد ، في أوقات مختلفة ،
لمناسبات عدة ، فاحتمله ، ولم يجرؤ على الاقتصاص منه

— ١ —

فمن مآذلك ما حكوه عن ابن سعيد البلوطي هذا ^(١) ،
حين دخل على الناصر مرة ، وهو في قبة جعل قرمدها من
ذهب وفضة واحتفل احتفالاً ظن أنه لم يصل إليه أحد من
المهوك ، فقام ابن سعيد خطيباً ، والمجاس قد غص بأرباب
الدولة ، فتلا قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة
واحدة . جعلنا من يكفر بالرحمن لبيوتهم نسفة » من فضة ،
ومعارض عليها يظهرون . ثم أتبع الآية بما يليق بذلك :

(١) ذكرنا ترجمته في غير هذا المكان في ص (٢٠٩) فليرجع

قالوا : « فوجم الملك ، ولم يسمعه الا احتمال منذر
لعظم قدره في علمه ودينه »

— ٢ —

وكثيراً ما شدد النكير على الناصر ، لا يرافقه في بناء
الزهراء ، وقد دخل عليه يوما وهو مكب على الاشتغال
بالبناء ، فوعظه واشتد في تأنيبه ، فأنشده الناصر معتذرا :
هم الملوك اذا أرادوا نشرها

من بعدهم ، فبالسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا ، وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشأن

— ٣ —

وحضر يوما في الزهراء فأنشد بعض الشعراء قصيدة
للناصر ، منها :

سيشهد ما بقيت انك لم تكن
ضعيفا ، وقد مكنت للدين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم والتقى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا
فاهتز الناصر وابتهج واطرق القاضى منذر هنيهة ثم أنشد:
يا باني الزهراء مستغرقا
أوقاته فيها ، أما تهمل ؟
لله ما أحسنها رونقا
لو لم تكن زهرتها تذبل ؛^(١)
فاضطر الناصر الى مداراته ، وأجابه بقوله : .. اذا
هب عليها نسيم التذكور والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع
فانها لا تذبل ،،
فقال منذر : .. اللهم فاشهد أنى بثبت مد عندى ، و
آل نصحا : ،،

(١) ولا بأس من ذكر التبتين التبيين بهذه المناسبة . فممن
أنشدهما الوزير ابن جهور بعد تقويض ملك بني أمية فى الأندلس .
حين وقف على قصورهم ، ورأى ذبول زهراء :
قلت يوما لدار قوم قد نوا : (أين سكك العز ز عيينه ؟)
فأجبت : « هذه أقامو قبلا ثم ساروا ، وأنت علم أين . »

وقد أظهر الناصر شيئا كثيرا من ضعف العزيمة ، بعد
اتتماره على الشقي ابن حنصون ، حين ألّف عليه الفقهاء
الذين اتبعوه ؛ وسألوه أن يخرجوا رفات عمر بن حنصون
وابنه من جدتها ، فلم يستطع لكلامهم ردّا ، وأذن لهم
بذلك مضطراً ، فنبشوا أشلاءهما ، وبعثوا بها الى قرطبة
حيث صابيت

عناية الناصر بتربية ابنه الحكم

وقد وجه الناصر عناية خاصة ، إلى تربية ابنه الحكم الثاني ، أكبر أولاده ، وولى عهده من بعده ، ولم يدخر وسعا في تهذيبه واختيار صفوة من أدباء ذلك العصر وعلمائه لتثقيفه ، حتى انه استدعى أبا علي القالي من بغداد لذلك ، فبلغ الحكم في الرقي الفكري شأوا بعيد المدى

منافسة أخيه

وكان له أخ اسمه عبدالله ، وكان لا يقل عنه كثيراً ، في الفروسية والعلم والادب وسعة المدارك ، والتعمق في دراسة الفقه والفلسفة والتاريخ وعلم الهيئة ، ومما استدلوا به على علمه أنه ألف بنفسه تاريخاً للعباسيين .

وكانت حوله بطانة سوء ، فأغرته بالعمل في الخفاء على انتزاع الملك من أخيه ، ولى العهد ، وكان أكبر مشجع له على ذلك فقيه ما كر اسمه احمد بن عبد البر ، كان يطمع

الى الحصول على منصب قاضى قضاة اسبانيا اذا نجح سعيه
قالوا : وكانت أعز حميم للامير عبد الله ، رجل ذو
قدرة خارقة للعادة يعرف بان عبد البر ، وكان يلزم الامير
بالازمة شديدة ، حتى قيل انه لم يفارقه قط ، فكان يصاحبه
فى غدوانه وروحاته ، ويندر أن يرى عبد الله بغيره ، وكان
هذا الرجل يكتم فى صدره مطامع وأغراضا ، فكان يصانع
من فوقه ، ويعتو على من دونه ، ويخفى تحت ثياب تنبيه
عن الحشمة والوقار ، نفسا خبيثة ذات مكر ودهاء ، وعزم
اكيد على القيام بمطالبها الخفية ، ، نخدع الامير عبد الله ، والقى
فى روعه أن أشرف قرطبة والاقاليم يقدرون له ميزاته
الكثيرة على أخيه الحكم ، ويساعدونه على الخلاص من
ظلم أبيه متى هم بالمناوأة ، وشرع فى استرداد حقه المغتصب
فى زعمه ، وامن فى التغرير به فأوهمه أن ذلك العمل ناجح
وأنه الوسيلة الوحيدة لسعادته وخيره وأنه بذلك يضطر
أباه إلى تسليم العرش اليه

فشل المؤامرة

فأنخدع بذلك عبيد الله ، وتمت المؤامرة على قتل الحكم
وحددوا لتنفيذ ذلك ، يوم عيد الاضحى الذى قرب ميعاده
ولكن أمرهم لم يلبث أن انقضح ، فقبض عليهم
الناصر ، ووقف على نواياهم ، وأمر بالفقيه المخادع الشيخ ابن
عبد البر فسجن ، وحكم عليه بالاعدام ، وجعل انفاذه
في يوم عيد الاضحى أى اليوم الذى كان موعد تنفيذ جريمته
ليقتص منه على فعلته الشنعاء ، ولكن ابن عبد البر قتل
نفسه في السجن في ليلة ذلك اليوم ، لما علم بذلك ، وقال :
« يدي لا بيد عمرو » ، وكان ذلك في سنة ٣٣٨

وطالب الحكم العفو عن أخيه فلم يقبل الناصر ذلك
وأنفذه فيه العدل مقتدياً بالخليفة العادل عمر بن الخطاب ،
ولما يئس الأمير عبيد الله من عفو أبيه ، انتحر في سجنه
كذلك ، ودفن في اليوم التالي

مثالان من شعر الناصر

— ١ —

ولعل أبدع ما رأيناه من شعره قوله :

لا يضير الصغير حدثان سن إنما الشأن في سمود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم لم تنله بالركض كف مغير

— ٢ —

وقوله ، وهو تحليل نفسي :

ما كل شيء فقدت إلا عوضني الله منه شيئا
إني إذا ما منعت خيري تباعد الخير من يديا
من كان لي نعمة عليه فأنها نعمة عليا

الحكم الثاني^(١)

٣٥٠ - ٣٦٦ هـ

لم يل حكم الانداس أمير عالم كهذا الامير من قبل ،
وان اسلافه - على ارتفاع مواهبهم العلمية ، وعلى ما كان فيهم
من الرغبة في إغناء مكاتبهم - لم يصل بهم الشغف باقتناء
الكتب النادرة النفيسة الى هذا الحد الذي وصل اليه هيام
الحكم

ففي القاهرة وبغداد ، وفي دمشق والاسكندرية ،
كان له عملاء ، مكلفون بنسخ الكتب الحديثة والقديمة
وشرائها له ، بالغاً ما بلغ ثمنها ، حتى امتلأ بها قصره واصبح
مصنعاً لا تكاد تقع العين فيه على غير العاملين من نساخي
الكتب ومغلفيها^(٢) وقد بلغ فهرست مكتبته وحده

(١) معربة عن كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزي

(٢) قال ابن خلدون : « وجمع في داره الخذاق في صناعة
النسخ ، والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، فأوفى في ذلك كله

أربعا وأربعين كراسة^(١) تتراوح أوراق الواحدة منها بين العشرين والخمسين، ولم يكن بها غير أسماء الكتب وحدها دون أن تتناول وصفها أو شرح شيء من محتوياتها ويقول بعض المؤرخين إن عدد الكتب بلغ أربعمائة ألف كتاب قرأها الحكم كلها، ولم يقتصر على ذلك بل عاق على أكثرها، فكان يكتب على أول الكتاب أو آخره اسم المؤلف ولقبه وجنسيته وقبيلته وتاريخ ميلاده ويوم

واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا ما يذكرون عن الناصر العباسي بن المستضيء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر»

(١) قالوا: «وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها، جماعة للكتب في أنواعها، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله»

وقد روى محمد بن حزم: «إن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب ٤٤ فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون ورقة، ليس فيها إلا أسماء الدواوين لا غير فأقام العلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليها بضائمه من كل مكان»

وفاته وما يعزى اليه من الطرف والنوادر^(١) وكانت
تعليقاته ثمينه

وكان الحكم لا يجارى في تاريخ الأدب ، وكانت
مذكراته ذات خطر بين علماء الاندلس ، وقد لاف
دواجا عظيما

وكثيراً ما كانت تنتهى اليه مؤلفات الفرس وسوريا
قبل أن يقرأها أحد في الشرق

ولم يكذب بلانكه ان أبا الفرج الاصفهاني ، عالم العراق ،
يشتغل بوضع مذكرات عن شعراء العرب ومغنيهم ، حتى

(١) قالوا : « وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي
بأدلا فيها ما أمكن من الاموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان
ذا غرم بها ، قد آثر ذلك على لذات ملوك ، فاستوسع علمه ،
ودق نظره وجمت استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والاخبار
ولانساب أحوذا نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله »

قال ابن الأبار . « وقلما وجد كتب من خزائنه الا وله
غيه قراءة أو نظر في أي فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف
ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بفرائب لا تكاد توجد لا
عنده ، اعنايته بهذا الشأن »

ارسل اليه الف قطعة من الذهب ، راجيا إياه أن يبعث اليه
بنسخة من كتابه ، عقب فراغه من تأليفه (١) .
ومن ثم امتلأ قلب أبي الفرج الاصفهاني شكراً
وعرفانا لصديقه ، وأسرع في تلبية رغبته ، فارسل اليه نسخة
مضبوطة ، شتمها بقصيدة عدد فيها مآثر الأمير ، ومؤلف
في أنساب الامويين ، وتلك هدية جديدة نال جزاءها

وجملة القول أن نعم الحكم على العلماء ، من أجانب
ووطنيين ، لم تقف عند حد ، فازدحم بهم بلاطه ، وقد شجعهم
وشملهم جميعاً بحمايته ، ومنهم الفلاسفة الذين استطاعوا بفضل

(١) قال ابن خلدون : « وكان يبعث في الكتب الى الاقطار
رجالاً من التجار ، ويسرب اليهم الاموال لشراؤها ، حتى جلب
منها الى الاندلس ما لم يعهدوه ، وبعث في كتاب الاغانى الى
مصنعه أبي الفرج الاصفهاني ، وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل
اليه فيه الف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل
أن يخرج به بالعراق

وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه
لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك »

تلك الحماية أن يتفرغوا لفلسفتهم غير خائفين عنت المتنطعين
في الدين

*
* *

ولقد أزهى كل فرع من فروع العلم في عهد هذا الأمير
العالم ، فتعددت المدارس الأولية المنتجة ، وأصبح كل أهل
الانداس تقريبا يقرأون ويكتبون ، على حين كانت أرفع
الطبقات في أوروبا المسيحية جاهلة ، اذا استثنينا رجال
الكهنوت

وعنى بتدريس علم النحو والبيان في المدارس ، وكان
الحكم بعد كل ذلك يرى أن العلم لما يبلغ الدرجة التي يصبو
اليها من الذبوع والانتشار ، فدفعته عنايته بهذيب الطبقات
الفقيرة إلى انشاء سبع وعشرين مدرسة في العاصمة كان
ينفق على معلميها ، ويتلقى فيها الفقراء دروس التربية
والتهذيب بغير أجر . ا. ه. ،

حروب الحكم

لما مات الناصر، وتولى الخلافة بعده ولى عهده الحكم، طمع الجلائقة فيه أول حكمه، ولكنه أسرع بغزوتهم وقمعهم، فقبضوا مستذلين، ثم عظمت فتوحات الحكم في كثير من النواحي، وكثرت غنائمه فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث

وفي سنة ٣٥٤ حارب المجوس المعتدين وقهرهم ونالت منهم عساكره في كل جهة من الساحل، ومما ساعده على المحافظة على ملكه، انقسام امراء النصارى على أنفسهم، وقد واصل العمل على اتساع ملكه فنجح وبثت دعوته في المغرب الأقصى والأوسط فنجحت وزاحمت دعوة الشيعة^(١).

(١) قال ابن خلدون: « فأوطأ العساكر أرض العدو، من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقي دعوته ملوك زناته ومغراوة ومكناسة فبشوا في أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما يليهم، ووفد عليه ملوكهم فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم »

تشديد في محاربة الخمر

وقد بذل وسعه في ابطال الخمر في مملكته ، وكان
قد وصل به بغضها الى حد أن هم باستئصال شجر العنب من
الاندلس ، فلم يثن عن عزمه الا بعد أن أخبروه أن الخمر
قد تعصر من غير العنب كذلك

مثالان من شعره

ونكتفي من شعره بالمثالين التاليين ، فأولهما قوله :
الى الله اشكو من شمائل مترف
على ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه داري فاستزاد صدوده
واني على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقي بالغ
من الوجد ما بلغته لم اكن بنت

وثانيهما قوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت

وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي

غيا مقلتي العبري عليها اسكبي دما

ويا كبدي الحري عليها تقطعي

الموشحات في الأندلس

« وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التعميق فيه الغاية . استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ، ينظمونه أسباطا أسباطا . وأغصانا أغصانا ، ويكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان ، متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد ، وتجاوزوا في ذلك الى الغاية ، واستظرفه الناس جملة ، الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله وقرب طريقه وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس ، مقدم ن معافر الفريرى ، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى ^(١) وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه ^(٢) صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت

(١) ارجع الى ترجمته في ص (١٨٣) (٢) كان معاصرا للناصر

موشحاتها ، فكان أول من برع في هذا الشأن ، عبادة ابن
القزاز شاعر المعتصم بن صامح^(١) صاحب المرية^(٢) هـ «

* *

ونحن نختار لحضراتكم بضع أمثلة من أعلى نماذج
الموشحات ، مجتزئين بالقليل ، لثقتنا أن أغلب حضراتكم
قد اطلع على الكثير منها :

نماذج من الموشحات

فمن أحسن النماذج التي نختارها موشحة لسان الدين
ابن الخطيب المشهورة^(٣) ، وهي قوله :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| جاءك الغيث إذا الغيث همي | يا زمان الوصل بالاندلس |
| لم يكن واصلك إلا حملا | في الكرى أو خلسة المختلس |

* *

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| اذ يقود الدهر أسباب المني | تنقل الخطو على ما نرسم |
| زمرا بين فرادى وثنى | مثل ما يدعو الوفود الموسم |
| والحيا قد جلل الروض سنى | فسنا الازهار فيه يبسم |

(١) كان معاصراً للمعتصم (٢) مقدمة ابن خلدون

(٣) وقد عارض بها موشحة ابن سهل

وروى النعمان عن ماء السما كيف يروى مالك عن انس
فكساه الحسن ثوبا معلما يزدهى منه بأبهى ملابس.

* *

في ليال كتمت سر الهوى بالدجي ، لولا شمس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الاثر
وطرماقيه من عيب ، سوى انه مر ككاسح البصر
حين لذ النوم منا ، أو كما هجم الصبح نجوم الحرس.
غارت الشهب بنا ، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

* *

أى شيء لا مریء قد خلصا فيكون الروض قد كین (١) فيه
تنهب الازهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما نتقيه
فاذا الماء تناجى والحصا وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الود غيور ندما يكتسى من غيظه ميكسى
وترى الآس لييا فها يسرق السمع بأذني فرس

* *

يا أهيل الحى من وادى النفى وبقايي سكن أنتم به

ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تنقذوا عائدكم من كربه
واتقوا الله ، وأحيوا مخرما يتلاشى نفسا في نفس
حبس القلب عليكم كرما أقرضون عفاء الحبس ؟

* *

وبقاي فيكم مقترب بأحاديث المنى ، وهو بعيد
قرأطلع منه المغرب شقوة المغرى به ، وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب فى هواه بين وعد ووعد
ساحر المقلّة ، معسول اللمى جال فى النفس مجال النفس
سدّد السهم وسمى ورمى بفؤادى نهية المفترس
ولعل أبدع ما فى هذا الموشح قوله بعد ذلك :

ان يكن جار وخاب الامل

وفؤاد الصب بالشوق يذوب

فهو للنفس حبيب أول

ليس فى الحب لمحبوب ذنوب

أمره معتمل معتمل

فى ضلوع قد براها وقلوب

حكم اللعظ بها فاحتكما
لم يراقب في ضعاف الأتفس
ينصف المظلوم ممن ظلما
ويجازى البر منها والمسي

وقد أبدع أبو بكر الأبيض الوشاح في قوله من
موشحة له :

مالذي شرب راح على رياض الاقاح
لولا هضم الوشاح إذا أسي في الصباح
أو في الاصيل أضحى يقول
ما للشمول ؟ لظمت خدى
والشمال هبت فمال
غصن اعتدال ضمه بردى
مما أباد القلوب يمشى لنا مستريا
يا لحظه رد ثوبا ويا ثناء الشنبا
برد غليل صب غليل
لا يستحيل فيه عن عهد

ولا يزال في كل حال

يرجو الوصال وهو في الصمد
واليكم مثلاً ثالثاً من أجل الموشحات وهو قول بعضهم
ما للهـوله من سكره لا يفيق
يا له سكرانا !

من غير خمر مالم يثيب المشوق
يندب الأوطانا

هل تستمد أيا منّا بالخليج
وليـالينا

أو يستفاد من النسيم الأريج
مسك دارينا

واد يكاد حسن المكان البهيج
أن يحينا

ونهر يظله دوح عاينه أنيق
مورق فينسان

والماء يجري وعائم وغريق
من جنى الریحان

ومن أبدع موشحات عبادة، الفزاز، موشحته التي
فيها قوله :

لا جرم من لحا قد عشقا قد حرم !

ومما لا بأس باختياره من الموشحات ، قول التلمساني
من موشحة له :

يا مديبا مهجتي كمدا فقت في الحسن البدور مدى
يا كميلا كحله اعتمدا عجبا ان تبرىء الومدا
وبسقم الناظرين كسي جفناك السحار وانكسرا

وقول الشيخ أثير الدين أبي حيان ، من موشحة له :

إن كان ليل داج وخاتنا الاصباح
فتورها الوهاج يغنى عن المصباح

سلافة تبدو كالكوكب الأزهر
مزاجها شهد وعرفها عنبر
وحبذا الورد منها وان أسكر

وفيهما يقول في وصف حبيبه

يلحظه المرهف يسطو على الأسد

كسطورة الحجاج في الناس والسفاح
فما ترى من ناج من لحظة السفاح الخ
وقول بعضهم :

هل يصح الأمان من شبیه البدر ؟
وهو مثل الزمان منتم للغدر ؟
وهي معارضة للموشحة التي اولها :

صاحك عن جمان سافر عن بدر
صناق عنه الزمان وحواه صدرى

ومن موشحات ابن بقى قوله :

ما ردنى لابس ثوب الضنا الدارس
الاقمر

في غصن مائس شعاعه عاكس
ضوء البعر الخ

وقوله ايضاً :

خذ حديث الشوق عن نفسي

وعن الدمع الذي همما

* * *

ماتری شوقی فد و فدا
و هما دمی و اطردا
واغتدی فای عریک مدی ؟

* * *

آه من مد و من قبس
بین صوری و انشا چه !

بئی رم از سفر
اصدمت زارده نرا
فاحذروه کک انرا

فبالخاف البی قسی

منه خف بزم و ریح

* * *

و نه خمره من به حاجتی خمره و نه
فی نغمه مرد و رنجه
السال من نهی خاروه

*

دعنى على منهج التصبى ما قام لى العذر بالشباب
ولا تطبل فى المنى عتابى فليست أصغى الى عتاب
لا ترج ردى الى صوبى والكاس تقتر عن حباب

والفصن يبدى لنا انعطائه اذا هنا فوقه النسيم
والروض أهدي لنا قطفه واختاء فى برده الرقيم
الى ان يقول :

لله عصر لنا تقضى بالسد (١) والمنبر البهيج

(١) السد هو من متنزهات قرطبة ، وقد اكثر شعراء
الاندلس من ذكره فى اشعارهم ، ومن أبدع ما رأينا لهم فى ذلك ،
قول أبى شهاب ، الملقب ، يصف يوم راحة بهذا السد :

ويوم لنا بالسد ، لو رد عيشه

بميشة أيام الزمان ، رددناه

بكرن له ، والشمس فى خدر شرقها

الى ان اجابت ، اذ دعا الغرب دعواه

قطمنا شدوا ، واغتباتا ونشوة

ورجع حديث ، لو رقي الميت أحياء !

على مثله من منزله تبتغى المنى

فيه ما أنتى وأبدع مرآه !

أرى ادكاري اليه فرضا وشوقه دائما يريج
فكم خلعنا عليه غمضا والصبيا مسرح أريج

* *

ورد أطلال النى ارتشافه حتى انقضى شربه السكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لا يدوم!

شدت به الأرحا ، ولتقت نثرها

علينا ، فأصغينا له وقبضناه

لئن بان ، انا بالأنين لفقدته

وبالدمع في اثر التفراق حكينا

(١) - هي - ندى يسهه شعر

مجالس الادب والغناء

وأثرها في الشعر

قال حضرة الدكتور ضيف ، في إحدى محاضراته .
« وقد أثرت تلك المجالس في الانداس تأثيراً عظيماً
في المعاني الشعرية ، بسبب ما أوجدته من التنافس الشديد
بين الشعراء والادباء ، ولكن الغناء كان قاصراً على تالحين
بضعة أشعار عربية مما قاله الشعراء المعاصرون أو المتقدمون .
بل أنهم كثيراً ما كانوا يتغنون بوضع أبيات جاهلية أو أموية
وعباسية ، ولهذا سبب تعدد أثر الغناء زيادة انعدام قليلة
لا تختلف كثيراً عن ما تقدمنا في الشرق ! »

فلاستدري أن تلك الخبة من ثروت في المعاني الشعرية
فقد بنيتها ولكنها يرى من الناحية الأخرى أنها لم تؤثر مطالفاً
في الميزة الشعرية (أي في أوزانه وقوافيه) .

فأما أن تلك الخبة من ثروت في المعاني الشعرية تأثيراً

عظيما ووصلت بها الى حد ما تكن تقبلغه لولاها ، وأما انها كانت سبباً في التنفس بين الشعراء ولادباء . مما كان له اكبر الاثر في تهذيب الشعر وابتكار المعاني الجديدة وادخال كثير من الاساليب الرشيدة فيه ، فذلك ما لا يشك فيه أحد وحسبك آية على صدق ذلك ما نقله نيكلسون عن القزويني في كلامه عن مدينة شلب ، ابرتن - أن قطنها جميعاً إلا ما بدر - كنوا يقرضون الشعر ويعاون الأدب فلمو مرتت بفلاح وقف وراء محرمه وسأته أن ينسبك بضع بيتات لأجاب صلبتك من "فور مرتجلا في" موضوع تغلب اليه الكلام فيه ، وهو - الاشك مرأ كبر نتائج تلك المجاس التي كان لها الفضل في تصوير ، بلادى تلك لمكة له آية .

* *

فأما أن أثر الغناء كان قصراً على زيادة وضع نظم فحسب . وأما أن الغناء لم يكن له من أثر مطاب في طريقة نظم الشعر ، وأما أن الغناء كان مجرد لهو وطرب يقصد به صرف الوقت ، وأما أن الغناء لم يبعث لادبيين الى اختراع نوع جديد في الشعر يتضاءل بالقياس اليه ذلك الاثر الذي

أحدثته تلك المجالس في المعاني الشعرية - رغم ما يذاه من أهميته - فذلك مانستميع الاستاذ المذر اذا خالفناه فيه وأظهرنا لحضرته اننا نؤمن بعكسه تماماً .

فاننا نعتقد أن أثر الغناء ومجالس الغناء في رقي المعاني الشعرية وتهذيبها ، يتضاءل بجانب تحطيم أكبر قيد رزى به الشعر العربي ، وهو النقييد بمدة اوزان وقواف خاصة لا يتخطاها أحد ، ولا يجسر انسان على الانتقاض عليها ، بل ولا يؤذن له أن يفكر في ذلك - فلما شاع الغناء في الاندلس وافتن أهالها في التلاحين والغناء ، استطاعوا ان يرفعوا عن عاتقهم ذلك النير الثقيل الذي سببه التقاليد ، وثم اهتموا الى اختراع الموشحات - كما سنبين ذلك في حينه ونثبتة بما نعهه كافياً لاثباته ، من ابراهيم التي افتنعنا بصحتها - وليس يستطيع أن يقدر أهمية هذا التطور الذي نشأ عن اختراع الموشحات أو يتبين خطورته - الا من تتبع الحركة النقدية عند العرب وعرف أن التقليد الاعمى كان رائدها في اغلب الاحايين ونشدة تعانيهم في المحافظة على محاكاة من تقدمهم من العرب وتبع سائليهم في التفكير - قد وصلت الى حد

يدعو الى الحيرة - واعلم ا كبر نكبة أصابت الشعر العربي
هى ذاك التقليد الذى سرى اليهم من اعتقادهم الفاسد بأن
الفضل كل الفضل لمتقدم وان العرب الجاهلين قد وصلوا
بالشعر الى درجة ليس بعدها غاية ، وان مهمة الشعراء منهم
يجب أن تنحصر فى الاتيان بشعر يحاكي اشعارهم التى اتخذوها
نماذج عالية بلغت أعلى درجات الكمال وتسامت عن تناول
النقد - ولو شدنا الاقضية فى هذه النقطة ، التى نراها من الزم
الناو ازم لا يفاء ، موضوعنا ، فقلنا - ولكننا نكتفى بنظرة اجمالية
سريعة ، لتبين منها الحد الذى وصل اليه تعنت النقد وتضييقه
على الشعراء ، والضرر الذى لحا اليها بعض من حاول التجديد
من الشعراء ، فاذا انتهينا من ذلك شرعنا فى اثبات ما طالبه
منا الاستاذ ضيف ، وهو البرهنة على أن الموشحات كانت
نتيجة الغناء ، ثم نختتم هذا الفصل بكلمة جامعة تتطرقها
للعلامة ابن خلدون تعد بمثابة تدرية موجزة لغناء ، حتى يسهل
علينا ان نلم بصورة واضحة لاحتويات هذا الفصل

• تمنت النقا

ان من يزع الحيلة 'تقربة' من العرب يحدها كانت
غايها - ا - . فمن دأب - رعى الى التحكم في ذواق الشعراء
ووضعوا بقصائدهم وتيوت شديدة كانت السبب الاكبر
في التعرف بالشعر العربي، وهو في بدايته، عند الغاية التي
وصل اليها العرب الا قدمون - واقدم استبد فناء الله د
بأذا ان الشعراء فوجوا عليهم أن يخرجوا على أوضاع من
سبقتهم، وانغمس تهوس بعضهم به حاول حصر أبواب الشعر -
ويصنعوه - وقفوا بين الفل واللمس ولها جاء. الى آخر ذلك
من التعبد الشديد الذي سادهم اليه تغالهم في تقليد المتقدمين
واستأغاب العيوب التي عدوها من أكبر نقائص
النظم - لا يحرر من ذلك - حتى اضيق الذي حصرهم فيه
جاء - المقداد الخامدين - وكان تلك الفترة التي شغلت العرب
عن قول الشعر - في عصر ابتداء الاسلام - لان شغلتهم بما
هو أعظم من شعر، كانت سبب ذلك تقليد الذي بدأ منذ
ذلك الحين، عتب تهو تلك الشغل، وخذلتمو ويزداد حتى

امروء القيس، فنحله الأبياب التالية، واطاق عليها اسم الشعر
المسمط، وادعى أنه عثر بها عرصنا، وهي
توهمت من هند معالم اطلال

عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

* *

مراع من هند خلت ومصائف
يصيح بمغناها صدى وعواذف
وغيرها هوج الرياح الواصف
وكل مسف ثم آخر رادف
بأسج من نوء السما كين هطال

وهذه البيت لا يتردد النسن له ذوق أدبي في أن
يشك في نسبتها لامرئ القيس على الأقل - بل ربما جزم
بأنه ليست له وهو ما نذهب إليه، اظهور الصنعة والتكلف
فيها وبعدها تشديد عن أسلوبه الذي كاد يمتاز به عن سواه
من الشعراء (١)

(١) وقد ذكر المعري في رسالة الفخرن (ج ١ ص ١٠٩)
منقشة خبائية ممتعة بن مريء القيس وابن القارح، تنصل
فيها لأور من نسمة تسيظ آخر، دسه عليه بعض

*
* *

وربما لجأ بعضهم الى الغناء واستعان بسلطانة القاهرة
على النفوس، واتخذ من النغم الساحر عوناً له على ادخال تحوير
آخر في نظم الشعر - رغم أنف النقاد الجامدين - ومن هذه
الفئة سلم الخاسر المغنى النابغة، حين قال في مدح موسى الهادى

| | |
|-----------|-----------|
| موسى اطر | غبت بكر |
| ثم انهمر | ألوى الرد |
| كم اعتسر | ثم يتسر |
| وكم قدر | ثم غفر |
| عدل سير | بش لاثر |
| خير وشر | نفع وضر |
| خير البشر | فرع مضر |

الرواة ، وقد جاء فيه :

يا قوم ان الهوى اذا اصاب انفق
في القلب ، ثم ارتقى فقد بعض الهوى
فقد هوى لرجل

بدر بدر والمفتخر

لمن غير

* *

ويسمون هذا النوع من الشعر - المقطع - سمي
كذلك لأنه مقتطع من الرجز الذي قلته العرب ووزنه كما
تسمون (مستفعان مستفعان مستفعان) ثم تعان العرب
الفدما فيه فاقصر بعضهم على جزأين منها كقول دريد
ابن الصمة يوم هوزان

يا أيتنى كنت جريح أخب فيها وأضع
فكان من الطبيعي - يسير - لم الخاسر في هذه الطريق
إلى آخره وأذيقتهصر على جزء واحد من أجزاء الرجز الثلاثة
وهو « مستفعان » وكذا المقطع يكونوا يباين إلى
التجديد - مهما كان طبيعيا - لذلك استعان سلم الخاسر على
ترويح هذا الوضع بقوة تأثير الغناء - ثم تبعه غيره فنظم
أرجوزة من هذا النوع، فقد :

طيف ألم بذى سلم بعد العتم يطوى لآلم الخ

* *

ولا يفوتنا أن نختم هذا الفصل بمثّل واحد من أمثلة
عديدة يعيننا استقصاؤها - الاستدلال على تنطع بعض
المقادير وتشبيهها بالتقديم - وربما تبينتم منه السرف في تأخر
لزم من الذي اخترعت فيه اللوشحات عن حينه بسبب
اضطهاد المقادير لكل فكرة مستحدثة وعدم فهم الأثرية
منها لغرض الأسمى الذي يرى إليه الشعر

ابن رشيق والتجديد^(١)

فمن أدلة مخطوهم على الجديد - لالسبب سوى جدته
وحدها - ما نورد على حضراتكم من قول ابن رشيق من
كلام طويل نمتطف لكم منه القطعة التالية :
« وقد رأيت جماعة يركبون الخمسات والمسمطات
ويكثرون منها

(١) ابن رشيق القيرواني

المتوفى سنة ٤٥٦ هـ

سمه الحسن ابن رشيق وكنيته أبو العباس، وموطنه القيروان
وأصل أبيه مملوك رومي من موالي الأزد كان صائغا في بلدة
نجدية ، فعلمه أبوه صنعته

شغف ابن رشيق بالأدب فرحل الى القيروان واتصل بخدمة
صاحبها ، وعلا شأنه بها

وذا فخرها العرب ، انتقل لي صقلية وأقام بجازر الى أن مات
وهو مؤلف كتب عمدة الذي يعد بحق من أنفس الكتب
العربية - وابن رشيق من اقرب المقادير الى الاعتدال والحرية
وابعث عن التقليد

ولم أر متقدما حاذقا صانع شيئا منها، لأنها دالة على عجز
الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه
ما خلا أمراً القيس في القصيدة التي نسبت إليه (١)
وما اصححها له »

أى والله! هكذا فليكن المقدامات! وهكذا فليكن
التنطع والتشبه بأذيال القدماء واليعد عن فهم الغاية السامية
التي خلق الشعر من أجلها! لم ير ابن رشيق متقدما صانع
شيئا من الخمسات والمسمطات. وهذا وحده سبب كاف
عنده للسخط عليها والخط من قيمتها والافتناع بعدم
صلاحيتها. فعليه، كل عيب في نظر هذا السامع النقد هو أن
الأوائل القادرين الذين جمع الله الميوع وعمراب النظر
ووفور المتل وقف عليهم - لم يخترعوا شيئا من هذه الأوصاف -
ولو أنهم سبوتوا إلى ختر عه خسانت وقد تردد ابن رشيق
في قبولها والاعتراف بزياد خبيثة
وأغرب من ذلك أن هذا الزعم تكدير لا يستحق

(١) هي التي ذكرها مصنفنا في ص ٢٥١

أن يصرح في كتابه أن من أكبر أسباب سخطه على هذه
الأوضاع الجميلة التي نعدّها خطوة في سبيل رقي الشعر
وتدرجه في طريق الكمال - أنها تدل على عجز الشاعر وقلة
قوافيه وضيق عطنه !!! - إذن فالشعر في نظره هو نوع
من المباهاة والاقتدار على صيد اقوافي الساردة - وليس
مجالاً لشرح الخواج التي يزيدّها وضوحاً قلة القيود في
النظم ؟؟ - ولكن حذار أن ننسى أن امرأ القيس يشذ
عن هذه القاعدة في نظر ابن رشيق واضرابه - لأنه يرتاب
في نسبة تلك القصيدة إليه - ولو أنه تحقق من أنه قائلها
لكن له شأن آخر في ستحياسنها ، وما صعب عليه أن يتلمس
فيها مزايأ أخرى - لا يصعب علينا أن نتكهن بها - نسيغ له
قبول هذا النوع

وذا وصل ابن رشيق الى هذا الحد من التنطع مع
ما اشتهر به من التبجح في النقد وسعة الاطلاع على كلام
العرب ، ومع ما نعرفه من أن به مملوك رومي من موالي
الازد ، وهو ما نجعله قسراً من غيره تعصباً لآراء العرب
القدماء - فما ضللك بأخذ نبي يعمل إليه ننطع سواه من

النقاد الجامدين الذين وصل العمى ببعضهم الى حد أن يسمع البيتين من الشعر فينطاق لسانه بمدحها واثناء عليها - ثم لا يكاد يسأل عن قائدها فيجدها لصاحبه ، حتى ينتفض على حكمه في الحال ، ولا يستحي أن يقول له : « أى والله إن أثر التكلف فيها اظهر ^(١) »

(١) انظر الى شكوي ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٢٦) وهو من احرار نقاد المشاركة وناغيهم ، ومن اساطين نقاد بغداد - من الطريقة التقليدية التي يسير عليها نقاد العرب . قال : « فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخير - ويردل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ورأى قائله - ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل لله كل قديم منهم حديثاً في عصره وكل شريف خارجياً في أوطانه فقد كان جرير والفرزدق والاختل يعدون محدثين ، وكان أبو عمر بن العلاء يقول : « لقد نبغ هذا محدث وحسن ، حتى لقد هممت بروايته » ثم صار هؤلاء قدماء عندنا يبعد الامجد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعده كالحزبي والعتبي والحسن ابن هنيء

سلطان الغناء

واذا وصل تعنت النقاد في الشرق الى هذا الحد،
وذكرنا ما بيناه من قبل في إحدى المحاضرات السابقة من
اندفاع الانداسيين في تقليد الشرقيين الذين اتخذوا - هم
الآخرون - بلاغة العرب الأقدمين نموذجاً عالياً لا يقبل
التحوير ولا يخضع لقانون النقد - فقد يسهل علينا اذا
استوعبنا ذلك أن نتصور بسهولة أن جمود النقاد في الانداس
لم يكن اقل عن جمود النقاد في الشرق، بل ربما زاد - واذن
فكيف نعمل اختراع الموشحات في الاندلس مع ما بيناه
من تعنت النقاد؟ وكيف تقبلها الوسط الذي كان متأثراً
بآراء المقدد الجامدين؟

فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، ووثقنا
حبيه به - ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما ان
الردىء اذا ورد علينا المتقدم أو الشريف، لم يرممه عندنا
- حبيه به ولا تنقصه -

ان نظرة واحدة نلقى بها الى سلطان الغناء الفاهر
الذى تغلب على نفوذ النقاد وتعنتهم، فيها الجواب الصادق
عن هذا السؤال - فقد استعان الاندلسيون بسلطان الغناء
وقوة النغم الساحر على ارغام النقاد الجامدين على قبول تلك
الانواع الجديدة التى طالما عارضوها بكل شدة

* *

رأيت في احدى المحاضرات السابقة الى أى حد وصل
تقدیس الانداسيين لزياب الموسيقى وكيف أنهم رفعوه
الى مكانة ليس بعدها زيادة لمستزيد^(١) حتى وصل
الى منزل يشناه كل سيد . ويقصر عن ادراكه المتناول
وقد استنتجنا من ذلك في حينه ، استنتاجين مهمين ،
أحدهما وهو اننا نصوص هذه الفصل : هو شغف
الانداسيين واقتنائهم بالغناء الى حد لا تقى اذا قلنا انه رءا
زاد على افتتان الغربيين به في هذه الايام

ولا جرم ان بلوغ الانسان ، لغناء مرطبيعى لا يستطيع
أن يتخلص منه الا موزونى حين غير سبيلة البشر . بل ان

(١) رجع الى ص ١٣١ - ١٢٥

بعض الحيوانات يتأثر به كالجلل والحصان مثلاً - بل زعم
بعض المتغالين جداً من العلماء المعاصرين لنا في امريكا أن
الجماد ايضاً قد يتأثر به . فاذا ما وجد الجمهور اقبالاً من الملوك
على هذا الفن وتنشيط الذويه - فانه بما فيه من حب طبيعي
للغناء ، وبما فيه من تقليد أعمى لما يحبذه الملوك - حتى ولو كان
مخالفاً لطباعه - يندفع في تحبيذه اندفاعاً لا مثيل له !

فاذا زدنا على ذلك ما كان بين الغرب والشرق من المنافسة
في كل شيء تقريباً ، ثم ذكرنا ايضاً أن زرياب كان تلميذاً لاستاذ
النابغ اسحق الموصلي وان اسحق هذا قد رأى فيه منافساً
خطراً فهدده بالوعيد مرة وأغراه باللين أخرى ليغادر
الشرق الى بلاد الاندلس - لما رآه من اقبال الخليفة العباسي
عليه ، فكان لذلك اكبر الاثر في نفس زرياب الطموحة ، فسمى
للتفوق على استاذه ، وساعدته الفرصة التي اتاحت له منافسته
في بلاد الغرب . واذا ذكرنا ما لقيه زرياب من ضروب
التشجيع الذي لم يكن يحلم به من قبل ، ومن الهيمنة النامية
على الاذواق ، والتصرف في نفوس الناس كما يشاء - ثم أضفنا
الى ذلك نبوغه واستعداده العظيم للتفوق في هذا

على كل معاصريه في الشرق والغرب - وذكرنا بجانب ذلك
ما في طبيعة الاندلسيين من حب الغناء بسبب موقع اقليمهم
الزادر - نقول -

اذا وعينا كل هذه الاعتبارات لم نستغرب قط ما وصل
اليه سلطان الغناء على النفوس في بلاد الاندلس - ولم يدهشنا
ما نراه من انتشار مجاس الغناء في كل جهة من جهاتها حتى
أصبح شغف الفلاح به وهو وراء المحراث لا يقل عن واه
الامراء به بين الموالى والدساتين

* * *

ومتى أقررنا ذلك فقد أدركنا السر في تلاشي سلطة
النقاد الجامدين وضياع نفوذهم العظيم الذي طالما اتخذوه
وسيلة للاستبداد باذواق الشعراء، ولم نستغرب السبب في
ضياع سلطانهم الذي تضائل أمام سلطان الغناء الفاهر الذي
خضع الجميع لتأثيره حتى النقاد - ومن هنا يسر علينا
ادراك السبب في اختراع الموشحات في الاندلس

أثر الغناء في الشعر

الغناء هو السبب الأول في اختراع الشعر

فلا عجب اذا كان هو السبب أيضاً في اختراع الموشحات :

* * *

يرى أكثر المؤرخين أن السبب الأول الذي دعا العرب الى نظم الشعر هو حداؤهم للابل . قالوا : « وكان العربي يغني انطرب ناقتة ، فيسهل عليها قطع المفازات الشاسعة واجتياز المهامه المترامية . وبدأ العرب بنظم عدة ابيات قصيرة تتفق اعاريضها وانغامها مع سير الابل وحداؤها » واستدلوا على ذلك بعدة ابيات يطاق توقيعها سير الابل

وروى بعضهم أن السبب الاول في نظم الشعر هو أن مضر بن نزار بن معد سقط عن بعيره فانكسرت يده فحس يقول « يا يداه . يا يداه » وكان من أحسن الناس صوتاً . فاستوسقت الابل وطاب لها السير - قيل : « ولعل الهزات الاربع متتابعة في سير الناقة ارشدته الى ايقام حداثه على

أجزاء رباعية فكان من الخذاء الرجز وهو أول بحور الشعر .
وما زالت الأوزان تترقى شيئاً فشيئاً ،

« وربما صدغوا الشعر أولاً بمبارات قصيرة تحفظ
وتتناقل على سبيل الأمثال الحكيمة ونحوها . والظاهر
أنهم قضوا أجيالاً والنظم عندهم على سبيل الأمثال . حتى
اتفق لبعضهم أن جعله شطرين مسجوعين في مثل واحد
أو مثليين متآلفين فرأى في ذلك رنة ، فترنم به ، وأخذه عنه

الناس وجعلوا يتغنونه في حدهم وإنشادهم وراء بلهم ، والغناء
لسان طيبي ، فاعجبتهم رنة القافية والوزن ، فزادوه شطراً
وشطرين أو أكثر على قافية واحدة ، وهو الرجز في أبسط
أحواله ، وظلوا دهرًا ضويلاً يقول شاعرهم من الرجز البيتين
أو الثلاثة . إذا هاجت به قريحة الشعر لمغخرة أو مشاتمة
أو منافرة . وكانوا كلما نبغ فيهم نبغة أدخل في النظم
تحسيناً ^(١) ، حتى إذا جاء للمهمل قصد القصائد وجاء بعده
امرؤ القيس فانتن فيها وأطالها وبلغت نهضة العرب أشدها
في الجاهلية في أيام مهمل وابن اخته امرئ القيس . وقد

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج (٣) ص (٢٣)

اهتدى بهض المستشرقين الى بعض أنغام العرب وشرحها
في محاضرة له، القاها في نادي الموسيقى - فيما سمعت - علي ملاً
من ادباء مصر والفرنجة . وبين لهم طريقة انشاد العرب
للشعر وتغنيمهم به . ثم تطرق الى الكلام على معلقة
امرىء القيس فصورها للحاضرين ، ثم أمر بها فغنتها على
دساتينها فئة من الموسيقيين أعدها لهذا الغرض خاصة
ذلك ما رواه لي صديق أديب ، مجيد الغناء ويحسن
التوقيع . وقد أكد لي أن جميع الحاضرين خرجوا مقتنعين
بأن ذلك النغم كان بلا ريب النغم الذي تغنى به امرؤ القيس
وغيره من الجاهليين لمشايعته التامة لحذاء الابل ومطابقته
لسيرها

وقد تمكن صديقي - لحسن الحظ - من ضبط ذلك
النغم وحفظه ، وأسمعيه ، فاخذته عنه منذ ذلك الحين -
ولا أكذبكم يا سادة أنه نغم لا يتمالك الانسان نفسه -
وقت سماعه - من الجزم بأنه لم يخلق إلا ليوقع على سير
الابل وحداثها - وكثيراً ما تغنيت به لنفسي خفيل الي - رغم
رداءة صوتي - أننى راكب جملا واننى أحدوه !



وبعد ، فأى ميزة للشعر على النثر الا ميزة الموسيقية
التي يحدّثها الوزن والا ميزة الاتساق الذي تحدّثه القافية ؟
والا فما هي الفائدة من وجود هذين القيدين في الشعر ،
وقد تعلمون ما يتطلبانه من العناء والجهد ، وما قد
يجرّان اليه من تحوير بعض الأفكار التي أرادها الشاعر
أو بتر بعض المعاني التي رام الافصاح عنها . مما لا يعزّيه عنه
لا عرفانه بان النغم سيسد ذلك الفراغ ، ويزيد على ذلك تلك
الحلة البديعة التي يفرغها على الشعر - ذلك هو ما أفهمه
من وجود تلك القيود الشديدة في الشعر العربي . تلك
القيود التي بدأ الانداسيون بتحطيم بعضها - وأن لها
أن تحطم جميعا وان تلقى بلا رحمة ولا شفقة - وأى انتفاع
للإنسان بالوزن والقافية اذا كان الغرض هو سرد الشعر
بعد ذلك كما يسرد النثر ؟

الشكوى من القافية

قد يعترض علينا أحدكم بأن النثر المسجع قد اخترعه العرب من غير أن يفكر واحد منهم في أن يتغنى به . وهو اعتراض وجيه نقره على أهميته ، ولكننا نسأله أيضا :
دوما الفائدة من تسجيله اذن ؟ أليس ذلك اسرافا دعا اليه
فضاء الوقت ؟ (١)

(١) وقد حل صديقي الاستاذ سيد افندى ابراهيم هذا الاعتراض على أبسط وجه فقال « كان الباعث الاول الذي دعا العرب الى نظم الشعر هو الغناء (حذاء الابل) وبعد زمن طويل نسي ذلك الباعث واصبح الشعر معتبرا بنفسه دون نظر الى أصله ثم خطا العرب خطوة اخري فأنشأوا كلاما مقفى خاليا من الوزن وهو النثر المسجع ، وقد اكثر الكهان من استعماله - ولقد حاول بعض الشعراء فيما بعد أن يزيد قيودا جديدة على الشعر غير القيود الاولى ، فالتزم فيه مالا ينزم ومنهم ابو العلاء الذي تغالى في لزومياته في اتباع قيود سنه لنفسه والزمها بها . وهذا دليل على أن القيود لأولى التي كان الباعث اليها للغناء ، نسيت تماما

على أن الشكوى من الفافية عامة في أغلب العصور،
وقد حاول بعض أفذاذ من العرب أن يتمردوا عليها فلم يفلحوا
كثيرا في ترغيب الناس الى ذلك - ومن ذا الذي يدرى الى
أى حد كانت تصل البلاغة العربية لو حطم ذلك القيد الثقيل
(الفافية) في ابتداء الدولة الاموية مثلا؟ - لا شك أن
حدوث ذلك كان معناه فتح باب الرقي على مصراعيه وانفساح
الشعر العربي للأغراض المختلفة التي انفسح لها اخوه الشعر
الغربي في هذه الأيام . ولكن الفافية وحدها كانت من اكبر
النكبات التي وقفت حائلا دون رقي الشعر العربي الى الحد
الذي وصل اليه الشعر الغربي ، كما أنها كانت سببا في انقراض
الشعر القصصي الطويل لدى نجدته في لغات الغرب التي
- لماك أصحابها كل سبيل يؤدي الى تسهيل النظام - وهذا
رأى يشاركنا فيه الكثيرون من أحرار التفكيرين و

واعتبرت من مستلزمات الشعر بعد أن زال السبب الذي كانت
لازمة من اجله - والافأى فائدة في التزام هذه القيود الثقيلة
حتى في شعر الفلسفة والحكم ؟ « وهو في نظرنا تعميل وجيه
لا تتردد كثيراً في قبوله

موردون هنا بعض ما قيل في هذا الصدد من السخط على القافية
قال الاديب البستاني من كلام طويل في مقدمة
الزيادة ص (١٠١) :

« رب من ترجو به دفع الاذى عنك يا نيك الاذى من قبله »
« فقد يأتي الضر من حيث يرجى النفع . فان اتساع »
« القوافي في اللغة العربية من جملة أسباب التضيق على »
« الشعراء . اذ مما طال الشاعر باعا فلا يأتي على عدد »
« معلوم من الأبيات حتى يكاد يستنزف القوافي السائغة . »
« ولهذا كان من المستحيل نظم الالوف الموائمة على قافية »
« واحدة . وهذا من جملة أسباب ضعف الشعر القصصى »
« في العربية ، واذا فرغنا وجود قافية تتسع لمثل هذا المجال »
« فالأذن تمل توالى النغمة الواحدة لأطيب الالخان . هـ »

*
* *

وقال الاستاذ العقاد في هذا الصدد ما تقتطف لكم
منه ما يلي :

« ولا مكان المريب في أن القيود الصناعية التي »
« أشرنا اليها مستجري عليها أحكام التغيير والتنقيح فان »

« أوزاننا وقوافينا أضيق من أن تنفسح لأغراض شاعر »
 « تفتحت مغالق نفسه وقرأ الشعر الغربي فرأى كيف »
 « ترحب أوزانهم بالأقاصيص المطولة والمقاصد المختلفة »
 « وكيف تلين في أيديهم القوالب الشعرية فيود عونها »
 « ما لا قدرة لشاعر عربي على وضعه في غير النثر . ألا يرى »
 « القارئ كيف سهل على العامة نظم القصص المسهبة »
 « والملاحم الضافية الصعبة في قوافيهم المطلقة ؛ وليت »
 « شعري بم يفضل الشعر العامي الشعر الفصيح إلا بمثل »
 « هذه المزية ؟ » إلى أن قل : « وما كانت العرب تنكر القافية »
 « المرسله ؛ فقد كان شعراؤهم يتساهلون في التزام القافية »
 « كما في قول الشاعر :

الا هل ترى ان لم تكن أم مائك

بملك يدي ان السكفاء قليل

رأى من رقيقيه جفاء و غاظة

إذا قم يبتلع القلوص ذميم

فقال : « أقلا واتركا الرجل انى

بملكه والعافيات تدور »

فبيناه يشرى رحله قال قائل

لمن جمل رخو الملاط نجيب

وكقول غيره :

بنات وطاء على خد الليل لا يشكين عملا ما أنقين

وقول الآخر :

جارية من ضبة بن أد كأنها في درعها المنعط الخ

وبعض هذه القوافي ، كما تراها ، قريبة مخارج الروى

وبعضها تتباعد مخارجه . واسكنهم كانوا على حالة من البداوة

والفطرة لا تسمح لغير الشعر الغنائى بالظهور والانتشار

وكانوا لا يماون مشقة في صوغ هذه الاشعار في قوالهم

فلم يلجأوا الى اطلاق القافية ، ولا سيما في شعر يعتمد في

تأثيره على رتته الموسيقية ، وجاء العروضيون فعدوا ذلك

عيبا وسموه تارة بالاكفاء وتارة بالاجازة أو الاجارة ، لقلة

ما وجد منه في شعر العرب . فلما انتقلت اللغة العربية

الى اقوام سلافية وحالهم أميل الى ضروب الشعر الاخرى

اعتسروا القوافي على داء غرامهم ولم تشعر آذانهم بهذا

الذى ساء والعروضيون عيبا في القافية فاحتملت لغتهم

المعرفة وقوافيهم المتقاربة . ما لم تحتمله أوزان الجاهلية
وقوافيها ، على أن مراعاة القافية والنعمة الموسيقية في غير
الشعر المعروف عند الافرنج بشعر الغناء (Lyric) فضول
وتقييد لا فائدة منه . هـ .

ومتى أفردنا ذلك فقد أدركنا أهمية اختراع الموشحات
وعرفنا خطرها العظيم . واي خطر أجل واكبر نقعا من
تخطيم ذلك القيد الذي رزى به الشعر العربي ؟ .

*
* *

وفي هذا الكفاية الآن في الاستدلال على الشكوى
من القافية ، وعلى فضل الغناء وأثر مجالسه في نظمه الشعر نفسه
وتحويره وضاعفه

- ٨ -

موشحة ابن المعتز^(١)

ولو لم يخترع الاندلسيون هذا النوع المسمى
بالموشحات ، لاخترعه الشرقيون ، فقد كان حتماً أن يؤدي
الغناء ومجالسه في الشرق ، الى نفس هذه النتيجة التي انتهى
اليها في الاندلس .

وفي موشحة ابن المعتز الرائعة التي سنسردها على
حضراتكم ، اكبر دليل على صحة ما نقول ، فقد انشأ ابن
المعتز تلك الموشحة الفذة ، في القرن الثالث الهجري - أي

(١) ابن المعتز

ولد سنة ٢٤٩ - وتوفي سنة ٢٩٦ هـ

اسمه عبد الله بن المعتز ولقبه أبو العباس ، تحزب له جماعة
من الاثراك وخلصوا المقتدر سنة ٢٩٦ وبايعوا ابن المعتز وصموه
المرتضى بالله ولكنه لم يلبث في الخلافة الا يوماً وليلة ، فقد تحزب
أصحاب المقتدر وتغلبوا على أعوان ابن المعتز وأعادوا المقتدر
الى دسته ، فاختفى ابن المعتز في دار بعض التجار ، فقبض عليه
وخنق من ليلته ودفن بخربة بجوار داره .

في نفس القرن الذي اخترع فيه مقدم بن معافر الفريرى
موشحاته في الانداس (١)

(١) كان مقدم بن معافر مخترع الموشحات في الانداس من شعراء
الامير عبد الله بن محمد ، أى كان معاصراً لابن المعتز ، وليس
لدينا الآن ما نرجح به أسبقية احدهما عن الآخر في اختراع هذا
الفن الجميل ، على أننا لا نستبعد أن تكون روح ذلك المصراني
أوحت الى احدهما بهذه الفكرة ، هي نفسها التي أوحت للآخر بها
فقد كان الاهتداء الى الموشحات أمراً طبيعياً ، ونتيجة
لازمة لما يقتضيه تطور الغناء ورقيه ، ويتطلبه الافتتان فيه من
زيادة الألحان وتنوعها ، وثم يزداد الشعور بنقص تلك البحر
المصطلح عليها ، عن سد هذا الفراغ الشديد ، فيندفع الناس الى
زيادة أوزان الشعر ولا يتفنون به عند الحد الذي وقف
عنده أسلافهم .

ونحن نرجو أن يساعدنا الوقت على تحقيق هذه المهمة المهمة
وتمحيصها - رغم ندرة المصادر التي يرجع اليها في هذا الموضوع

ولعل أغرب ما تذكره بهذه المناسبة ، اغفال مؤرخي الآداب
جميعاً ، ذكر هذه موشحة التي قلها بن المعتز ، كأن هذا حدث
١٨ - نظرات

واليكم موشحة ابن المعتز :
أيها الساقى اليك المشتكى ! قد دعوناك وان لم تسمع !

* * *

ونديم همت فى غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما احتفظ من سكرته
جذب الكأس اليه ، واتكى وسقانى أربعا فى أربع

الجليل ، لذى ترك أوضح أثر فى البلاغة العربية ، أقل خطراً
من اهتمام ابن المعتز بالمحسنات البدعية .

ماذا ؟ بل من ذلك البيت السخيف ، الذى لم يفت مؤرخاً
منهم ، أن يشهد به ، دليل على ابداع ابن المعتز ، ولو أنصنوا .
لعدوه من هنائه ، والبيت هو قوله :

وبد الهلال كرورق من فضة قد أثقلتته حمولة من عنبر !

* * *

ومن يك الدنيا على صدر خفى كبن لوزى أن ياحته الدور
وإفقه وشمس هذا البيت السخيف ، واكبار معناه التافه ،
المنظر المنعرج ، من محكة شاذة ، تشبيه المنسكف ، تعلقاً
بـ : : : : : رفة .

* *

ما اعینى عشیت بالنظر ؟
أنکرت بعدک ضوء القمر
واذا ما شئت ، فاسمع خبری :
عشیت عینای من طول البکا
وبکی بعضی علی بعضی معی !

غمس بن مان من حیث التوی
مات من یهواه من فرط الجوی
خفق الاحشاء موهون القوى
کله فکر فی تبیف بکی وبکله ! بیکى ما لم یقع !

~ ~

ایس بی صبر ، ولا لی حد
ی تقوی عشو و جنة
اسکرز شکوای مما حد
مثلی حلی حقه ن یشتکی . که نیس ، رفت نطعم !

* *

كبد حري ، ودمع يكف
يذرف الدمع ولا يندرف
أيها المعرض عما أصف !
قد نما حي بقلبي وزكا لا تقل في الحب إني مدعى^(١)

(١) وقد قلده ابن بقي في هذه الموشحة فقال :
غلب الشوق بقلبي فاشتكى الم الوجد فابت ادعى

أيها الناس فؤادي شغف
وهو من بني الهوي لا ينصف
كم اداريه ودمعي يكف
أيها الشادن من علمكا بسهام اللاحظ قتل السبع

بدرتم تحت ليل أغطش
طالع في غصن بان منتش
أهيف الذيد بنجد ارقش
ساحر الطرف وكم ذ فتكا بقلوب الامد بين الاضلع !

كيف كان الغناء

سببا في اختراع الموشحات

عرفنا أن الباعث الأول الذي دعا العرب الى قول

أى ريم رمته فاجتنبا
وانثني يهتز من سكر الصبا
كقضيب هزه ريح الصبا
قلت: هب لي يا حبيبي، صلكا واطرح أسباب هجري ودع

قال : خدى زهرة مذ فوفا
جردت عيناى سيفاً مرهفا
حذراً منه بان لا يقطنفا
ان من رام جناء هلكا فازل عنك خلال الطمع

* * *

ذاب قابي في هوى ضبي غرير
وجهه في الدجن صبح مستنير
وفؤادى بين كفيه أسير

لم أجد للصبر عنه مسلكا فانتصاري بانسكاب الادمع
ولكن شتان بين الموشحاتين شتان !

الشعر هو الغناء وقلنا أنه أهمل بعد حين من الزمن مدة طويلة . ولكن لم يلبث العرب أن اختلطوا بالفرس حتى عاودهم الهيام بهذا الفن مرة أخرى ، ثم شاع الغناء في الشعر ووصل تأثيره الى حد عظيم في اواخر الدولة الاموية ، وما زال يزداد حتى وصل في العصر العباسي الذهبي الى أقصاه ، وقد كان أكبر عامل على رقيه في الاندلس زرياب الموسيقي تلميذ اسحق الموصلي الذي كان امام المغنيين في الشرق . وقد وصل تأثير الغناء في الشرق أيضا الى حد عظيم . وكثيرا ما لجأ اليه الناس في اخرج الاوقات عند الخلفاء في الشرق ليأمنوا غضبهم فقد كانوا يلجئون الى القيان فينظمون المعنى ايغنيته للخليفة وهن يئامن من غضبه لاحتما من بسلطان الغناء . انظروا كيف أن اعداء البرامكة لما اعيمهم الحيلة لجؤا الى التأثير على الرشيد بالغناء ، فلقنوا احدى قياته هذين البيتين ، وهما من كلام ابن أبي ربيعة .

ليت هندا أتجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد
وايس في هذين البيتين معنى كبير ، ولاها من خير

الشعر واروعه، بل هما عاديان جدا . ولم يكن تأثيرهما على
الرشيد ليبلغ ذلك الحد، لولا الغناء وتجميع الاصوات مرارا،
بحيث لا تنتهي القينة من غنائها، حتى يكون معناها قد
تمكن من نفس الخليفة وأصبح مختلطا بلحمه ودمه لجلال
الغناء ودقة تصويره وتجسيمه لأضال المعاني وأحققها، كما
يجسم المجهر أصغر الاشياء لعين الراي . وما انتهت القينة
من انغام غنائها حتى قل الرشيد لنفسه " نعم اني عاجز .
اني عاجز ،، وذكر سلطان البرامكة وقوة نفوذهم فكان
ذلك سببا في القضاء عليهم .



وما شاع فن الغناء في الاندلس وعاد الشعر الى طاريقته
الطبيعية الاولى بل نداس تكرار الانغام التي تملؤها عن
أسلافهم فطاعوا الى ادخال بعض تحسينات على " شعر
وأوضاعه وزادت حاجتهم الى رفع شيء من هذه القيود
التي رزى بها الشعر العربي . ولكن التقليد الذي أظهرنا
لحفرياتكم أثره الشديد في نفوسهم ونظرتهم الى عرب
السابقين نظر التلميذ الى استاذه وقف في وجوههم زمنا

طويلاً . ثم ماذا كان ؟ تغلبت طبيعة الرقي وسلطان الغناء
على تلك المراقيل ، فاندفعوا بجرأة وقوة في تحطيم أكبر قيد
كان له أشنع الأثر في تأخر الشعر العربي . نعتى به ذلك
النظام الخاص الذي اتبعه أسلافهم في طريقة النظم ، وهو
أن يتقيدوا بخمسة عشر بحراً فلا يحيدون عنها ولا يتخطونها
بمحال ما ، وليس لهذا التطور العظيم من سبب سوى الغناء ؛

كانت الموشحات مما يتغنى به

وقد ارتاب حضرة الدكتور ضيف في أن الموشحات كانت مما يتغنى به ، وطلب اليما أن تأتي بمثل نستدل به على ذلك . وانا موردون هنا الحكاية التالية . مجتزئين بها عن سواها لضيق المقام ، قال ابن خلدون في مقدمته : « وكانت في عصرهم ^(١) أيضا الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب الملاحين المعروفة ^(٢) . ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت ، صاحب سرقسطة ، فلقى على قيانته موشحته :

جرر الذيل أيا جر وصل الشكر منك باشكر
فطرب المدوح لذلك ، فلما ختمها بقوله :
عقد الله راية النصر لأمير الملا بني بكر
قلوا : « وما طرق ذلك التاجين سمع ابن تيفلويت ،
حتى صاح : « واطرباه » وشق ثيابه وقال : « ما أحسن ما بدأت

(١) يعني في عصر ابن بقي والبطلبومي

(٢) انظر الى قوله صاحب التلاحين المعروفة

به وما ختمت وحاف الايمان المنلظة لايشي ابن باجة الى
داره الا على الذهب^(١) نخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتمل
أن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه^(٢) «

حسبنا هذا المثل لنستدل به على أن الغناء في الموشحات
كان امراً هالوفاً - وهو في نظرنا أمر يترفع عن الجدل
والتشكك وإن نظرة واحدة بادنى تأمل الى نسق الموشحات
وطريقة إنشائها ، كفيلاً باقناعنا أنها لم تخلق الا لبتغني بها .

* * *

ولا بأس أن نختم هذه المحاضرة بكلمة جامعة شاملة
لابن خلدون تعد بمثابة الملمة موجزة بتأريخ الغناء وهي الكلمة
التي وعدنا حضراتكم بها في أوائل هذه المحاضرة حتي يسهل
عليها الخروج بصورة واضحة عن محتويات هذا الفصل

(١) المعنى تافه صحيح قد انهكه طول التكرار والشروع فما
السرف في كل هذا الادجاء ؟ ليس لهذا من سبب سوى روعة
الالخان وجمال التوقيع وحسن صوت المغني ، والا فانا نستبعد
ان يصل عقل صاحب مرقطة من السخف الى حد ان يؤثر فيه
هذا المعنى وأشباهه دون أن يكون لهذا سبب آخر !

(٢) مقدمة ابن خلدون

الغناء

قال ابن خلدون من فصل عقده على الغناء تقتطف لكم منه ما يلي .
« هذه الصناعة (١) هي تلحين الاشعار الموزونة ، بتقطيع
الأصوات على نسب منتظمة معروفة ، بوقع على كل صوت منها
توقيماً عند قطعه ، فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها
الى بعض ، على نسبة متعارفة ، فيلذ سمعها لاجل ذلك المناسب
وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوت »
الى أن قال بعد كلام طويل :

« واذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران اذا
توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاحي ثم الى الكفاي وتفننوا .
فتحدث هذه الصناعة ، لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع
حاجاته الضرورية والاهمة من المعاش والمزول وغيره ، فلا يطالبها
الا انفارغون عن سائر احوالهم تفنناً في مذهب الهندوت ،
وكان في سلطانت الهجم قبل ائمة منها بحر زاخر في امصارهم
ومدنتهم ، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتى لقد
كان للملوك اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم ،

(١) صناعة نغمة

وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويفنون فيها ، وهذا شأن
 للعجم لهذا العهد في كل افق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم -
 وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء
 متساوية على تناسب بينهما في عدة حروفها المتحركة والساكنة
 ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها
 مستقلاً بالافادة لا ينقطع على الآخر ويسمونه البيت ، فتلائم
 الطبع بالتجزئة أولاً ، ثم يتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادئ ،
 ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها ، فلم يجوا به ،
 فامتاز من كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره ، لاجل اختصاصه
 بهذا التناسب ، وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ،
 ومحكمات لقرائتهم في اصابة المعاني واجادة الاساليب ، واستمروا
 على ذلك وعلى هذا التناسب الذي من أجل الاجزاء والمتحرك
 والساكن الحروف كما هو معروف في كتب الموسيقى ، الا انهم لم
 يشعروا بما سواه لانهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة
 وكانت البداوة أغلب نحلهم ، ثم تغنى الحداة منهم في حداث ابلهم
 ولغتيان في نضاء خلواتهم فرجموا الاصوات وترنموا ، وكانوا
 يسمون الترجم اذا كان بالشعر غناء ، واذا كان بالتهليل أو نوع
 القراءة تغبيراً ، بالغين المعجمة والباء الموحدة ، وعلمها ابو اسحق
 اثرجاج بأنها تذكر بالغير ، وهو البقي ، أي بالاحوال الآخرة ،

وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكر ابن
 رشيق آخر كتاب العمدة وغيره ، وكانوا يسمونه السناد ، وكان
 أكثر ما يكون منهم في الخفيف منه ، الذي يرقص عليه ويمشي
 بالدف والمزمار ، فتطرب ويستخف الحلوم ، وكانوا يسمون هذا
 الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين ، وهو من اوائها ولا يبعد
 أن تنقطن له الطباع من غير تعليم ، شأن البسائط كلها من القصائد
 * *

ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم ، فلما جاء
 الاسلام واستولوا ، على ممالك الدنيا ، وحازوا سلطان المعجم
 وغلبوهم عليه ، وكانوا من البداوة والغضاضة على الحسان التي
 عرفت لهم ، مع غضارة لدين وشدة في ترك أحوال الفرج وما
 ليس بشاق في دين ولا معاش ، فهجروا ذلك شيئاً ما ،
 ولم يكن نالوذ عندهم الا ترجيع القراءة والقرنم بالشعر
 الذي هو دينهم ومذهبهم ، فما جاءهم اتترف ، وغلب عليهم الرفق
 بما حصل لهم من غناء لأمم ، صاروا الى نضرة العيش ورقرة
 الحاشية واستحلاء قمر غ

وافترق المغنون من الفرس والروم ، فوقعوا الى الحجاز .
 وصاروا موالى للعرب ، وغنوا جميعاً بالعبدن والطاير ،
 والمعازف والمزامير ، وسمع العرب تلحينهم للاصوات ، فليحنوا
 عليها أشعارهم ، وظهر بالمدينة شيطان فرسي ، وضويس وسائب

خائر ، مولى عبد الله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه ،
وأجادوا فيه وطار لهم ذكر

ثم أخذ عنهم معبد وطبقته ، وابن سريج وأنظاره ، وما
زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباسى ، عند
ابراهيم بن المهدي ، وابراهيم الموصلي ، وابنه اسحق وابنه حماد ،
وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ، ما تبعه الحديث بعده به
وبجلسه لهذا العهد ، وأمعنوا في اللهو واللعب ، واتخذت
آلات الرقص في الملابس والقضبان والاشعار التي يترنم بها عليه ،
وجعل صنفا وحده ، واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرد ،
وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها
الانسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكرونها ويفرون ويشاققون ،
وأما ذلك من اللعب الممدق والاعراس وأيام الاعياد
ومجلس التمرغ واللهو



وكثر ذلك ببغداد ومصر والعراق ، وانتشر منها الى غيرها
وكان امر صيين السلام معه زرياب ، أخذ عنهم الغناء فأجاد ،
وبعد عنه في الخيرة ، فالحق بالحكم (بن هشام ابن

السندي) وقد نعى حكم وهو في طريق تدهاب اليه ،

عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس ، فبالغ في تكريمته ، وركب
للقائه ، وأسنى له الجوائز والافطامات والجريات (١) ، وأحله
من دولته وندمائه بمكان ، فأورث الاندلس من صناعة الغناء
ما تناقلوه الى أزمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر ،
وتناقل منها بعد ذهاب غضايتها الى بلاد المدونة بأفريقية والمغرب ،
وانقسم على امصارها ، وبها الآن منها صباية ، على تراجع
عمرانها ، وتناقص دولها . اهـ »

الأزجال

« ولما شاع فن التوشيح في أهل الاندلس ^(١) ، وأخذ به الجمهور اسلاسته وتنميق كلامه وترصيع ابتدائه ، نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ، ونظموا طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلزموا بها اعراباً ، واستحدثوه فأسموه بلزجالي والتزموا النظم فيه على مناصبهم الى هذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة ، قالوا : وأول من أبدع هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قزمان ، وإن كانت قيات قبله في الاندلس ، لكن لم يظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها ، واشتهرت رشاقتها ، لا في زمانه ، وكان لعهد الملتمين ، وهو امام الزجاليين على الاطلاق »

قال ابن سعيد : « ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بخواصر الغرب ^(٢) »

(١) ابن خلدون

(٢) رشاد بن قزمان بقرطبة ، وكان كثير التردد على اشبيلية

واليكم بضع أمثلة من أعلى نماذج الزجل :

(١)

قال قاسم ابن عبود الرياحي في ختام زجل له :
ما أعجب حديثي إيش هدا الجنون ؟
نطلب وندبر أمراً لا يكون ؟
وكم ذا نهوت أمراً لا يهوت ؟
واش مقدار ما نصبر لبعده الحبيب ؟
رب اجمني معو عاجلاً قريب .

وقد وصلت شهرته لي حد أن عدده الناس في زجل كالمثني في الشعر ، وذاعت أزجاله حتى رويت ببغداد ، حيث بقيت نجاحاً أكبر من نجاحها بحوض المغرب ، كما قال ابن سعيد .

ثم جاء عبدة المعروف بمدغليس ، بعد ابن قزمان هـ ، فكان خليفته بحق ، وقد زادت شهرته حتى عد في الزجل كابي تمام في الشعر .

وانما شبه ابن قزمان بالمتني ومدغليس ببي تمام لالتفت الاول الى المعنى والتفات الثاني الى النظم .

(٢)

وقال بعضهم :

يا حادى العيس ازجر بالمطايا زجر
وقف على منزل احبابي قبيل الفجر
وصيـح في حـيـهم : «يا من يريد الأجر !
ينهض يصلى على ميت قتيل الهجر ! »

(٣)

وقال آخر :

عيني التي كنت أرها كم بها باتت
توعى النجوم ، وبالتسديد اقتاتت
وأسهم البين صابتي ولا فانت
وسلو تي - عظم الله أجركم - ماتت

(٤)

وقال رابع :

لى دهر بعشق جفونك وسنين
وأنت لاشفقة ولا قاب يلين

الى أن يقول في ختام زجله :
خلق الله النصارى للغزو^(١) وأنت تغزو قلوب العاشقين

(٥)

ومما اختاره ابن خلدون ، من زجل أهل مصر القاهرة ،
وأحسن في اختياره كل الاحسان ، قول بعضهم في ذلك العصر

هذى جراحى طريا والدماء تنضح
وقاتلى يا أخيا فى الفلا يمرح !
قائوا : « وناخذ بتارك » قلت : « ذا أقبح ! »

* * *

« وقد عم فن الزجل فى الاندلس ، حتى كان العامة
ينظمون فيه بطريقتهم العامية فى سائر البحور الخمسة
عشر^(٢) »

(١) وهذا المعنى يمثل لكم تسمية هاهنا لدنصر، وروحهم
المشتبعة بالغزو والجهاد . (٢) ابن خلدون

هشام الثاني^(١)

وحاجبه المنصور^(٢)

خلف الحكم الثاني^(٣) لولاية الحكم من بعده ، ولداً في الحادية عشرة من عمره ، وهو هشام الثاني^(٤) الذي انتقل اليه لقب الخلافة ، في حين كانت تدير دفة سياسة الحكومة امه صباح ، وحاجبه الشديد الطموح والأثرة ، محمد بن أبي عامر ، الذي كان ملك اسبانيا الحقيقي

(١) معربة عن كتاب الاستاذ نيكاسون .

(٢) اسمه محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، وكنيته أبو عامر ، ولم يتلقب بهذا اللقب «المنصور» الا فيما بعد ، حين اسنتب له الامر ، وحصر السلطة في يده ، كما سيمر بك وأصله من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، من قرية من أعمالها تسمى طرش على نهر وادي آروا

(٣) مات الحكم الثاني اثر اصابة فُج أُلُزمته الفراش والحت عليه حتى أودت به في سنة ٣٦٦ هـ

(٤) ولي هشام الملك في سنة ٣٦٦ ومات في سنة ٤٠٣ هـ .

ومها حدسنا في تلك الوسائل التي نهض بها الى مكانته
الرفيعة ، ومها قيل عن سوء معاملته لذلك الخليفة التمس
(هشام) الذي تعمد المنصور قتل مواهبه العقلية وقضي
عليه أن يعيش مبعداً عن الناس ، في عزلة كمزلة الرهاب ،
فان من المحال أن تنكر عليه أنه ساس البلاد بإحكام ونبل ،
وأنه كان سياسياً محنكاً ، كما كان جندياً عظيماً :

وانتقد لقب نفسه « بالمنصور » فلم يجرؤ أحد أن ينكر
عليه جذوته بهذا اللقب ، أو بعده من فييل ولوع الكسالى
بالفخر الكاذب ، وحسبك دليلاً على أحقيته به ، أنه كان
يقود جيشه لغزو المسيحيين مرتين في كل عام ، وأنه صار
لقب « بذي القرنين » لأنه غزا في كل سنة من غزواته
التي أدبت على جنسين :

(١) باحدث قورخوناً في غزواته وخدمته غزوة في جهته ،
لم تذكر في أخباره ، وإنما هي في حاشيته .

ولما مات المنصور في سنة ١٠٠٢ م (١) كتب راهب
مسيحي في سجل مذكراته الذي كان يقيد فيه الحوادث ،
الجملة التالية ، تعليقاً على خبر موته : « وقد دفن في الجحيم ! »
أما المسلمون ، فنقشوا على قبر بطلهم البيتين التاليين :
آثاره تنبيك عن أوصافه حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ، ولا يحصى الشغور سواه
« ا . هـ »

(١) سنة ٣٩٤ هـ . من سبع وعشرين سنة من ملكه .

كيف وصل المنصور الى الملك؟

— ١ —

وفوده الى قرطبة

وفد المنصور الى قرطبة شابا ، فوجه عنايته الى تحصيل العلم والآداب وحفظ الحديث ، فبرع في ذلك كله ، وتفوق على اقرانه

— ٢ —

تعلقه بالسيدة صبح (١)

و ثم اقتعد دكانا عند باب القصر ، يكتب فيه لمن يعن له كتب من الخدم و لرافقين الى السلطان ، الى أن طابت السيدة صبح ، من يكتب عنها ، فمر بها به من كن يأنس اليه بالجنوس من فتيان القصر ، فترقى الى أن كتب عنها ، فاستحسنته (٢) .

(١) هي أم الخليفة هشام النويدي وقد مر ذكرها في ص (٢٩٢)

(٢) بن سعيد

تدرجهم في المناصب

« فنبهت عليه الحكيم ، ورغبت في تشريفه بالخدمة ،
فولاه قضاء بعض المواضع ، فظهرت منه نجابة ، فترقى الى
الزكاة والمواريث بأشبيلية

وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف
والخدمة ، ما لم يتمكن غيره (١) ،

وما زال يرتفع شأنه ، وينبه ذكره ، حتى نقله الحكيم
من خطة القضاء الى وزارته

طريقه الى الملك

وان باتبعه الفرس ، حتى قاتل ملك الهند ،
فترقى الى رتبة وزير ، فخيل له من قبله
فقدومه الى مصر .

« ثم سماه أمل في التغلب على هشام ^(٢) المكنى في
السن ، وثاب له رأى في الاستبداد ، فسكر بأهل الدولة ،
وتغلب على هشام وحججه . ^(٣) واستولى على لدولة وهلال
الذي وعو في «نه» مع أميرة خلافة ، خضوعه ،
ورد الأمور إليها ^(٤) وترديد الغزو والحد ، فانت له

[illegible]

— 1 —

۱) حتی من نور من نور من نور من نور

الحمد لله الذي جعلنا من عباده المخلصين

أفطار الأنداس كلها ، ولم يضطرب عليه شيء

أثر المنصور في الأندلس

- ١ -

محق العصبية

أظهر المنصور من ضروب الحزامة والدربة ما دانت له به
أفطار الأنداس كلها ، فلم يضطرب عليه شيء منها في أيام
حياته ، لدهائه وحسن سياسته ، وقوة شخصيته
وأعمال أكبر مما قام به في توطيد الأمر بالأنداس ،
هو استئصاله تلك العصبية الممقوتة التي كانت ضاربة
أطنابها في الأنداس (١)

عليهم وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضاً ببعض ، كل ذلك عن
أمر هشام وخطه وتوقيعه ، حتى اعتأصلهم وفرق جموعهم ،
ولما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة ، رجع
إلى جند المستعصى أهل المدينة من رجال زناته والبرابرة ،
فرتب منهم جندا ، واصطنع أولياءه

(١) « وكان عرب الأندلس يعترفون بالقبائل والشاثر

بناء مدينة الزاهرة

ولا يسعنا أن ننقل الإشارة إلى تلك المدينة العظيمة
« الزاهرة »، التي بناها لنفسه، وتقل إليها خزائن الأموال
والأسلحة (١)

والبطون والأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المصور بن أبي عامر
الداهية، الذي ملك سلطنة الأندلس. وقصد بذلك تهنيئتهم،
وقطع التباهي وتمصيبهم في الاعتداء.
وقدم القواد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد
فرق من كل قبيل.

فتمسكت عادة الفتن والاعتزاز بالأندلس، إلا ما جاءت على
غير هذه أم. « أمقرى

(١) وقد حدث لمؤرخون أنه قدم على سر روث وأمر
أن يجي بتحية مؤثمة، وتسمي منذ ذلك الحين بالحجب المنصور،
ونفذت الكتب ونخطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له علي
المباير باسمه عقب الدعاء للخليفة الذي حرم من كل سلطنة وه
يسبق له من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المسير، فقد استثر
المنصور دونه بكل شيء حتى كتب اسمه في السكة والطرر.

ولعه بالغزو

واقعد بالغ به حبه الشديد للغزو، حداً قل أن نرى له مثيلاً
في سواه، فقد بالغ عدد غزواته ستاً وخمسين غزوة، كما
قدمنا^(١) فنزع منه نصارى الأندلس، واشتد بهم الرعب
حتى 'قبوه بمطرفة الغضب الإلهي كما رواه دوزي في الفصل
الذي عربناه لحضراتكم في محاضرة سابقة^(٢)

* * *

وفي الكلمة التالية التي نقلها عن كتاب المصنف
ما يزيدكم قناعة بذلك، قال:

« وفتح فتوحاً كثيرة، ووصل إلى معقل قد كانت
متنعت عني من كان قبله، وملاً الأندلس غنائم وسبياً من
الرجال والنساء والصبيان، وبلغت إلى نواحي
إسبانيا، فبما يجهزون به بغاتهم من الشباب والخيول والدرر،
كانت يخصصون ذلك لبيته، فكانت له من يرغبون في
الغزو، فزاد من ذلك، وكرهوا ذلك، لم يخرج

١ - ج ١ ص ٩٣ - وفي رواية أخرى ٥٢ عزوه

٢ - ج ١ ص ٩٣

أحد حرة !، قال : « بلغنى أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء
الروم بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع ، فلم تساوأ أكثر
من عشرين ديناراً عامرية ، »

مثال من صرامته

قالوا : « وقد انتهت هيبة المنصور بن أبى عامر ،
وضبطه للجند ، الى غاية لم يبلغها ملك قبله ، فكانت مواقفهم
في الميدان على احتفاله ، مثلاً في الاطراق ، حتى إن الخيل
لتمثل اطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والجمجمة ، »



« ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض
الجند بأقصى الميدان - لهزل أو جد ، بحيث ظن أن خط
المنصور لا يناله - فقال : « علي بشاهر السيف ، » فمثل بين
يديه لوقته ، فقال : « ما حملك على أن شهرت سيفك في
مكان لا يشهر فيه الا عن اذن ؟ »

فقال : « انى أشرت به علي صاحبي منعدا ، فداق

من غمده ! ، »

فقال : « ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ! » ، وأمر به
فخضرت عنقه بسيفه ، وطيف برأسه ، ونودي عليه بذنبه

مثال من فطنته

قدم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس ،
فتجرد ليسبح في النهر ، وترك الكيس - وكان احمر - إلى
تيابه ، فرغمته حداثة في مخالبتها ، فخرى تابعا لها وقد ذهل ،
فتغلغات في البساتين ، وانقطعت عن عينه ، فرجع متحيراً
فشكا ذلك الى بعض من يأنس به ، فقال له : « وصف
حالك لابن أبي عامر » ،

فتلطف في وصف ذلك بين يديه ، فقال : « ننظر
إن شاء الله في شأنك » ، وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين
ويسأل خدامها عن ظهر عليه تبديل حاله ، فأخبروه أن
شخصاً ينقل الزبل ، اشترى حماراً ، وظهر من حاله ما لم
يكن قبل ذلك .

فأمر بجيئته . فلما وقعت عينه عليه قال له : « أحضر
"كيس الأحمر" فتملك الرعب قلبه وارتعش ، وقال :

» دعنى آت به من منزلى «،

فوكل به من حمله الى منزله وجاء بالسكيس وقد نقص
منه ما لا يقدح فى مسرة صاحبه ، فخبّره ودفعه الى صاحبه
فقال : » والله لا حدثن فى مشارق الارض ومغاربها
أن ابن أبى عامر يحكم على الطيور ؛ وينصف منها « ،
والنفث ابن أبى عامر الى الزبال وقال له : » لو أتيت
به أغنيئك ، لكن تخرج كفافا لا عقابا ولا ثوابا (١) « ،

نفاذ بصيرتى

» وكان من عادته ، اذا أراد أمرا مها ، شاور أرباب
الدولة الاكابر ، من خدام الدولة الاموية ، فيشيرون
عليه بالوجه الذى عرفوه ، وجرت الدولة الاموية عليه ،
فيخالفهم الى المنهج الذى ابتدعه ، فيقتضون فى نفسه
بالهلاك فى الطريق الذى سلكه ، وانهميع الذى اخترعه ،
فتسفر العاقبة عن السلامة التامة ، التى اقتضاها سعده .
فيكثرئون التعجب من موارد اموره ومصادرها (٢)

(١) ابن سميذ (٢) نفح الطيب

شعوره بجده

واعلم أهم ما يسترعى نظر الباحثين ، من مزايا المنصور
شعوره بجده ، فقد صحبه هذا الشعور من عهد حداثته ،
وكان له في رفعته أكبر أثر ، فشجعه على مواجهة
الشدائد ، وتذليل العقبات التي اعترضته في سبيل نهوضه
وكان المنصور كان يحس في نفسه احساسا خفيا ، بسعود
جده ونباهة شأنه في مستقبل أمره ، وكأنه كان يشعر تماما
أن الزمان لا شك مخالفه ، وأن الظروف بلا ريب ستعينه
على بلوغ اربته ، فكان له من ذلك الشعور الخفى قوة هائلة
سحقت امامها كل اعتبارا



وليس أدل على ذلك من الحكايات الثلاث التالية ،
التي تمثل اولاهها وثانيتها ، وهو في بدء حياته ، يحلم بالسيطرة
والحكم ، أبعد ما يكون عن الوصول اليهما ، ولكنه
يراهما - رغم ذلك - قاب قوسين منه أوادنى ، ويشعر تماما
أنهما في متناول يده بعد قليل ، وتشتد به الثقة الى حد أن

يحدث بعض أصدقائه بما يقع له في ذلك ، بل إلى حد
أن يفكر في تعيين من يصلح للمناصب ، وهو ناشئ
يطلب العلم

* *

ونراه في الحكاية الثالثة - وهو في أيام رفعة بعد أن
حافه الجد وتم له الأمر - واثقا من دوام محافة الزمان له ،
مطمئنا إلى جده ، ساخرا بكل شؤم يصادفه ، ليقينه من
تغلب سعادته على كل عقبة تعترضه

— ١ —

واليك الحكاية الأولى :

حكى أبو عبد الله بن اسحق التميمي ، قل :
« كان محمد بن أبي عامر نزلنا عندي في حجرة فوق
بيتي ، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل ، فوجدته
قاعدا على الحال التي تركته عليها أول ليل حين فصلت
عنه ، فقلت له : « ما أراك نمت الليلة ! » ، قل : « لا ؟ » ،
قلت : « فما أسهرك ؟ » ، قل : « فكرة عجيبة ! » ، قلت :

« فَمَاذَا كُنْتَ تَفْكُرُ ؟ » ، قَالَ : « فَكَّرْتُ إِذَا أَفْضَى إِلَيَّ
الْأَمْرُ وَمَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرٍ الْقَاضِي ، بَعِنَ أُسْتَبْدَلَهُ ، وَمَنْ
الَّذِي يَقُومُ مَقَامَهُ ، فَجَلْتُ الْإِتْدَلَسَ كُلَّهَا بِخَاطِرِي ، فَلَمْ أَجِدْ
إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا ، قُلْتُ : « لَعَلَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ السَّالِمِ ؟ » ، قَالَ :
« هُوَ وَاللَّهِ هُوَ ! لَشَدَّ مَا اتَّفَقَ خَاطِرِي وَخَاطِرُكَ ^(١) » ،

- ٢ -

وَالْيَكْمُ الْحِكَايَةُ الثَّانِيَّةُ

كَانَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ ^(٢) يَوْمًا جَالِسًا مَعَ ثَلَاثَةِ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ
طَلَبَةِ الْعِلْمِ ، فَقَالَ لَهُمْ : « لِيَخْتَرِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ خُطَّةَ أَوَّلِيهِ
إِيَّاهَا إِذَا أَفْضَى إِلَيَّ الْأَمْرُ » ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : « تَوَلَّيْنِي قَضَاءَ
كَوْرَةِ رِيَّةٍ - وَهِيَ مَالِقَةٌ وَأَعْمَالُهَا - فَأَنَّهُ يَعْجِبُنِي هَذَا التِّينُ
الَّذِي يَجِيءُ مِنْهَا » ، وَقَالَ الْآخَرُ : « تَوَلَّيْنِي حَسْبَةُ السُّوقِ ،
فَنِي أَحَبُّ هَذَا الْإِسْفَنْجِ » ، وَقَالَ الثَّالثُ : « إِذَا أَفْضَى إِلَيْكَ
الْأَمْرُ ، فَأَمْرُ أَنْ يَطَافَ بِي قُرْطُبَةٌ كُلُّهَا عَلَى حِمَارٍ وَوَجْهِي
إِلَى الزَّائِبِ وَأَنَا مَطْلِي بِالْعَسَلِ ، لِيَجْتَمَعَ عَلَيَّ الزَّائِبُ وَالنَّحْلُ ^(٣) » ،

(١) : الْمَعْجَبُ (٢) : الْمَعْجَبُ

(٣) : « وَافْتَرَقُوا عَنِّي هَذَا » ، فَلَمَّا أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَيْهِ كَمَا تَنَبَّأَ ،

واليكم الحكاية الثالثة^(١)

قيل له مرة : « ان فلانا مشغوم ، فلا تستخدمه ! »
فقال : « اف لسعد لا يغطى على شؤمه^(٢) »

مثال من تأملاته

وكان كثير التأمل ، شديد الخوف على هذا الملك
العظيم الذى بذل قصارى وسعه فى تثبيت دعائه ، أن
تذهب به عواصف الفتن بعده ، وكأنه كان على ثقة أن
سبل الفوضى الجارف - الذى وقف أمامه سدا منيعا ،
فانقذ البلاد من طغيانه ، بحكمته وشدة أيده ، سوف لا بد
يغمرها دمة واحدة ، بعد ممته بقليل ، ومن أمثلة هذه
التأملات التى كانت تشغل رأسه أحيد . . . يروي :
فى القصة الناية :

بلغ كل واحد منهم منيته على نحو ما ذهب «

(١) نصح الطبيب (٢) قلوب « لا تستخدمه » ، « لا تستخدمه »
لدى حرت به « قشبي »

كان المنصور في قصره بالزاهره ، فتأمل محاسنه ،
ونظر الى مياهه المطردة ، وانصت لاطياريه المفردة ، وملاً
عينه من الذي حواه من حسن وجمال ، والتفت في الزاهرة
من اليمين الى الشمال ، فأنحدرت دموعه ، وتجهم ، وقال :
« ويها لك يا زاهرة ! فليت شعري من الخائن الذي
يكون خرابك علي يديه عن قريب ؟ »

فقال له بعض خاصته : « ما هذا الكلام الذي ما سمعناه
من مولانا قط ؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله
شغل البال به ؟ »

فقال : « والله لترون ما قلت ، وكأني بمحاسن الزاهرة
قد محيت ، ورسومها قد غيرت ، وبمبانيها قد هدمت ونحيت
وبخزائنها قد نهبت ، وبساحاتها قد اضرمت بنار الفتنة
وألهبت (١) »

(١) ولقد صحت نبوءته ، وحقت الايام صدق حدوسه ،
قال الحاكي . « فلم يكن الا أن توفي المنصور ، وتولى المظفر - ولم
تطل مدته - فقام بالامر أخوه عبدالرحمن الملقب « بسنجول »
فقم عليه المهدي والعامه ، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة -

أثر البلاغة في نفسه

وكان المنصور ككل عربي ، تهزه البلاغة ، ويملك نفسه الجواب الحاضر ، وربما كان ادل مثل نسوقه على ذلك ، الحكاية التالية :

— ١ —

« كان بقرطبة على عهد المنصور ، فتي من أهل الادب قد رقت حاله في الطلب ، فتعلق بكتاب العمل ، واختلف الى الخزانة حتي قلد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيرا من المال ، فلما ضم الى الحساب ، ابرز عليه ثلاثة آلاف دينار فرفع خبره الى المنصور ، فمر بأحضاره ، فلما مثل بين يديه ، ولزم الاقرار بما يوز عليه ، قل له :

« يا فاسق ما الذي جرأك على ما السلطان تنهيه ؟ »
فقال : « قضاء غاب الرأي ، وفقر أفسد الامانة ! »

وانقرضت دولة بني حامر ، ولم يبق منهم أمر :
كان لم يكن بين الحجوف الى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سمر
بلى ! نحن كنا اهلها ، فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

فقال المنصور : « والله لا جعلناك نكالا لغيرك ، ليحضر
كبل وحداد »

فاحضرا ، فكبل الفتى ، وقال : « أحملوه الى السجن ،
وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :
أواه ! أواه ! كم ذا أرى أكثر من تذكار أواه
ما لأمريء حول ولا قوة الحول والقوة لله !
فقال المنصور « ردوه ! » فلما ردوه ، قال « أتتملت أم
قلت ؟ »

قال : « بل قلت » فقال : « حلوا عنه كبله » فلما حل
عنه ، أنشأ يقول :

أما ترى عفو أبي طاهر لا بد أن تتبعه منة
كذلك الله إذا ما عفا عن عبده أدخله الجنة
فأمر بإطلاقه ، وسوغه ذلك المال ، وأبرأه من التبعة فيه (١)

مثال من بلاغته

نموذج من نثره

المنصور والرمادى

وانتهز هذه المناسبة ، لعرض على حضراتكم مثلاً من
نثره ، تبيينون منه القصة التى وصلت إليها بلاغته ، ونمسك
القلم عن التعاليق عليه رغبة فى توخى الإيجاز الذى يضطرنا
إليه ضيق الوقت ، واليكم يساق الحديث :

قال المنصور للرمادى الشاعر المشهور :

« كيف ترى حالك معي ؟ »

فقال : « فوق قدرى ودون قدرك ! »

فأطرق المنصور كالغضبان ، فأنسل الرمادى ، وخرج
وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول : « أخطأت والله ،
ما يفاح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرئى لو قلت
له : « انى بلغت السماء ، وتمنطقت بأجوزاء ، وأنشدته :

متى يأت هذا الموت لم يلف حاجة

لنفسى الا قد قضيت قضاه

لا حول ولا قوة الا بالله ! »

ولما خرج كان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة ، فقال : « وصل الله لمولانا الظفر والسعد ، إن هذا الصنف صنف زور وهذيان ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلا ولا ذمة ، كلاب من غلب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجذب ، وحسبك منهم ان الله جل جلاله يقول فيهم : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » الى آخر الآية ، فالابتعاد منهم اولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم ، الصدق يستحسن الامنهم ؟ »

*
* *

فرفع المنصور رأسه ، وقد اسود وجهه وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال :

ما بال قوم يشيرون في شيء لم يستشاروا فيه ، ويسبثون الأدب بالحكم فيما لا يدرون أيرضي أم يسخط ؟ وأنت أيها المنبعث للشر دون أن يبعث ! قد علمنا غرضك في أهل الأدب والشعر عامة ، وحسدك لهم ، لأن الناس كما قد نقول :

من رأى الناس له فضلا عليهم حسدوه
وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة ، ولسنا ان
شاء الله نبلغ احدا غرضه في أحد ، ولو بلغناكم بلغنا في
جانبيكم ، وانك ضربت في حديد بارد ، وأخطأت وجه
الصواب ، فزدت بذلك احتقارا وصغارا ، واني ما اطرفت
من خطاب الرمادي انكارا عليه ، بل رأيت كلاما يحل
عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تهديده له بسرعة ، واستنباطه
له على قلبه من الاحسان الغامر ، ما لا يستنبطه غيره
بالكثير !

والله لو حكمته في بيوت الاموال ، لرأيت أنها
لا ترجع ما تكلم به قلبه ذرة
*
* *

واياكم أن يعود احد منكم الى الكلام في شخص قبل
أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا في أوليئنا ، ولوا بصرتهم
منا التغير عليهم ، فانا لا تغير عليهم بغضا لهم ، ونحراف
عنهم ، بل تأديبا وانكرا !
فانا من نريد ابعاده ، لم نظهر له التغير ، بل ننبذه

مرة واحدة ، فان التغير انما يكون لمن يراد استبقاؤه ،
ولو كنت مائل السمع لكل احد منكم في صاحبه ، لتفرقم
أيدي سبا وجونيت أنا مجانية الاجرب

واني - وقد اطلعتكم على ما في ضميري ، فلا تعدلوا
عن مرضاتي ، فتجنبوا سخطي بما جنيتموه على انفسكم »

* * *

قالوا : ثم أمر أن يرد الرمادي ، وقال له : « أعد على
كلامك ! » فارتاع فقال : « الامر على خلاف ما قدرت ،
الثواب اولى بكلامك من العقاب » فسكن لتأنيسه وأعاد
ما تكلم به ، فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان ابن المنذر
حشي فم النابغة بالدر ، لكلام استحسنه منه ، وقد امرنا
لك بما لا يقصر عن ذلك ، ما هو أنوه واحسن عائدة ،
وكتب له بمال وخلم وموضع يتعيش منه

* * *

ثم رد رأسه الى المتكلم في شأن الرمادي ، وقد كاد
يغوص في الارض - لو وجد - لشدة ما حل به ، عما سمع
ورأى ، قل : - والعجب من قوم يقولون : « الابتعاد من

الشعراء اولي من الاقتراب « نعم ! ذلك لمن ليس له مفاخر
يريد تخليدها ، ولا أيادي برغب في نشرها ، فأين الذين
قيل فيهم :

على مكثريهم رزق من يعتريهم

وعند المقلين السباحة والبذل

وأين الذي قيل فيه :

انما الدنيا أبو دلف بين مبداه ومختصره

فاذا ولي أبو دلف ولت الدنيا على أثره

أما كان في الجاهلية والاسلام أكرم ممن قيل فيه

هذا القول ؟ بلى ! ولكن صحة الشعراء والاحسان لهم

أحييت غابر ذكركم ، وخصتهم بمفاخر عصرهم ، وغيرهم

تخلد الامداح ما أثرهم ، فدثر ذكركم ، ودرس نثرهم^(١) ،

مثالان من شعرة

أما شعره ، الذي عثرنا به ، فلا يتجاوز بضع أبيات قال
بعضها مفتخرا بمصاميته ، وبعد مرقى همته ، وقال بعضها
الآخر في إظهار طموح نفسه الى ملك مصر والحجاز

- ١ -

أما أولها فقوله :

رميت بنفسي هول كل عزيمة
وخاطرت ، والحر الكريم بخاطر
وما صاحبي الا جنات مشيع
وأسمر خطي ، وأبيض باتر (١)
فسدت بنفسى أهل كل سيادة
وفاخرت ، حتى لم أجد من أفاخر

(١) لعل خير من أبدع في هذا المعنى ، هو عمرو بن سراقه
الهمداني ، في ميميته المتأججة بنار الحماس ، حين يقول :
متى تصعب القلب الذكي ، وصارما
وأتما حيا ، نجتنبك المظالم !

وثانيهما قوله :

منع العين أن تذوق الناما
حبها أن ترى الصفا والمقام
لى ديون بالشرق ، عند أناس
قد أحلوا بالمشعرين الحراما
ان فضوها نالوا الأمان ، وإلا
جعلوا دونها رقبا وهاما
عن قريب ترى خيول هشام^(١)
يبلغ النيل خطوها والشاما

(١) يعنى جيش هشام الثاني ، الخليفة الصوري

فماذج

من مجالس الأدب ومجالس اللاهوت في الأندلس

في زمن المنصور

« وكان للمنصور مجلس في كل »

« أسبوع يجتمع فيه أهل العلم »

« للمناظرة بحضرته ، ما كان »

« مقياً بقربطية المعجب »

املأ أصدق مرآة يستجلى بها الإنسان صورة عصر
من العصور ، هي تلك المجالس ، وما قد يدور فيها من الحوار
والملاح ، ففيها يرى الإنسان بنفسه عادات القوم وأخلاقهم ،
ومن ثمة يأخذ بالمرح وجبة تمكيرهم وطريقة محادثتهم ، ويشاهد
الناحية التي تتجه إليها عقولهم ، والنقط الرئيسية التي يدور
عليها محور مناقشاتهم وجدلهم ، ورب عبارة واحدة ، يفوه
بها أحدهم دون تخرج ، وعلى غير عمد ، تدلنا على قومية الوسط
في ذلك العصر . و تقوده لمبدأ اجتماعي هام ، غفل المؤرخون

عن ذكره ، أو أهملوا الإشارة إليه

*
*

ولقد كرأن الأدب هو أصدق مرآة للنفوس ، وأن
تحرطبة كانت تحوى فى ذلك الزمن صفوة أدباء الأندلس ،
وأن الملوك والأمراء كانوا لفرط عنايتهم بالأدب - يضمون
الى مجالسهم ، خير ما تحويه هذه الصفوة الراقية من أساطين
الأدباء والعلماء الذين أنجبهم ذلك العصر الزاهر ، والذين كانوا
قدوة جمهور الأدباء فى ذلك العصر ، وكانت مجالسهم المعين
الذى تستقى منه أخركات العلمية والأدبية والاخلاقية ،
ومنى أقررنا ذلك أدركنا خطر هذه المجالس ، وأهمية
المناقشات التى كانت تدور فيها .

*
*

ونحن نسرد على حضراتكم بضع نماذج لتلك المجالس ،
محاولين جهدنا ، أن نرسم صورة مصغرة ، من الصور
المشرقة بالحياة التى نشهد فى ذلك العصر الزاهى الذى
اعترت به الأندلس . واعتز به "الأدب العربى"
وتجترى فى هذه الأمانة السريعة . بامتنان ثلاثة منها ،

ممسكين عن التعليق عليها - كما امسكنا عن التعليق على
غيرها من قبل ، رغبة في تحرى الإيجاز الشديد
على أن مجال القول ذو سعة ، ونحن فلو شئنا أن نطابق
لا نفسنا العنان في مناقشة كل ما نأتي به وتحليله ، لطال بنا
القول وضاق الوقت عن إيفاء موضوع واحد من المواضيع
الكثيرة التي أخذنا أنفسنا بالكلام عنها ، فلنكتف بهذه
العلاوة الآن :

- ١ -

مجلس أدب

كيف امتحنوا صاعدا

جلس المنصور يوما ^(١) وعنده أعيان مملكته
ودولته من أهل العلم كالزبيدي والعامري وابن العريف وغيرهم
فقال لهم المنصور : « هذا الرجل الوافد علينا ^(٢) يزعم

(١) تفح الطيب (٢) يعنى أبا العلاء صاعدا وسيمر بك

ترجمته بعد قليل

أنه متقدم في هذه العلوم ، وأحب أن يتحن ، فوجه إليه ،
فلما مثل بين يديه ، والمجلس قد احتفل ، خجل ، فرفع المنصور
محلّه ، وأقبل عليه وسأله عن ابن سعيد السيرافي ، فزعم
أنه أقيه وقرأ عليه كتاب سديويه

فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتب ،
فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحوي ليس جل بضاعته
فقال له الزبيدي : « فما تحسن أيها الشيخ ؟ »

فقال : « حفظ الغريب » ، قال : « فما وزن اوراق ؟ »
فضحك صاعد وقال : « أمثلي يسأل عن هذا ، إنما
يسأل عنه صبيان المكتب ! »

قال الزهري : « قد سألتك ، ولا نشك أنك تجهله »
فتغير لونه وقال : « أفعال وزنه »

فقال الزبيدي : « صاحبكم ممخرق ! »

وقال له صاعد : « يخش الشيخ بضاعته الأبنية : فقيل
له : « أجل » فقيل صاعد : « وبضاعتي أنا حفظ الاشعر ،

ورواية الاخبار ، وفك المعنى ، وعلم الموسيقى ! »
قالوا : « فناظره ابن العريف ^(١) فظهر عليه صاعد
وجعل لا يجرى في المجلس كلمة ، إلا أنشد شعرا شاهدا ،
وأنى بحكاية تجانسها »

— ٢ —

مجالس آخر

بداهة صاعد ^(٢)

كان صاعد بين يدي المنصور ، فاحضرت اليه

(١) سيمر بك بعد قليل شيء من مناقضات ابن العريف مع
صاعد ، تبين منه المنافسة الشديدة التي كانت بينهما ، والحق
الذي كان يضمه كل منهما للآخر

(٢) ترجمة صاعد

اسمه صاعد بن الحسن الربيع ، وكنيته أبو العلاء ، وأصله
من الموصل ، وقد تعلم في بغداد ، وامتد بها حتى تبحر في اللغة
والأدب ، ثم ورد على المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٨٠ ، في أيام
ملكه ، فتراد المنصور ان يعفي به آثار أبي علي القالي ، فلم يجد

وردة في غير وقتها لم يستتم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد
مرتجلا :

عنده ما يرتقبه ، وأعرض عنه أهل العلم ، وقدحوا في علمه
وعقله ودينه ، ولم يأخذوا عنه شيئا ، لقلة الثقة به .

وقد ذكر ابن بسام أن الأندلسيين دحضوا كتابه «الفصوص»
الذي ألفه للمنصور - ونحاه منحي كتاب الروادر للقالبي - وأنهم
نبذوه في النهر ، وذكر المراكشي صاحب كتاب المعجب والمقري
وغيرهما ، هذه الحكاية بروايات أخرى ، أشهرها أنه دفع الكتاب
للغلام بعد تمامه ، فعبر فزلت قدم الغلام به - وهو يسير نهر
قرطبة - فسقط هو والكتاب في النهر

قالوا : ففرح ابن العريف بذلك وقال مرتجلا بحضرة المنصور :
قد غاص في البحر كتاب الفصوص

وهكذا كل ثقل يغوص !
فضحك المنصور والحضور ، ولكن ذلك لم يرفع عنه
خقال :

عاد الى معدنه انما توجد في قعر البحار الفصوص

وكان السبب في تأليفه هذا الكتاب : أن المنصور رآه
كتاب الروادر للقالبي ، فأكد له صاعدا أن في قدرته أن يؤلف

أتيتك أبا عامر وردة يذكر المسك أنفاسها
كمذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها راسها

كتابا خيرا منه ، وقال له : « ان أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتابا أرفع منه وأحل ، لا أورد فيه خبرا مما أورده أبو علي ! » فلما أذن له المنصور بذلك جلس بجامع « الزاهرة » على كتابه « الفصوص » حتى اكمله

قالوا : فتبعه أدباء ذلك الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم ! »

ولقد أحسن ابن بسام كل الاحسان ، وتوخي شرعة الانصاف والعدالة ، في تعليقه على هذا الخبر ، حين قال : « ما أظن أحدا يجترئ على مثل هذا ! وإنما صاعد اشترط أن لا يأتي الا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه . بما كان يتقف به من الكذب ! »

وقد صدق ابن بسام ، فان اندفاع صاعد في الاجابة على كل سؤال ، من غير تدبر ولا اعمال روية ، قد كلفه ثمنا غاليا جداً ، هو عدم تحري الصدق في قوله وروايته ، وثم قلت ثقة لا داعين ، وعرفوا عن علمه

فسر بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضرا ، فحسده
وجرى الى مناقضته ، وقل للمنصور : هذان البيتان لغيره

وكيف يثق الاندلسيون بكلام رجل هو أسرع الداس بديهة
في ادعاء الباطل ، يكذب لأقل مناسبة حتى لا يرمى بالقصور أو
قلة الاطلاع ،

أمثلة من اكاذيبه

(١)

في اكاذيبه الجديدة ، ما أجاب به المنصور حين سأله يوما
عن الحنبلية ، فقال له : « هو حشيشة يعقدها الابن ببادية الاعراب ،
وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتها بقلبي كما عقد الحليب الحنبلية ! »
وقد شتهر هذا البيت حتى أصبح مثالا يتمدر به كثير
الأدباء ، كما عمت لهم مناسبة تذكرهم به :

(٢)

وقدم له المنصور يوما طبق فيه تمر . وسأله عن تمر كل في
كلام العرب . فاجبه بغير احتباس : « يقال تمر كل نرجل تمر كلا
إذا التف في كنهه ! »

وقد أنشدنيها بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندي
على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : « أرنيه » فخرج

(٣)

وأثروا اليه مرة بكراريس بيضاء ، جموها في مجلد ، وأرأوا
جديتها حتى ترمي القدم ، وترجم عليه : « كتاب الحكمة تأليف
أبي علي لغوث الصنعاني »

فترامى اليه صاعداً حين رآه - وجعل يقبله ويقول : « أي والله
قرأته بالبلد العلاني على الشيخ أبي فلان »
فأخذه المنصور من يده خوفاً أن يفتحه ، وقال له : « ان
كنت قد قرأته كما تزعم فعلام يحتوي ؟ »

فقال : « وأبيك ! لقد بعد عهدي به ولا أحفظ الآن منه
شيئاً ، ولكنه يحتوي على لغة منشوره ، لا يشوبها شعر ولا خبر
فقال له المنصور : « أبعده الله مثلك ! ثم رأيت أ كذب منك »
وأمر بأخراجه !

* * *

وقد هج صاعد كثيراً من معاصريه وهجوه ، ولم يل أقطع
ما قيل فيه ، من الهجاء ، قول بعضهم :

اقبل هديت أبا العلاء نصيحتي بقولها ، وواحب الشكر
لا تهجوز نس منك ، فربي تهجو بك وأنت لا تدري !

ابن العريف، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن
برد، وكان أحسن أهل زمانه بديهة، فوصف له ما جرى،
فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتي صاعد :

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| عشوت الى قصر عباسية | وقد جدل النوم حراسها |
| فألفيتها - وهي في خدرها | وقد صرع السكر أناسها - |
| فقات « أسار على هجمة؟ » | فقات « بلي ! » فرمت كاسها |
| ومدت يديها الى وردة | يحيا كي لك الطيب انفاسها |
| كعذراء ابصرها مبعر | فقطت بأكلها راسها |
| وقالت خف الله لا تفضحن | في ابنة عمك عباسها |
| فوايت عنها على غفلة | وما خنت ناسي، ولا ناسها |

فطار ابن العريف بها . وعاقها على ظهر كتاب بخط
معري ، وهداد أشقر ، ودخل بها على المنصور
فلما رآها اشتد غيظه ، وقال للحاضرين :

« غدا امتحنه ، فإن فضحه ، لا امتحان أخرجه من البلاد

ولم يبق في موضع لي عليه سلطان ! »

فلما أصبح ، وجه إليه ، فحضر ، واحضر معه جميع
الندماء ، فدخل بهم الى مجلس محفل . وقد أعد فيه طبق عظيم

فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير، وضع على السقائف
لعب من ياسمين في شكل الجوارى، وتحت السقائف بركة
ماء قد القى فيها اللاكلىء مثل الحصباء، وفي البركة حية تسبح
فلما دخل صاعد ورأى الطبق، قل له المنصور:
« ان هذا اليوم، اما أن تسعد فيه معنا واما أن نشقى
بالضد عندنا، لأنه قد زعم قوم أن كل ما نأثى به دعوى
وقد وفقت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق، ما توهمت
أنه عمل لملك مثله، فان وصفته بجميع ما فيه، علمت صحة
ما تذكره »

فقل صاعد بديهة :

أبا عمر ! هل غير جدواك واكف ؟
وهل غير من عادك في الأرض خائف ؟
يسوق اليك الدهر كل غريسة
وعجب ما يهواه عندك واصف
وشائع نور. صاغها همس احيا
عن حفتيها عبقر ورفارف



ولما تنهى الحسن فيها ، تقابلت
عليها بأنواع الملاحى الوصائف
كمثل الأطباء المستكنة كنسا
تظللها بالياسمين السقائف
وأعجب منها أنهم نواظر
الى بركة ضمت اليها الطرائف
حصاها الآلى ، ساج في عباها
من لرقش مشنوم الثعابين زاحف
ترى ما تراه الحسن فى جنباتها
من الوحش ، حتى يدينه السلاحف

قالوا : « فاستغربت له يومئذ تلك البديهة ، فى مثل
ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه »
وكان الى ناحية من تلك السقائف سفينة فى جارية
من النور تجذب بجم ذيف من ذهب لم يره ، صاعد ، فتد
له منصور : « حسنت ! لأنك اغفلت ذكر مركب
واجارية ، فقال الوقت ،

وأعجب منها غادة في سفينة
مكالة تصبو اليها المهاقف
إذا راعها موج من الماء تنقى .
بسكانها ، ما إن ذرته العواصف
متى كانت الحسناء ربان مركب
تصرف في يني يديها المجاذف
ولم تر عيني في البلاد حديقة
تنقها في الراحتين الوصائف
ولا غروا ان ساقط معاليك روضة
وشتها ازاهير الربى والزخارف
فأنت امرؤ ، لو رمت نعل متالع
ورضوى ، زوتها من سطاك نواصف
إذا رمت قولاً ، أو طلبت بديهة
فمكاني له ، إني لمجدك واصف
قلوا : فامر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب ،
ورتب له في كل شهر ثلاثين ديناراً (١) »

مجلس ثالث

مناقشة صاعد مع ابن العريف في حضرة المنصور

وننتهز هذه المناسبة فنختار من الامثلة الكثيرة التي
نثبت حضور ذهنه وقوة عارضته ، حكايته مع ابن العريف
بحضرة المنصور ، وقد رواها ابن سعيد وخلاصتها أن ابن
العريف دخل يوماً على المنصور ، وعنده صاعد ، فأنشده -
وهو بالموضع المعروف بالعابرية - من أبيات :

فألم امرية تزعمي على جميع البني

وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فأظهر صاعد المنصور أن في استطاعته أن يرتجز

خيراً من هذا الشعر الذي أعده ابن العريف وروى فيه .

فطلب منه المنصور أن يفعل ، ليظهر صدق دعواه ، فتد

من غير فكرة طويلة :

يا أيها الخاجب المم تلى على كيوم

ومن به قد تناهى نخار كل يمانى
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان
ثم مر فى الشعر الى أن قال فى ختام الايات :
قدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان
فأعجب المنصور ببدايته وقال لابن العريف : « مالك
فائدة فى مناقضة من هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؟ »
فأجابه ابن العريف : « انما انطقه وقرب عليه المأخذ
احسانك ! »
فقال له صاعد : « يفهم من هذا أن قلة احسانه اليك
أسكتتك وبعدت عليك المأخذ ! »
فضحك المنصور وقال : « غير هذه المنازعة اليق
بأدبكما ! »

نمोज من مجالس اللهو

مجلس انس ورقص

« كان صاعد اللغوى كثيرا ما يمدح بلاد العراق بمجلس
النصور ويصفها ويقرظها ، فكتب الوزير عبد الملك ابن
شهيد^(١) الى النصور في يوم برد ، بهذه الايات :

| | |
|---|--------------------------|
| أما ترى برد يومنا هذا | صيرنا للكمون اقذاذا ؛ |
| قد فطرت صحة الكبود به | حتى اسكادت تعود اقلاذا ؛ |
| قادع بنا للشمول مصطليا | نغد سيرا اليك اغذاذا |
| وادع المسمى بها ، وصاحبه | تدع نبيلاً ، وتدع استاذا |
| ولا نبالي أبا العلاء ^(٢) زها | بخمر قطربل وكلواذا |
| مادام في أرملاط مشربنا | دع دير عمى ، وطيرنا باذا |

وكان النصور قد عزم ذلك اليوم على الاتفراد بخمره

(١) عبد الملك ابن شهيد هو والد الوزير أبي عامر حمد ابن

شهيد ، وابنه هذا هو الشاعر المشهور الذي تقدم ذكره وخرف
من أخباره في ص (٢١٤)

(٢) يعني أبا العلاء صاعداً وقد مر ذكره وترجمته في ص (٣٢٢)

فأمر باحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء ، واحضر
ابن شهيد في محفة ، لنقرس كان يعتاده ، وأخذوا في شأنهم ،
فمر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، ووقت لم يعهدوا نظيره
وطما الطرب ، وسما بهم حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا
يرقصون بالنوبة ، حتى انتهى الدور الى ابن شهيد ، فأقامه
الوزير ابو عبد الله بن عباس ، فجعل يرقص ، وهو متوك
عليه ، ويرتجل ، ويومي الى المنصور ، وقد غلبه السكر :

| | |
|------------------------|--------------------------|
| هك شيخا قاده السكر | قام في رقصته مستهلا |
| لم يطق يرقصها مستتبها | فأثنى يرقصها مستمسكا |
| عافه عن هزها منفردا | نقرس ، اخنى عليه ، فانكى |
| من وزير فيهم رقاصة | قام للسكر ينافى ملكا |
| أنا لو كنت كما تعرفنى | فمت اجلالا على رأسى لكا |
| فقهه الابريق منى ضاحكا | ورأى رعشة رجلى فبكى |

قلوا : « وكان حاضرهم ذلك اليوم ، رجل بغدادى
حسن النادرة سريعا ^(١) فلما رأى ابن شهيد يرقص قائما

(١) وكان يدرف بالمكنك ، وكان ابن شهيد استحضره

من ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة ، قال : « لله درك
يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلي بالقاعدة ؛ »
فضحك المنصور وأمر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر
الجماعة وللبيغدادى^(١) «

نظام التشكيل في اللغة الأندلسية

١

البلاغة العربية في الأندلس (١)

— ١ —

ملوك الطوائف

لقد قيل بحق إن وجه الشبه كبير جداً بين تاريخ
اسبانيا في القرن الحادي عشر وتاريخ إيطاليا في القرن الخامس
عشر - فلقد تفرقت امبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة
وظهر على انقاضها عدة ممالك صغيرة انشأتها الظروف
والمصادفات ، وكان يحكمها بعض القادة المظفرين

(١) معربة عن كتاب الامتاز نيكسون

(Condottieri) وكان من بينهم ملوك العبادية الذين قطنوا أشبيلية وهم ، أقوى ملوك ذلك العصر وقد اطلق عليهم كتاب الماسمين اسم « ملوك الطوائف »

وعلى الرغم من أن ذلك العصر كان عصر تدهور سياسي وعلى الرغم من أن اسبانيا كانت تشكو عجز مواردها الاقتصادية - فقد وصل المجتمع في تلك الأيام الى مستوى لم يصل الى مثله من قبل ، وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة علما نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى الذى قطعته الآداب والعلوم في طريق النجاح في ذلك العصر الذى يعد أزهى عصور الاحتلال الاسلامى في اوروبا

أثر التمهيد العربى في نفوس الاسبانيين
فبينما ترى العرب الفاتحين في آسيا - كما يينا ذلك - قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بنا لانبية - فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم - اذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق في الغرب حتى انعكست الآية تماما -

وذلك أنهم - بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة - وقع في أيديهم
آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها. فعاش أولئك المسيحيون
في كنف المسلمين . وأحسنّت الحكومة معاملتهم ومنحتهم
الحرية الدينية، وكثيراً ما رفعتهم إلى مناصب عالية في الجيش
وفي بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الحضارة الإسلامية
وافتن بها افتتاناً، حتى رأينا « القارو » كاهن قرطبة في أواسط
القرن التاسع الميلادي يولول في أوائل ذلك العصر شاكياً من
إتناء دينه انكبابهم على مطالعة أشعار العرب وإساطيرهم
وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتي المسلمين وفلاسفتهم -
لا بتعمد تفنيدها - بل رغبة في التعبير عن خواجلهم بأسلوب
عربي رشيق وصحيح -

شكوى القارو

وكان القارو يتسأل قائلاً : « أنى يتاح للإنسان في
هذه الأيام أن يقابل واحداً من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير
اللاتينية في مكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذي يدرس منهم
فصول الأ، جيل ومير الأبياء والحواريين ؟ واحسرتاه ؟
إن كل "شبه أنى" مسيحيين ذوي المواهب ، لا يعرفون إلا

العربية وإلا كتابات العرب ، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماس بالغ منتهاه - كما انهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود لاقتنائها في مكاتبهم . وتراهم - أنى وجدوا - يذيعون ان تلك الاداب جديرة بالاعجاب ، فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور جانبهم ، وأجابوك باحتقار - « إنها اسفار لا تستحق الذكر : » واحسرتا عليهم ! لقد نسي المسيحيون لغتهم ، حتى ليندر العثور - بين آلاف منا - على فرد يستطيع ان يحرر الى أحد أصدقائه رسالة لائنية بأسلوب لا بأس به - على حين ترى العدد الجمل قادراً على الابانة عما في نفسه بأسلوب عربي خلاب ، وعلى حين ترى حذقهم في فرض الشعر العربي قد وصل الى حد فوق منه لعرب أنفسهم ، « اه

ومهما يكن في كلام هذا الكاهن من المغالاة فما يترفع عن الجدل والانشكك ، أن التهذيب الاسلامي قد أخذ بأبواب المسيحيين الاسيان . كما افتتن به اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التي انشئوها بلغتهم وادغة ابنة عمهم « العرب »

أما المولدون والعصابتون من الاسبانيين الذين اعتنقوا
الدين الاسلامي فقد استعربوا تماما بعد أجيال قليلة .
ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الادب العربي

— ٣ —

شعر العرب الاسبانيين

وقد كان للشعر العربي في أوروبا على وجه الاجمال
نفس الخصائص التي رأيناها في الشعر المعاصر له في الشرق
فان الاوزان المصطلح عليها والقيود التي لم يستطع أساطين
بغداد وحلب أن يحرروا أنفسهم من ربقها ظلت بمخاديرها
في قرطبة وأشبيلية

وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالاداب الفارسية
فقد تأثر في اسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين
واندماجهم شيئا فشيئا - فكان ذلك سببا في ادخال عناصر
جديدة ظهرت في آدابهما

ولعل امتع ميزات الشعر الاسباني هي ذلك الوجدان
العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في النسيب ، والذي
ظهر كثيرا في اغانيهم عن الحب ، وهو وجدان لا يقتصر

على تصوير فروسية القرون الوسطى ، بل يتخطى ذلك الى حد أن تحسبه احساسا جديدا بحاسن الطبيعة التي جعلته ؛ ولهذا الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لا يسهل عليهم تفهم روح المعلقات وقصائد المتنبي

وقد كان يكون من الممتع - لولا ضيق المقام - أن نترجم هنا بضع قصائد وصفية فاتنة مما جمعه المنتخبون ، على أن اغفلنا ذلك لايحزننا كثيرا فقد نقل اليه شيخ عدة مجاميع من أبداع المترجمت في كتابه المسمى : شعر العرب وفنونهم في سبانيا وصقلية : *p eise und kunst der araber in spanien. v. S. 1. 2. 3.*

وتسمى في شروبي عن مدينة شب (Sh) بـ برقان أن من إحدى عجائبها تمت الحقيقة التي قرأ أفراد لا يحصون وهي قوته . وكان من مدنها مش شب ، فمن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعنى الأدب . ولو مررت بفلاح خلف فدانه وسأته عن شعر قرض من ساعتهم اقترحت عليه وى معنى طلبته منه ^(١) »

الاغاني الدارجة

وكان من بين تلك الاغاني الدارجة فنا الزجل^(١)
والموشحات^(٢) وهما ضربان محبوبان ، وكلاهما مبتدع في
اسبانها ، ووضعها معروف وانشاؤها متجانس . ويتركب
أغلب هذه الاغاني والاصناف الدارجة ، من العامية الرقيقة
غير المقيدة بقواعد اللغة^(٣)

وأول من رفع الزجل الى مرتبة الادب هو ابن
قرمان ، في سنة ١١٦٠ ميلادية .

ومما نقل اليها من مخلفات الامويين بالاندلس ، نرى
أن شغفهم بالشعر والموسيقى والبلاغة الراقية ، قد زاد حتي
عن حبهم القرآن^(٤)

(١) ارجع الى ص (٢٨٨)

(٢) رجع الى ص (٢٣٣)

(٣) ارجع الى ص (٢٨٨)

(٤) ارجع الى ص (٤٠)

٢

عجائب الأندلس من أخبار الحفص

— ١ —

ألى أي حد بلغت !

✱ ✱

قَالَ الْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ وَزِيرِ بْنِ مَرْوَانَ عَبْدَ الْمَلِكِ :
« بَيْنَمَا أَنَا قَائِدٌ فِي دَهْلِيزِ دَارِنَا وَعِنْدِي رَجُلٌ نَاسِخٌ مَرَّتَهُ
أَنِّي يَكْتُبُ فِي كِتَابٍ غَنِيٍّ بِخَوْنٍ نَاسِخٌ لِكُلِّ رَيْسٍ تَحْتَ
كُتُبَتِهَا أَتَمَّتْ لَهُ : دُرُُّ الْإِصْبِ نَسِي كُتُبَاتٍ مِنْهُ لَا قَبِيلَ مَعَهُ
بِهِ ؟ » قُلْتُ مَا أَتَيْتَ بِهِ مَعِي ، فَبَيْنَمَا أَنَا مَعَهُ فِي ذَلِكَ فَدَخَلَ
الدَّهْلِيزَ عَائِدًا رَجُلٌ بَذَّ لَهَيْئَةً ، عَلَيْهِ ثِيَابٌ غَلِيظَةٌ أَكْثَرُهَا
صَوْفٌ وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ قَدْ لَاشَتْهَا مِنْ ذِيرَاتِهَا لَهَا ، خُشْبَتُهُ
لَمَّا رَأَيْتُهُ مِنْ بَعْضِ سَكَنِ أَهْلِ بَادِيَةِ فَسَلِمَ وَقَعَدَ ، وَقُلْتُ :
« يَا بَنِي ! اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى الْوَزِيرِ ابْنِ مَرْوَانَ » فَقَالَتْ لَهُ هَوْنًا ،

هذا بعد ان تكلمت جوابه غاية التكلف - حماني على ذلك نزوة الصبي، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل، ثم سكنت عن ساعة وقال « ما هذا الكتاب الذي بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال : « أحب ان أعرف اسمه فاني كنت اعرف أسماء الكتب » فقلت : « هو كتاب الاعاني فقال لي أين بلغ الكتاب منه قلت : « بلغ موضع كذا » وجمعت التحث معه على طريق السخرية به والضحك على قايه، فقال : وما لك انك لا يكتب ؟ قلت : طلبت منه الاصل الذي يكتب منه لا عارض هذه الاوراق . فقال لم أحى به معي . فقال : بني خذ كراريسك وعارص . قلت : بماذا ؟ وبين الاصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباهي فبسمت من قرئه فما رأي تبصمي قال : يا بني امسك على . فأمسكت عليه وجعل يقرأ . فوالله ان أخطأ و'وا' ولا وء . هكذا نحو كراسين . ثم خذت له في وسط أسفرو آخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء . فاشتد عجبى، رشت سمرعا حتى دخلت على بني فخبرتهم الخبر ووصفت له الرجل، فقام كما هو من فوره لا يرفق على نفسه

وأنا بين يديه، وهو يوسمني لوما حتى ترامي على الرجل وعاتقه، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول: «يا مولاي! اعذرني، فوالله ما أعلمني هذا أخلف إلا الساعة» وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول: ما عرفني. وأبى يقول. هب به ما عرفك فما عذره في حسن الادب؛ ثم أدخله الداروا كرم مجلسه وخلا به، فتحدث طويلا. ثم خرج الرجل وبني بين يديه حتى بلغ الباب وتمر بدانته التي يركبها وسرجت وحمى عليه ايركبتها ثم لا ترجع اليه أبدا. فما انفصل قلت لأبي: من هذا الرجل لدى عظمته هذا التعظيم؟ فقال لي: اسكت! ويحك! هذا أديب الاندلس وسيدها في علم الادب. هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون. أيسر محذوذه كتاب الاغانى، وما حفظه في ذكره وطره وجودة قريحته (٥٥)



أتينا بهذه الحكاية لطوية ممتعة. الحافية بكثير من عادات العرب وكيفية تقديرهم لادب ولادباء، لتبين منها ما يلي:

أولاً - عناية الوزراء وأرباب السلطان بالأدب ورجاله،
ووضعهم إياهم في المكان الأول من الاجلال والرفعة، وقد
اطنبت الحكاية في وصف ذلك

ثانياً - اهتمام الانداسيين الشديد بنقل كتب الشرق
ونسختها لتعم فائدتها واقصد يزيدكم اقتناعاً بهذا الرأي
ما سمعتموه في حينه عن الحكم الذي وعنايته الفاتحة الحدود
باقتناء الكتب النفيسة وجلبها من اقصى بلاد الشرق حتى
لقد بادر بشراء كتاب الاغانى قبل ان ينشر في الشرق نفسه^(١)

ثالثاً - شغف الانداسيين بالاكتثار من المحفوظات
الى حد يصعب تصديقه على من لم يدرس العرب دراسة
جيدة، فان من لا يعرف المنزلة العالية التي وصلت اليها
ملكوت العرب في "شرق"^(٢) لا يستطيع تصديق هذه
الحكاية وأمثالها مما يروونه عن عرب الاندلس^(٣)

رابعاً - كن يكفي لاعتبار الانسان أدبياً أن يكون

(١) ارجع الى ص (٢٢٧ و ٢٢٨)

(٢) سيمر بك شيء من ذلك في (ص ٣٢٧ - ٣٤٩)

(٣) سيمر بك ظرف من ذلك في (ص ٣٥٠)

ذا محفوظ كبير . كما كان يكفى المقارنة بين أدبيين أن يعرف
أيهما أكثر محفوظاً من صاحبه . وهو عندم بالريب
الأجدر بالفضل والاحلال . كذلك كانوا يفعلون وكذلك
كان يفعل العرب الشرقيون من قبلهم^(١)

(١) وحديثك دليلاً على صحة ذلك ما متلأت به كتب
الأدب من الحكايات المدهشة التي استشهدوا بها على تفوق العرب
في الحفظ . والى أقدمى عدة مثله هي قليل جداً من كثير جداً
من أشبهها :

(١)

روى الأصمعي أن فتياناً جاءوا إلى أبي ضمضم بعد العشاء ،
فقال لهم : « ما جاء بكم يا خثع ؟ » قالوا : « حدثك نتحدث »
قال كذبتهم ! بن قلتم : كبر الشيخ وتبدعت (جهلته) نس ،
عسى أن يأخذ عليه سقطة »

فأشد حمالة شاعرهم منهم عمرو . قال لأصمعي : « قد كنت
وخلف لأحمر فلم تقدر على أكثر من « آير ! »
وقد راق ابن قتيبة عني هذا خبر قمره : « هذا ما حفظه
أبو ضمضم ، ولم يكن بأروى نس »

وهكذا كان يشجعهم ملو كههم واولو الامر فيهم على

(٢)

واستدل مؤرخو الآداب على سعة حفظ الخوارزمي وغزارة
مأثره ، بحكاية مع الصاحب ابن عباد حين قصده وهو بأرجان ،
فلما وصل الى بابه ، قال لأحد حجابيه : « قل للصاحب على الباب
أحد الأدباء ، وهو يستأذن في الدخول » فدخل الحاجب وأخبره
أن الصاحب لا يقبل الا من يحفظ نحو ستة عشر ألف قصيدة ،
فقال له الخوارزمي : ارجع اليه وقل له : « هذا القدر من شعر
الرجال أم من شعر النساء ؟ »

قالوا : فدخل الحاجب ، فأعاد عليه ما سمع ، فقال الصاحب
« هذا يكون أبا بكر الخوارزمي ! » وأذن له في الدخول فدخل
عليه فعرفه وانبط له !

(٣)

ولنجزيء بالقطعة التالية التي نقتطفها من فصل ممتع كتبه
الأديب البستاني في مقدمة الالفاذة عن الحفاظ ، قال :
« وأما مبلغ التذاكرة عندهم (العرب) فما لا ينوقه شيء في
أخبار اليونان والرومان والافرنج ، وفي أخبارهم ما لو حذف
منه شيء كثير ، لربا باقيه على مرويات اليونان قديمهم وحديثهم »
الى أن قال :

الإكثار من الحفظ حتى وصلوا في هذه الطريق الى حد

« فما بالك لو سمعت ما ذكروا عن غرائب حافظة حماد الراوية
اذ امتحنه الوليد بن يزيد ، ووكل به من يسمع انشاده ، فأشدد
تباعاً الفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية ، أو لو قيل لك .
« ان الاصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة كاملة ، ما خلا
القصائد والمقاطيع ، وأخبار العرب ، بدوهم وحضرهم »
وهذا قول - مهما أنس فيه من المبالغة - لا يخلو من صحة
بعضها كاف لا ثبات ما توخينا »

ولم يقل البستاني ان لذة كرة عند العرب مما لا يفوقه شيء
في اخبار اليونان والرومان والافرنج ، الا بعد أن أتى لك بوضع
أمثلة صادقة تدبين من خلالها تفوق تلك الامم في الحفظ - ومن
تلك الامثلة التي استشهد بها ما نقله من رأى الكسندر شذركو
الذي ورد في ص (٥٥٩) من الجزء الثالث عشر من مجلة العالمين
Revue des deux Mondes وهو قوله :

« ان حفاظ العجم يتلون لك من شعر شعرائهم ما لا تصدق
أن ذا كرة تعيه لكثرة ، فقد يظل المذشد يتغنى بأشعار الشهنامة
(وهي البياذة الفرس) نهاراً كاملاً » وما أدراككم بيتاً يقل في نهار
الى أن يقول :

« وقد ذكر كتاب لافرنج كثيرين ممن عنوا بحفظ كتاب
أو منظومة ، فما لبثوا أن أدركوا بغيتهم كما كولى (McCaul)
الذي أشد نصف منظومة ملتن الانكليزية في الأفراد من الغابر » هـ

يدعوللحيرة والدهشة (١)

(١) فقد أكثر ملوك الاندلس من اقتراح حفظ كتب
بعضها ، وخصوا من يفعل ذلك بجوائز مالية ، فاشتد اقبال الناس
على تنفيذ رغباتهم طمعاً في ذلك ، وثم وصل حفاظ الاندلس الى
درجة لا تقل عما وصل اليه حفاظ المشرق

حدث المراكشي صاحب كتب المعجب ، مخبراً عن أستاذه
أبي جعفر احمد بن يحيى الحميري المتوفى سنة ٦١٠ هـ ، وكان قد حضر
عليه بقرطبة في سنة ٦٠٦ هـ . فقال :

« كان أبو جعفر آخر من انتهى اليه علم الآداب بالاندلس ،
لزمته نحواً من سنتين ، ثم رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث
ولا أذكر بحكاية تتمق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو
سجعة مستحسنة منه ، أدرك جلة مشايخ الاندلس ، فأخذ عنهم
علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعاهه على ذلك طول عمره
وصدق محبته ، وافراط شغفه بالعلم

قل لي رلده صاص ، وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي
الطيب قرئت لي أو أكثرها ، ولقيتها شديدة الصحة ، فقلت
لقد كتبتهم من أصل صحيح ، ونحرزت في ذيلها ، فقال : « ما يمكن

ابن عبدون والأصمعي

على أننا لو رجعنا الى أنفسنا قليلا ، وذكرنا الاجلال
والخفارة اللذين لقيهما الأصمعي مثلا من الملوك ، لادرر كننا
أن فكرة الاكثار من المحفوظ ، ليست غريبة في الاندلس
فقد كانت بنفسها في المشرق (١)

وبعد ، فن هو الاصمعي ؟

أليس هو آدب أديب في الشرق : فاذا لم تشأ أن تعد

أن يكون أصل أصبح من الاصل لدى كتبت منه « فقلت : « أن
هو » ، فقال لي : « عن يمينك » فسمعت أنه يريد الشيخ ، فقلت :
« م عى يميني لا لأستاذ ! » فقال لي : « هو أصلي ، رأيت أملاؤه
كتبت ، كان يمي من حفظه » فجعلت أتعجب ، فسمعت الأستاذ
حديثا ، قالفت أينما وقل : فيم اتما ؟ فأخبره ولده بالخبر ، فلما
رأى تعجبي ، قل : « بعيد ان تملحوا ! يجب احكم من حفظ
ديوان المتنبي ! والله لقد دركت اقواما لا يعرفون حفظ كتاب
سيبويه حاشا ، ولا يرونه مجتهدا . »

() (ارجع الي ص ٣٢٧١ - ٣٤٩)

مسرفاً، قلت هو من أساطين ادباء الشرق ! ثم ما هي ميزته
على سواه ؟ وما هي الموهبة النادرة التي أحلتها ذلك المكان
الأول بين اساطين الادب ورجالہ الافذاذ ؟ أم هي آراؤه
القيمة وانتقاداته الثمينة ؟ أم هي انه كان ذا مذهب خاص في
الأدب كمذهب عبد القادر الجرجاني أو مذهب تين أو
غيرهما ؟ أم هي أنه تفرد بين رجال البلاغة بعقريّة جبارة
كانت سبباً في نقل الشعر من مكانه وتقدم البلاغة العربية
خطوات واسعة ، وتطور الافكار من حالة الى حالة ؟

اللهم لم يكن واحداً من هؤلاء ، ولم تكن شهرته
العظيمة لسبب من هذه الاسباب ، فان تاريخ الرجل ينبئنا
أنه لم يكن ذا رأى خاص في الأدب العربي ولا في سواه ،
ولكنه كان رجلاً يمتاز عن غيره بأن من أيسر محفوظاته
كذا من آلاف القصائد والاراجيز ، تلك هي أهم مواهبه
فاذا طلبت من تاريخه أكثر من ذلك لم تعد بطائل ، فلقد
تقرأ كل أحاديثه واخباره فلا تجد فيها ما يشعرك حتى بأنه
مفكر غير عادي !!

كذلك كان ابن عبدون صورة مصغرة للأصمعي ، فاذا

كنّا أخطأنا في تقديره وكان هو أكبر من ذلك ، فهو
صدورة تامة للأصمى ، فاذا زادت رتبته فهو صدورة مكبرة
له ، وهو بعد كل هذا رجل راوية ، ملا حافظته بكلام طويل
لم يفكر في انتقاد غثه من سمينه (١)

— ٣ —

أثر الحفظ في الشعر العربي

وانا انساؤل أنفسنا الآن ، وحق لنا ذلك : أنذا شغلت
الحفظة مثال هذا السفر الكبير الذى بلغ عدد أجزائه
وحد وعشرين مجلدا من أكبر المجلدات - يبقى ثمة شيء
يذكر المفكرة والخيلة وغيرهما ؟ ثم ماذا يبقى بعد من
شخصية الشاعر التى اندمجت كل الادماج فى أروح من
سبته (٢) ... لا شيء لا شيء !

(٢) يحضرننا بهذه المناسبة قول الاستاذ الامام محمد عبده ،
حين بلغه من اديبا مستظهر مخننا الصراح ، فاجاب : « حسنا
جدا . لقد زادت عندنا لجة اخرى من نسخ هذا الكتاب ! »
(١) ولا بأس ان غاب من سبقوه وقد كانوا كذبه
متجدي بهجت ، لان مذكبتهم تكونت من مخننات !



اذن فليس بعجيب أن يعجز ذلك الشاعر عن ابتكار
شيء جديد أو انتحاء طريق خاصة في التفكير، فإن تكوينه
لا يساعده على ذلك، وإذا كنا نعتقد أن الانسان قد يقرأ
كتاباً من كتب الادب أو صحيفة من الصحف فيعاق
بذهنه بضع أساليب يستعملها من غير أن يشعر بذلك،
أفلا يجوز لنا أن نفهم السر في تشابه الشعر العربي وتقارب
معانيه وأغراضه - ان لم نقل تطابقها في اغلب القصائد -
ثم أفلا نستطيع أن ندرك بعد السبب الاكبر في وقوف
الشعر العربي نحو عشرة قرون وعدم انتقاله من مكانه انتقالاً
يدعو الى الغبطة؟ - لقد طالما احتار الانسان في تعليل تلك
النكبة التي أصابت الشعر العربي فأرهمته، ولطالما حاولنا
الوصول الى تعليل معقول نهتدى به الى السر في اتفاق
أساليب شعراء العربية - على الخصوص - وسبب تلاشي
شخصياتهم جميعاً الا الشاذ منهم الذي قد لا يتجاوز عدده أصابع
اليد الواحدة، بالرغم من أن الشعر العربي كله تقريباً شعر
وجداني - أي شعر عاطفي تنجلي فيه شخصية الشاعر واضحة

لكل ناقد خبير - ولكن هذه الحكاية وأشباهاها الكثيرات ،
التي نتبين منها عناية العرب الفائقة الحدود بالا كثار من
المحفوظ ، وقول أحد ادبائهم :

احفظ تقل ما شئت - ان الكلام من الكلام !
كل ذلك يميّط لنا اللثام عن السر في تأخر الشعر العربي ،
ويعلل لنا السبب في تلاشي شخصية شعراء العرب بل فنائها
في اغلب قصيدهم

* * *

ولا يحق لنا أن ننسى أن كثرة المحفوظ تدعو الى متانة
الأسلوب ، ولكنها من ناحية اخرى تدعو الى فناء الشخصية
وقتل المفكرة قتلا - ولو أنهم كانوا يحفظون فينتقدون
ما يحفظونه انتقادا يظهر صادق الادب من زائفه ابقيت
أمل كبير في انتقال الشعر العربي وتدرجه في سبيل الكمال ،
والكن أني يكون ذلك وقد اتخذوا ما حفظوه عن أسلافهم
نماذج عالية وأهثت من مثل الكج التي تسمو عن مستوى
النقد ، كما تلقفوا بجانب ذلك عدة أحكام على الشعراء
والأدباء لا تدل على أصالة فكر مطلقا !



ذلك في نظرنا - داء عيـاء استحكـم فيهم فرجع ٣٣ .
 القهقري ، ونكبتنا في الشعر العربي والبلاغة العربية ولو
 اتيح لهما افراد قلائل على شاكاة عبد الفاهر الجرجاني
 وعبد العزيز الجرجاني ، لعرفوا كيف ينتقلون بالبلاغة العربية
 الى المكان الذي وصلت اليه بلاغة الغربيين في هذه الأيام !

الخطأ والصواب

في الكتاب عدة اخطاء ، طبعية قليلة وقعت سهوا ، ولا
 نحسبها تخفى القارىء ، ولكن لا يسعنا أن نغفل التنبيه على ما يلي :

| صحيحة | سطر | خطأ | صواب |
|-------|-----|------------|--------|
| ٥ | ٦ | الناصر | الداخل |
| ٧ | ٢ | الحادي عشر | التاسع |
| ٩٢ | ٨ | الراعي | الخامس |
| ٤ | ٩ | ٣٥٩ | ٤٥٩ |

